

الكتاب : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج

المؤلف : وهبة بن مصطفى الزحيلي

الموضوع : فقهى و تحليلى

القرن : الخامس عشر

الناشر : دار الفكر المعاصر

مكان الطبع : بيروت دمشق

سنة الطبع : ١٤١٨ ق

تنبيه [الترقيم داخل الصفحات موافق للمطبوع]

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتاب : التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج

المؤلف : وهبة بن مصطفى الزحيلي

الموضوع : فقهى و تحليلى

القرن : الخامس عشر

الناشر : دار الفكر المعاصر

مكان الطبع : بيروت دمشق

سنة الطبع : ١٤١٨ ق

تنبيه [الترقيم داخل الصفحات موافق للمطبوع]

(١/١)

ج ١ ، ص : ٥

[الجزء الأول]

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله منزل الكتاب على قلب محمد النبي الأمين ، والصلاة والسلام على أفضل الأنبياء

والمرسلين ، الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين. ويعد :
فإنه لم يحظَ كتاب في الوجود بعناية مثلما حظي به القرآن الكريم ، الذي كتبت حوله مئات الكتب ،
وسيطل مورد العلماء ، وهذا بالتالي كتاب اصطفت فيه من العلوم والمعارف والثقافات المستقاة من
معين القرآن الكريم الذي لا ينضب ، ما هو لصيق الصلة بحاجات العصر ، ومتطلبات الشقيف ،
بأسلوب جلي مبسّط ، وتحليل علمي شامل ، وتركيز على الغايات والأهداف المنشودة من تنزيل القرآن
المجيد ، ومنهج بعيد عن الإطالة المملّة ، والإيجاز المخلّ الذي لا يكاد يفهم منه شيء لدى جيل
بعدوا عن اللسان العربي في طلاوة بيانه ، وأعماق تراكيبه ، وإدراك فحواه ، وكأنهم أصبحوا- بالرغم
من الدراسات الجامعية المتخصصة- في غربة عن المصادر الأصيلة ، والثروة العلمية العريقة في شتى
العلوم من تاريخ وأدب وفلسفة وتفسير وفقه وغيرها من العلوم الإسلامية الكثيرة الخصبة.
فكان لا بدّ من تقريب ما صار بعيدا ، وإيناس ما أصبح غريبا ، وتزويد المسلم ب زاد من الثقافة بعيدة عن
الدّخيل كالإسرائيليات في التفسير ، ومتفاعلة مع الحياة المعاصرة ، ومتجاوبة مع القناعة الذاتية ،
والأصول العقلية ، والمركزات الفكرية السليمة ، وهذا يقتضينا تمحيص المنقول في تفاسيرنا ، حتى إن
منها

ج ١ ، ص : ٦

(١/١)

- تأثرا بروايات إسرائيلية- أحدث شرخا غير مقصود في عصمة بعض الأنبياء ، واصطدم مع بعض
النظريات العلمية التي أصبحت يقينية الثبوت بعد غزو الفضاء ، واتساع ميادين الكشوف العلمية
الحديثة ، علما بأن دعوة القرآن تركزت على أعمال العقل والفكر وشحذ الذهن وتسخير المواهب في
سبيل الخير ، ومحاربة الجهل والتخلف.

وهذا في الأصل من هذا المؤلّف هو ربط المسلم بكتاب الله عزّ وجلّ ربطا علميا وثيقا : لأن القرآن
الكريم هو دستور الحياة البشرية العامة والخاصة ، للناس قاطبة ، وللمسلمين خاصة ، لذا لم أقصر
على بيان الأحكام الفقهية للمسائل بالمعنى الضيق المعروف عند الفقهاء- وإنما أردت إيضاح الأحكام
المستنبطة من آي القرآن الكريم بالمعنى الأعم الذي هو أعمق إدراكا من مجرد الفهم العام ، والذي
يشمل العقيدة والأخلاق ، والمنهج والسلوك ، والدستور العام ، والفوائد المجنية من الآية القرآنية
تصريحا أو تلميحا أو إشارة ، سواء في البنية الاجتماعية لكل مجتمع متطور ، أم في الحياة
الشخصية لكل إنسان ، في صحته وعمله وعلمه وتطلّعاته وآماله وآلامه ودينه وآخرته ، تجاوبا في
المصادقية والاعتقاد مع قول الله تبارك وتعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ

لِما يُخَيِّكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [الأَنْفَال ٨ / ٢٤].

- إنه الحق سبحانه وتعالى ورسول الحق في هذه الآية اللذان يدعوان كل إنسان في هذا الوجود إلى الحياة الحرة الكريمة الشريفة بكل صورها ومعانيها.

(٢/١)

- إنه الإسلام الذي يدعو إلى عقيدة أو فكرة تحيي القلوب والعقول ، وتطلقها من أوهام الجهل والخرافة ، ومن ضغط الوهم والأسطورة ، وتحرر الإنسان من العبودية لغير الله ، ومن الخضوع للأهواء والشهوات ، ومن طغيان المادية القاتلة للشعور الإنساني السامي.

ج ١ ، ص : ٧

- إنه القرآن الذي يدعو إلى شريعة العدل والحق والرحمة العامة بالإنسانية ، ويدعو إلى منهج سليم للحياة والفكر والتصور والسلوك ، وإلى نظرة شاملة للوجود توضح علاقة الإنسان بالله تعالى وبالكون والحياة.

وهي دعوة قائمة على العلم والمعرفة الصحيحة والتجربة ، والعقل والفكر الناضج الذي لا يفتر من كدّ الذهن وتشغيل المدارك ، والنظر في هذا الكون سمائه وأرضه ، برّا وبحرا وجوّا ، وهي دعوة أيضا إلى القوة والعزة والكرامة والثقة والاعتزاز بشريعة الله ، والاستقلال ، مع الاستفادة من علوم ومعارف الآخرين ، لأن العلم ليس حكرا على شعب دون شعب ، وإنما هو عطاء إنساني عام ، كما أن تحرير الإنسان وتحقيق إنسانيته العليا هدف إلهي عام ، يعلو على مصالح الطغاة والمستبدين الذين يحاولون مصادرة إنسانية الإنسان من أجل الإبقاء على مصالحهم الخاصة ، واستغلالهم على غيرهم ، وتسليطهم على بني البشر.

(٣/١)

و لن يتأثر الاعتقاد بأصالة دعوة القرآن الخيرة هذه إلى الناس كافة ، بما يوضع أمامها من عراقيل ، أو يث حول جدارتها من شكوك أمام النهضة الحضارية المادية الجبارة ، لأن هذه الدعوة ليست روحانية مجردة ، ولا فلسفة خيالية أو نظرية بحتة ، وإنما هي دعوة واقعية مزدوجة تضم بين جناحيها الدعوة إلى عمارة الكون ، وبناء الدنيا والآخرة معا ، وتعاضد الروح والمادة معا ، وتفاعل الإنسان مع كل مصادر الثروة في هذا الكون ، الذي سخّره الله تعالى للإنسان وحده استعمالا وانتفاعا ، واستنباطا واختراعا ، وإفادة واستكشافا مستمرا ، كما قال الله تعالى : هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ،

ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ، فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [البقرة ٢ / ٢٩].
والمهم من التفسير والبيان مساعدة المسلم على تدبر القرآن الكريم الأمور به في قوله تعالى : كِتَابٌ
أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ [ص ٣٨ / ٢٩].

ج ١ ، ص : ٨

و إذا كان هدفي هو وضع تفسير للقرآن الكريم يربط المسلم وغير المسلم بكتاب الله تعالى - البيان
الإلهي ووحيه الوحيد حاليا ، الثابت كونه كلام الله ثبوتا قطعيا بلا نظير له ولا شبهه - فإنه سيكون
تفسيرا يجمع بين المأثور والمعقول ، مستمدا من أوثق التفاسير القديمة والحديثة ، ومن الكتابات حول
القرآن الكريم تاريخا ، وبيان أسباب النزول ، وإعرابا يساعد في توضيح كثير من الآيات ، ولست
بحاجة كثيرة إلى الاستشهاد بأقوال المفسرين ، وإنما سأذكر أولى الأقوال بالصواب بحسب قرب
اللفظ من طبيعة لغة العرب وسياق الآية.

(٤/١)

و لست في كل ما أكتب متأثرا بأي نزعة معينة ، أو مذهب محدد ، أو إرث اعتقادي سابق لاتجاه
قديم ، وإنما رائدي هو الحق الذي يهدي إليه القرآن الكريم ، على وفق طبيعة اللغة العربية ،
والمصطلحات الشرعية ، مع توضيح آراء العلماء والمفسرين ، بأمانة ودقة وبعد عن التعصب.
ولكن ينبغي البعد عن استخدام آيات القرآن لتأييد بعض الآراء المذهبية أو اتجاهات الفرق الإسلامية ،
أو التعسف في التأويل لتأييد نظرية علمية قديمة أو حديثة ، لأن القرآن الكريم أرفع بيانا ، وأرقى
مستوى ، وأعلى شأنا من تلك الآراء والمذاهب والفرق ، وليس هو كتاب علوم أو معارف كونه كالفلك
وعلم الفضاء والطب والرياضيات ونحوها ، وإن وجدت فيه بعض الإشارات إلى نظرية ما ، وإنما هو
كتاب هداية إلهية ، وتشريع ديني ، ونور يهدي لعقيدة الحق ، وأصلح مناهج الحياة ، وأصول الأخلاق
والقيم الإنسانية العليا ، كما قال الله تعالى : قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ
رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [المائدة
١٥ - ١٦].

ج ١ ، ص : ٩

و ينحصر منهجي أو خطة بحثي فيما يأتي :

١ - قسمة الآيات القرآنية إلى وحدات موضوعية بعناوين موضحة.

٢ - بيان ما اشتملت عليه كل سورة إجمالا.

٣ - توضيح اللغويات.

٤- إيراد أسباب نزول الآيات في أصح ما ورد فيها ، ونبد الضعيف منها ، وتسليط الأضواء على قصص الأنبياء وأحداث الإسلام الكبرى كمعركة بدر وأحد من أوثق كتب السيرة.

٥- التفسير والبيان.

٦- الأحكام المستنبطة من الآيات.

٧- البلاغة وإعراب كثير من الآيات ، ليكون ذلك عوناً على توضيح المعاني لمن شاء ، وبعداً عن المصطلحات التي تعوق فهم التفسير لمن لا يريد العناية بها.

(٥/١)

وسأحرص بقدر الإمكان على التفسير الموضوعي : وهو إيراد تفسير مختلف الآيات القرآنية الواردة في موضوع واحد كالجهاد والحدود والإرث وأحكام الزواج والزنا والخمر ، وسأبين عند أول مناسبة كل ما يتعلق بالقصة القرآنية مثل قصص الأنبياء من آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام وغيرهم ، وقصة فرعون مع موسى عليه السلام ، وقصة القرآن بين الكتب السماوية. ثم أحيل إلى موطن البحث الشامل عند تكرار القصة بأسلوب وهدف آخر. غير أنني لن أذكر رواية ماثورة في توضيح القصة إلا بما يتفق مع أحكام الدين ، ويتقبلها العلم ، ويرتضيها العقل ، وأيدت الآيات بالأحاديث الصحيحة المخرجة إلا ما ندر.

ج ١ ، ص : ١٠

و يلاحظ أن أغلب الأحاديث المروية في فضائل سور القرآن موضوعة مكذوبة ، وضعها الزنادقة أو أصحاب الأهواء والمطامع ، أو السؤال الواقفون في الأسواق والمساجد ، أو واضعو الحديث حسبة كما زعموا « ١ » .

وفي تقديري أن هذه الخطة تحقق بمشيئة الله نفعاً كبيراً ، وسيكون هذا التأليف سهل الفهم ، سريع المآخذ ، محل الثقة والاطمئنان ، يرجع إليه كل باحث ومطلع ، في وقت كثر فيه القول والدعوة إلى الإسلام في المساجد وغيرها ، ولكن مع مجافاة الصواب ، أو الخلط ، أو مجانبة الدقة العلمية ، سواء في التفسير أو الحديث أو الإفتاء وبيان الأحكام الشرعية ، وعندها يظل الكتاب هو المرجع الأمين وموضع الثقة للعالم والمتعلم ، منعا من إضلال الناس والإفتاء بغير علم ، وحينئذ يتحقق بحق غرض النبي صلى الله عليه وسلم من تبليغ القرآن في

قوله : « بلغوا عني ولو آية » « ٢ »

، لأن القرآن هو المعجزة الباقية من بين سائر المعجزات.

ولعلي أكون بهذه الخطة في بيان المراد من آي كتاب الله مفردات وتراكيب ، قد حققت غايتي من

ربط المسلم بقرآنه ، وقمت بالتبليغ الواجب على كلّ مسلم بالرغم من وجود موسوعات أو تفاسير قديمة اعتمدت عليها ، وقد تميزت إما بالتركيز على العقائد والتبوات والأخلاق والمواعظ وتوضيح آيات الله في الكون ، كالزّازي في التفسير الكبير ، وأبي حيان الأندلسي في البحر المحيط ، والألوسي في روح المعاني ، والكشاف للزمخشري.

وإما بتوضيح القصص القرآني وأخبار التاريخ ، كتفسير الخازن والبغوي ، وإما ببيان الأحكام الفقهية بالمعنى الضيق للمسائل والفروع والقضايا كالقرطبي وابن كثير والجصاص وابن العربي ، وإما بالاهتمام باللغويات كالزمخشري

(١) تفسير القرطبي : ٧٨ / ١ وما بعدها.

(٢) أخرجه أحمد والبخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٦/١)

ج ١ ، ص : ١١

و أبي حيان ، وإما بالقراءات كالتنسيقي وأبي حيان وابن الأنباري ، وابن الجزري في كتابه (النشر في القراءات العشر) ، وإما بالعلوم والنظريات العلمية الكونية مثل طنطاوي جوهري في كتابه (الجواهر في تفسير القرآن الكريم).

والله أسأل أن ينفعنا بما علّمنا ، ويعلمنا ما ينفعنا ، ويزيدنا علما ، كما أسأله أن يعمّ التّفع كلّ مسلم ومسلمة بهذا الكتاب ، وأن يلهمنا جميعا الرّشاد والسّداد ، وأن يوفّقنا للعمل بكتاب الله في كلّ مناحي الحياة ، دستوراً وعقيدة ومنهجاً وسلوكاً ، وأن يهدينا إلى سواء الصراط ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور.

وليكن رائدنا جميعاً

ما أخرجه البخاري ومسلم عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم : « خيركم من تعلّم القرآن وعلمه » « ١ » .

الدكتور وهبة بن مصطفى الزحيلي

(١) لم أجراً على هذا التفسير إلا بعد أن كتبت كتابين شاملين في موضوعيهما أو موسوعتين :

الأول : (أصول الفقه الإسلامي) في مجلدين ، والثاني : (الفقه الإسلامي وأدلته) في مختلف

المذاهب - ثمانية مجلدات ، وأمضيت في التدريس الجامعي ما يزيد عن ثلاثين عاماً ، وعملت في

الحديث النبوي تحقيقاً وتخريجاً وبياناً بالاشتراك لكتاب (تحفة الفقهاء) للسمرقندي ، و(المصطفى من أحاديث المصطفى) زهاء (١٤٠٠ حديث). بالإضافة لمؤلفات وبحوث موسوعية تربو عن الثلاثين.

(٧/١)

ج ١ ، ص : ١٣

بعض المعارف الضرورية المتعلقة بالقرآن

أولاً - تعريف القرآن وكيفية نزوله وطريقة جمعه :

القرآن المجيد الذي اقتضت حكمة الله ألا يبقى في الوجود أثر ثابت للوحي الإلهي سواه ، بعد أن اندثرت أو زالت أو اختلطت الكتب السماوية السابقة بغيرها من العلوم التي وضعها البشر : هو منار الهداية ، ودستور التشريع ، ومصدر الأنظمة الربانية للحياة ، وطريق معرفة الحلال والحرام ، وبينوع الحكمة والحق والعدل ، ومعين الآداب والأخلاق التي لا بدّ منها لتصحيح مسيرة الناس ، وتقويم السلوك الإنساني ، قال الله تعالى : مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ [الأنعام ٦ / ٣٨] ، وقال عز وجلّ أَيْضاً : وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [النحل ١٦ / ٨٩]. وقد عرفه علماء أصول الفقه ، لا بسبب الجهل به أو عدم معرفة الناس به ، وإنما لضبط ما يتعبد به وما تجوز الصلاة به ، وما لا تجوز ، ولتبيان أحكام الشرع الإلهي من حلال وحرام ، وما يصلح حجة في استنباط الأحكام ، وما يكفر جاحده وما لا يكفر ، فقالوا عنه :

القرآن :

هو كلام الله المعجز « ١ » ، المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، باللفظ العربي ، المكتوب في المصاحف ، المتعبد بتلاوته « ٢ » ، المنقول بالتواتر « ٣ » ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس.

(١) أي الذي عجزت الإنس والجن عن الإتيان بمثل أقصر سورة من سوره.

(٢) أي أنه لا تصح الصلاة إلا بتلاوة شيء منه ، كما أن مجرد تلاوته عبادة يثاب عليها المسلم.

(٣) التواتر : هو ما ينقله جمع عظيم عن جمع غفير يؤمن في العادة تواطؤهم على الكذب.

(٨/١)

ج ١ ، ص : ١٤

وبناء عليه : لا تسمى ترجمة القرآن قرآنا ، وإنما هي تفسير ، كما لا تسمى القراءة الشاذة (و هي التي لم تنقل بالتواتر وإنما بالآحاد) قرآنا ، مثل قراءة ابن مسعود في فيئة الإيلاء « ١ » : « فإن فاءوا- فيهن- فإن الله غفور رحيم » [البقرة ٢ / ٢٢٦] وقراءته أيضا في نفقة الولد : « و على الوارث- ذي الرحم المحرم- مثل ذلك » [البقرة ٢ / ٢٣٣] ، وقراءته في كفارة يمين المعسر : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام- متتابعات- » [المائدة ٥ / ٨٩].

أسماء القرآن :

للقرآن أسماء : هي القرآن ، والكتاب ، والمصحف ، والنور ، والفرقان « ٢ » .

وسمّي قرآنا ، لأنه التنزيل المتلو المقروء ، وقال أبو عبيدة : سمّي القرآن ، لأنه يجمع السّور ، فيضمها . قال تعالى : إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [القيامة ٧٥ / ١٧] أي جمعه وقراءته ، ومن المعلوم أن القرآن نزل تدريجيا شيئا بعد شيء ، فلما جمع بعضه إلى بعض سمّي قرآنا .

وسمّي كتابا من الكتب أي الجمع ، لأنه يجمع أنواعا من القصص والآيات والأحكام والأخبار على نحو مخصوص .

وسمّي مصحفا من أحصف أي جمع فيه الصحف ، والمصحف جمع الصحيفة :

وهي قطعة من جلد أو ورق يكتب فيه . وروي أن أبا بكر الصديق استشار الناس بعد جمع القرآن في اسمه ، فسمّاه مصحفا .

و سمّي نورا ، لأنه يكشف الحقائق ، ويبين الغوامض من حلال وحرام

-
- (١) الإيلاء : الحلف على ترك وطء (جماع) المرأة . وفاء الرجل إلى امرأته : عاد إلى الاستمتاع بها بعد يمينه بالامتناع عن ذلك .
- (٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامة النظام- نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري بهامش تفسير الطبري : ١ / ٢٥ ، تفسير الرازي : ٢ / ١٤ .

(٩/١)

ج ١ ، ص : ١٥

وغيبات لا يستطيع العقل إدراكها ، ببيان قاطع وبرهان ساطع ، قال الله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا [النساء ٤ / ١٧٤] .

وسمّي فرقانا لأنه فرق بين الحقّ والباطل ، والإيمان والكفر ، والخير والشر ، قال الله تعالى : تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ، لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا [الفرقان ٢٥ / ١] .
كيفية نزول القرآن :

لم ينزل القرآن جملة واحدة ، كما نزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى عليهما السلام ، لثقل كاهل المكلفين بأحكامه ، وإنما نزل على قلب النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بالوحي بواسطة جبريل عليه السلام ، منجّما أي مفرقا على وفق مقتضيات الظروف والحوادث والأحوال ، أو جوابا للوقائع والمناسبات أو الأسئلة والاستفسارات .

فمن الأول : قوله تعالى : وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمَنَ [البقرة ٢ / ٢٢١] ، نزلت في شأن مرثد الغنوي الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، ليحمل منها المستضعفين المسلمين ، فأرادت امرأة مشركة اسمها (عناق) وكانت ذات مال وجمال ، أن تتزوجه ، فقبل بشرط موافقة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما سأله نزلت الآية ، ونزل معها آية وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا [البقرة ٢ / ٢٢١] .

(١٠/١)

ومن الثاني : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى [البقرة ٢ / ٢٢٠] ، وَوَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ [البقرة ٢ / ٢٢٢] ، وَوَسْأَلُونَكَ فِي النِّسَاءِ [النساء ٤ / ١٢٧] ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ [الأنفال ٨ / ١] .
وقد بدأ نزوله في رمضان في ليلة القدر ، قال الله تعالى : شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ، هُدًى لِلنَّاسِ ، وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ
ج ١ ، ص : ١٦

[البقرة ٢ / ١٨٥] ، وقال سبحانه : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ ، إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ [الدخان ٤٤ / ٣] ، وقال تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ...
[القدر ٩٨ / ١] . واستمر نزول القرآن في مدى ثلاث وعشرين سنة إما في مكة وإما في المدينة وإما في الطريق بينهما أو في غيره من الأماكن .
وكان نزوله إما سورة كاملة كالفاتحة والمدثر والأنعام ، أو عشر آيات مثل قصة الإفك في سورة النور ، وأول سورة المؤمنين ، أو خمس آيات ، وهو كثير ، أو بعض آية ، مثل : غَيْرِ أُولِي الضَّرَرِ [النساء ٤ / ٩٥] بعد قوله تعالى :

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [النساء ٤ / ٩٥] ومثل قوله تعالى : وَإِنْ حِفْظُهُمْ عَلَيْهِمْ فَسَوْفَ يُعْذِرُكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنْ شَاءَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [التوبة ٩ / ٢٨] ، فإنه نزل بعد : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا

الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ، فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا [التوبة ٢٨ / ٩].
وتعددت حكمة إنزال القرآن منجما ، بسبب المنهج الإلهي الذي رسم به طريق الإنزال ، كما قال تعالى : وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ، وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا [الإسراء ١٧ / ١٠٦].

(١١/١)

من هاتيك الحكم : تثبیت قلب النبی صلی الله علیه وسلم وتقوية فؤاده ليحفظه وبيعه ، لأنه كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب ، قال الله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا [الفرقان ٢٥ / ٣٢].

ومنها : مراعاة مقتضيات التدرج في التشريع ، وتربية الجماعة ، ونقلها على مراحل من حالة إلى حالة أحسن من سابقتها ، وإسبال الرحمة الإلهية على العباد ، فإنهم كانوا في الجاهلية في إباحية مطلقة ، فلو نزل عليهم القرآن دفعة واحدة ، لعسر عليهم التكليف ، فنفروا من التطبيق للأوامر والنواهي.

ج ١ ، ص : ١٧

أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : « إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ، ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا » « ١ » .
ومنها : ربط نشاط الجماعة بالوحي الإلهي : إذ إن اتصال الوحي بالنبي صلی الله علیه وسلم يساعده على الصبر والمصابرة ، وتحمل المشاق والمصاعب وأنواع الأذى التي كابدها من المشركين ، كما أنه وسيلة لتقوية العقيدة في نفوس الذين أسلموا ، فإذا نزل الوحي علاجا لمشكلة ، تأكد صدق النبي صلی الله علیه وسلم في دعوته ، وإذا أحجم النبي عن جواب مسألة ، ثم جاءه الوحي ، أيقن المؤمنون بصدق الإيمان واطمأنوا إلى سلامة العقيدة ، وأمان الدرب الذي سلكوه ، وزادت ثقتهم بالغايات والوعود المنتظرة التي وعدهم الله بها : إما بالنصر على الأعداء أو المشركين في الدنيا ، وإما بالفوز بالجنة والرضا الإلهي ، وتعذيب الكفار في نار جهنم.
المكي والمدني من القرآن :

(١٢/١)

كان للوحي القرآني صبغتان أو لونان جعلت منه نوعين هما : المكي والمدني ، وانقسمت بالتالي سور القرآن إلى مكية ومدنية.

أما المكي : فهو ما نزل في مدى ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة- هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة- سواء نزل في مكة أو في الطائف أو في أي مكان

(١) هذا وقد ذكر الزمخشري في الكشاف : ١ / ١٨٥ وما بعدها أسباب تفصيل القرآن وتقطيعه سورا ، منها أن تنوع البيان للجنس الواحد أحسن وأجمل وأفخم من أن يكون بيانا واحدا . ومنها إثارة النشاط والحث على الدرس والتحصيل من القرآن خلافا لو استمر الكتاب جملة واحدة ، ومنها اعتزاز الحافظ بطائفة مستقلة من القرآن بعد حفظها ، ومنها أن التفصيل بمشاهد عديدة سبب لدعم المعاني ، وتأكد المراد واجتذاب الأنظار .

ج ١ ، ص : ١٨

آخر ، مثل سورة (ق) و(هود) و(يوسف) . وأما المدني : فهو ما نزل في مدى عشر سنوات بعد الهجرة ، سواء نزل في المدينة أو في الأسفار والمعارك الحربية أو في مكة عام الفتح ، مثل سورة (البقرة) و(آل عمران) .

ويغلب على التشريع المكي إصلاح العقيدة والأخلاق ، والتنديد بالشرك والوثنية ، وإقرار عقيدة التوحيد ، وتصفية آثار الجهل من قتل وزنا ووأد بنات ، والتأدب بآداب الإسلام وأخلاقه ، مثل العدل ، والوفاء بالعهد ، والإحسان ، والتعاون على البر والتقوى ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان ، وفعل الخيرات وترك المنكرات ، وإعمال العقل والفكر ، ونقض أوهام التقليد الأعمى ، وتحرير الإنسان ، والاعتبار بقصص الأنبياء مع أقوامهم . وقد اقتضى ذلك جعل الآيات المكية قصيرة تزخر بالرهبة والزجر والوعيد ، وتبعث على الخشية ، وتشعر بمعنى الجلال .

(١٣/١)

و أما التشريع المدني فيغلب عليه تقرير الأنظمة والأحكام المفصلة للعبادات ، والمعاملات المدنية والعقوبات ، ومتطلبات الحياة الجديدة في إقامة صرح المجتمع الإسلامي في المدينة ، وتنظيم شؤون السياسة والحكم ، وترسيخ قاعدتي الشورى والعدل في إصدار الأحكام ، وتنظيم العلاقات بين المسلمين وغيرهم في داخل المدينة وخارجها ، وقت السلم والحرب ، بتشريع الجهاد لوجود مسوغاته من إيذاء وعدوان وتشريد وطرود وتهجير ، ثم وضع أنظمة المعاهدات لإقرار الأمن وتوطيد دعائم السلم ، وقد اقتضى ذلك كون الآيات المدنية طويلة هادئة ، ذات أبعاد وغايات دائمة غير وقتية ، تستدعيها عوامل الاستقرار والاطمئنان وبناء الدولة على أمتن الأسس وأقوى الدعائم .

فائدة العلم بأسباب النزول :

إن معرفة أسباب نزول الآيات بحسب الوقائع والمناسبات لها فوائد كثيرة وأهمية بالغة في تفسير القرآن وفهمه على الوجه الصحيح ، لأن أسباب النزول

ج ١ ، ص : ١٩

قرائن معبرة توضح غاية الحكم ، وتبين سبب التشريع ، وتعرف أسرار ومرامي ، وتساعد على فهم القرآن فهما دقيقا شاملا ، حتى وإن كانت العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب. ونرى في عالمنا القانوني اليوم ما يسمى بالمدكرات التوضيحية للقوانين والأنظمة والأحكام ، يبين فيها أسباب إصدارها ، وأهدافها. ويؤكد ذلك أن كل نظام يظل في مستوى الأمور النظرية غير المقنعة كثيرا للناس ، ما لم يقترب بالمتطلبات الواقعية ، أو يرتبط بالحياة العملية.

وكل ما سبق يشير إلى أن شريعة القرآن ليست فوق مستوى الأحداث ، أو أنها سامية مثالية لا تقبل التطبيق ، وإنما هي متعاصرة مع كل زمن ، متفاعلة مع الواقع ، تصف العلاج الحاسم لكل داء عضال من أمراض المجتمع ، وشذوذات الأفراد وانحرافاتهم.

أول القرآن وآخره نزولا :

(١٤/١)

كان أول ما نزل من القرآن الكريم قول الله تعالى من سورة العلق : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [العلق ٩٧ / ١ - ٥] ، وذلك يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان ، سنة إحدى وأربعين من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، في غار حراء ، حين بدأ الوحي ، بواسطة جبريل الأمين عليه السلام.

وكان آخر ما نزل من القرآن في أرجح الأقوال ، قوله تعالى : وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [البقرة ٢ / ٢٨١] ، وذلك قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بتسع ليال بعد ما فرغ من حجة الوداع ، أخرجه كثيرون عن ابن عباس رضي الله عنهما.

أما ما قيل وروي عن السدي : إن آخر ما نزل قوله تعالى : الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ... [المائدة ٥ / ٣] ،

ج ١ ، ص : ٢٠

فغير مسلم به ، لأن هذه الآية نزلت باتفاق العلماء يوم عرفة من حجة الوداع قبل نزول سورة النصر ، وآية البقرة السابقة.

جمع القرآن :

لم يكن ترتيب القرآن الكريم في آياته وسوره بالنحو التوقيفي في واقعه الموجود في المصاحف الحالية

والغابرة متفقا مع أحوال نزول الوحي به ، فقد نزل بحسب الوقائع والمناسبات ، إما سورة كاملة أو بعض آيات ، أو بعض آية ، كما عرفنا ، ثم جمع ثلاث مرات .
الجمع الأول في عهد النبوة :

(١٥/١)

حدث الجمع الأول في عهد النبي صلى الله عليه وسلم بحفظه الثابت الراسخ كالنقش في الحجر في صدره عليه الصلاة والسلام ، تحقيقا لوعده الله تعالى : لا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ

[القيامة ٧٥ / ١٦ - ١٩] ، وقد عرضه النبي صلى الله عليه وسلم مرات على جبريل عليه السلام ، مرة في كل رمضان ، وعرضه عليه مرتين في آخر رمضان قبل الوفاة ، ثم قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس على نحو هذه العروض ، ثم كتبه الصحابة عنه ، وكان كتاب الوحي خمسا وعشرين كتابا ، والتحقيق أنهم كانوا زهاء ستين ، وأشهرهم الخلفاء الأربعة ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وأخوه يزيد ، والمغيرة بن شعبة ، والزبير بن العوام ، وخالد بن الوليد ، وحفظه أيضا عدد من الصحابة في صدورهم حبًا به ، واعتمادا على قوة حافظتهم وذاكرتهم التي اشتهروا بها ، حتى إن حروب المرتدين قتل فيها سبعون من القراء ، وقد عدّ أبو عبيد في كتاب (القراءات) بعض الحفاظ ، فذكر من المهاجرين : الخلفاء الراشدين الأربعة ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن ج ١ ، ص : ٢١

أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة ، وأبا هريرة ، وعبد الله بن السائب ، والعبادلة الأربعة (ابن عمر ، وابن عباس ، وابن عمرو ، وابن الزبير) ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة.

وذكر من الأنصار : عبادة بن الصامت ، ومعاذ أبا حليمة ، ومجمّع بن جارية ، وفضالة بن عبيد ، ومسلمة بن مخلّد.

وكان من أشهر الحفاظ : عثمان ، وعلي ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبو موسى الأشعري.

الجمع الثاني في عهد أبي بكر :

(١٦/١)

لم يجمع القرآن في مصحف واحد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاحتمال نزول وحي جديد ما دام النبي صلى الله عليه وسلم حيًا ، ولكن كانت كل آيات القرآن مكتوبة في الرقاع والعظام والحجارة وجريد النخل. ثم استخّر القتل في القراء في وقعة اليمامة في عهد أبي بكر ، كما روى البخاري في فضائل القرآن في الجزء السادس ، فارتأى عمر بن الخطاب جمع القرآن ، ووافقه أبو بكر ، وكلّف زيد بن ثابت بهذه المهمة ، وقال أبو بكر لزيد : « إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتتبع القرآن فاجمعه » ، ففعل زيد ما أمر به وقال : « فتتبع القرآن أجمعه من العسب واللّخاف » ١ ، وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة- أي مكتوبة- مع خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع غيره : لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ [التوبة ٩ / ١٢٨] ، حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله تعالى ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر « ٢ » .

(١) العسب : جمع عسيب : وهو جريدة من النخل كشط خوصها. واللّخاف : حجارة بيض رقاق ، واحدها لخفة.

(٢) صحيح البخاري : ٦ / ٣١٤ - ٣١٥ .

ج ١ ، ص : ٢٢

يتبين من هذا أن طريقة الجمع اعتمدت على أمرين معا : هما المكتوب في الرقاع والعظام ونحوها ، وحفظ الصحابة للقرآن في صدورهم. واقتصر الجمع في عهد أبي بكر على أنه جمع القرآن في صحف خاصة ، بعد أن كان متفرقا في صحف عديدة ، ولم يكتف زيد بحفظه القرآن ، وإنما اعتمد أيضا على حفظ غيره من الصحابة وهم العدد الكثير الذي يحصل به التواتر ، أي اليقين المستفاد من نقل الجمع الكثير الذي يؤمن في العادة تواطؤهم على الكذب.

الجمع الثالث- في عهد عثمان بنسخ المصاحف على خط واحد :

(١٧/١)

اقتصر دور عثمان بن عفان رضي الله عنه على كتابة ست نسخ من المصاحف على حرف واحد وطريقة واحدة ، ووزعها في الأمصار الإسلامية ، فأرسل ثلاثة منها إلى الكوفة ودمشق والبصرة ، وأرسل اثنين إلى مكة والبحرين ، أو إلى مصر والجزيرة ، وأبقى لديه مصحفا بالمدينة. وأمر بإحراق المصاحف الأخرى المخالفة في العراق والشام فقط. وظل المصحف الشامي محفوظا بجامع دمشق (الجامع الأموي) عند الركن ، شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله ، وقد رآه ابن كثير كما ذكر في كتابه (فضائل

القرآن) في آخر تفسيره ، إلى أن أصابه الحريق الكبير الذي أصاب المسجد الأموي سنة ١٣١٠ هـ ،
ورآه قبل الحريق كبار علماء دمشق المعاصرين.

وسبب هذا الجمع يظهر فيما رواه لنا البخاري في فضائل القرآن في الجزء السادس عن أنس بن مالك
رضي الله عنه : « أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية
وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان :
يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة ، قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

ج ١ ، ص : ٢٣

فأرسل عثمان إلى حفصة : أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى
عثمان ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن
هشام ، فنسخوها في المصاحف ، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة :
إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم.
ففعّلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ، ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق
بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق » ١ .

(١٨/١)

و أصبح المصحف العثماني أساسا في نشر وطبع المصاحف المتداولة الآن في العالم ، فبعد أن كان
الناس يقرءون بقراءات مختلفة ، إلى وقت عثمان ، جمع عثمان الناس على مصحف واحد ، وحرف
واحد ، وجعله إماما ، ولهذا نسب إليه ، ولقّب بأنه جامع القرآن.
والخلاصة : إن جمع القرآن في عهد أبي بكر كان جمعا له في نسخة واحدة موثوقة ، وجمع القرآن في
عهد عثمان كان نسخا من صحف حفصة ، لمصاحف ستة بحرف واحد. وكان هذا الحرف ملائما
للأحرف السبعة التي نزل بها القرآن.
وأصبح لقراءة رسم المصحف طريقتان : موافقة للرسم المكتوب حقيقة ، وموافقة للرسم احتمالا أو
تقديرا.

ولا خلاف بين العلماء في أن ترتيب آيات السور توقيفي منقول ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ،
كما أن ترتيب السور أيضا توقيفي على الراجح. أما دليل ترتيب

(١) صحيح البخاري : ٦ / ٣١٥ - ٣١٦.

الآيات

فقول عثمان بن العاص رضي الله عنه : « كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ شخص ببصره ثم صوّبه ، ثم قال : « أتاني جبريل ، فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى [النحل ١٦ / ٩٠] » .

وأما دليل ترتيب السور فهو حضور بعض الصحابة كابن مسعود ممن حفظوا القرآن عن ظهر قلب ، ومدارسة القرآن بين جبريل عليه السلام والنبي صلى الله عليه وسلم ، وشهدوا بأنها كانت على وفق هذا الترتيب المعهود في السور وفي الآيات.

وأركان قرآنية الآية أو الكلمة أو القراءة المقبولة ثلاثة : الموافقة للرسم العثماني ولو احتمالا ، التوافق مع قواعد النحو العربي ولو بوجه ، النقل المتواتر بواسطة جمع عن جمع عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما يعرف بصحة السند.

ثانيا- طريقة كتابة القرآن والرسم العثماني :

(١٩/١)

الرسم : طريقة كتابة الكلمة بحروف هجائها بتقدير الابتداء بها ، والوقوف عليها.

والمصحف : هو المصحف العثماني الإمام الذي أمر بكتابه سيدنا عثمان رضي الله عنه ، والذي أجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم « ١ » .

والرسم العثماني : هو الطريقة التي كتبت بها المصاحف الستة في عهد عثمان رضي الله عنه. وهو الرسم المتداول المعمول به بعد البدء بطباعة القرآن في البندقية سنة ١٥٣٠ م ، وما تلاها من طبعة إسلامية خالصة للقرآن في سانت بترسوغ ، في روسيا ، سنة ١٧٨٧ م ، ثم في الآستانة سنة ١٨٧٧ م.

(١) المصاحف للسجستاني : ص ٥٠

ج ١ ، ص : ٢٥

و للعلماء رأيان في طريقة كتابة القرآن أو الإملاء « ١ » :

- ١- رأي جمهور العلماء ومنهم الإمامان مالك وأحمد : أنه يجب كتابة القرآن كما وردت برسمها العثماني في المصحف الإمام ، ويحرم مخالفة خط عثمان في جميع أشكاله في كتابة المصاحف ، لأن هذا الرسم يدلّ على القراءات المتنوعة في الكلمة الواحدة.
- ٢- رأي بعض العلماء (و هم أبو بكر الباقلاني وعز الدين بن عبد السلام وابن خلدون) : أنه تجوز

كتابة المصحف بالطرق أو الرسوم الإملائية المعروفة للناس ، لأنه لم يرد نص في الرسم ، وإن ما في الرسم من زيادات أو حذف لم يكن توقيفا أوحى الله به على رسوله ، ولو كان كذلك لآمنا به وحرصنا عليه ، وإذا كتب المصحف بالإملاء الحديث أمكن قراءته صحيحا وحفظه صحيحا.

(٢٠/١)

و قد رأت لجنة الفتوى بالأزهر وغيرها من علماء العصر « ٢ » الوقوف عند المأثور من كتابة المصحف ، احتياطا لبقاء القرآن على أصله لفظا وكتابة ، وحفاظا على طريقة كتابته في العصور الإسلامية السابقة ، دون أن ينقل عن أحد من أئمة الاجتهاد تغيير هجاء المصحف عما رسم به أولا ، ولمعرفة القراءة المقبولة والمردودة ، فلا يفتح فيه باب الاستحسان الذي يعرض القرآن للتغيير والتحريف ، أو للتلاعب به ، أو البعث بآياته من ناحية الكتابة. لكن لا مانع في رأي جماهير العلماء من كتابة القرآن بطرق الإملاء الحديثة في مجال الدرس والتعليم ، أو عند الاستشهاد بآية أو أكثر في بعض المؤلفات الحديثة ، أو في كتب وزارة التربية والتعليم ، أو أثناء عرضه على شاشة التلفاز.

(١) تلخيص الفوائد لابن القاصّ : ص ٥٦ وما بعدها ، الإتقان للسيوطي : ٢ / ١٦٦ ، البرهان في

علوم القرآن للزركشي : ١ / ٣٧٩ ، ٣٨٧ ، مقدمة ابن خلدون : ص ٤١٩ . [.....]

(٢) مجلة الرسالة : العدد ٢١٦ ، سنة ١٩٣٧ ، ومجلة المقتطف تموز سنة ١٩٣٣

ج ١ ، ص : ٢٦

ثالثا- الأحرف السبعة والقراءات السبع :

روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن هذا القرآن

أنزل على سبعة أحرف ، فاقروا ما تيسر منه » « ١ »

أي سبعة أوجه ، وهو سبع لغات ولهجات من لغات العرب ولهجاتهم ، يجوز أن يقرأ بكل لغة منها ،

وليس المراد : أن كل كلمة منه تقرأ على سبعة أوجه وإنما لا يخرج عنها ، فإما أن تكون بلغة قريش ،

وهو الغالب ، وإما أن تكون بلغة قبيلة أخرى ، لأنها أفصح ، وتلك اللغات التي كانت مشهورة شائعة

عذبة اللفظ هي : لغة قريش ، وهذيل ، وتميم ، والأزد ، وربيعة ، وهوازن ، وسعد بن بكر. وهذا هو

الأشهر والراجح.

(٢١/١)

و في رأي آخر : المراد بالسبعة : أوجه القراءات القرآنية ، فاللفظ القرآني الواحد مهما يتعدد أداؤه وتنوع قراءته لا يخرج التغير فيه عن الوجوه السبعة الآتية وهي « ٢ » :

- ١- الاختلاف في إعراب الكلمة أو في حركة بنائها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغير معناها ، أو يغير معناها ، مثل (فتلقى آدم) قرئ (آدم).
- ٢- الاختلاف في الحروف ، إما بتغير المعنى مثل (يعلمون وتعلمون) ، وإما بتغير الصورة دون المعنى مثل (الصراط) و(السرط).
- ٣- اختلاف أوزان الأسماء في أفرادها وتثنيها وجمعها وتذكيرها وتأنيثها ، مثل (أماناتهم) و(أمانتهم).

(١) أخرجه الجماعة : البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي وأبو داود والنسائي (جامع الأصول : ٣ / ٣١).

(٢) تفسير القرطبي : ١ / ٤٢ - ٤٧ ، تفسير الطبري : ١ / ٢٣ وما بعدها ، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ص ٢٨ وما بعدها ، تاريخ الفقه الإسلامي للسايس : ص ٢٠ وما بعدها ، مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي صالح : ص ١٠١ - ١١٦

ج ١ ، ص : ٢٧

- ٤- الاختلاف بإبدال كلمة بكلمة يغلب أن تكون إحداها مرادفة للآخرى مثل (كالهين المنفوش) أو (كالصوف المنفوش) وقد يكون بإبدال حرف بآخر مثل (ننشزها) و(ننشرها).
- ٥- الاختلاف بالتقديم والتأخير ، مثل (فيقتلون ويقتلون) قرئ (فيقتلون ويقتلون).
- ٦- الاختلاف بالزيادة والنقص ، مثل (و ما خلق الذكر والأنثى) قرئ (و الذكر والأنثى).

(٢٢/١)

٧- اختلاف اللهجات في الفتح والإمالة ، والترقيق والتفخيم ، والهمز والتسهيل ، وكسر حروف المضارعة ، وقلب بعض الحروف ، وإشباع ميم الذكور ، وإشمام بعض الحركات ، مثل (و هل أتاك حديث موسى) و(بلى قادرين على أن نسوي بنانه) قرئ بإمالة : (أتى) ، (و موسى) ، (و بلى) وقوله تعالى : (خبيرا بصيرا) بترقيق الرءلين ، و(الصلاة) و(الطلاق) بتفخيم اللامين. وقوله تعالى : (قد أفلح) بترك الهمزة ونقل حركتها من أول الكلمة الثانية إلى آخر الكلمة الأولى ، وهو ما يسمى (تسهيل الهمزة). وقوله تعالى : (لقوم يعلمون ، نحن نعلم ، وتسود وجوه ، ألم أعهد) بكسر حروف المضارعة في جميع هذه الأفعال. وقوله تعالى : (حتى حين) قرأه الهذليون (حتى عين) بقلب الحاء عينا. وقوله تعالى : (عليهم دائرة السوء) بإشباع ميم جمع الذكور. وقوله تعالى : (و غيض الماء) بإشباع ضمة الغين

مع الكسر.

والخلاصة : إن الأحرف السبعة : هي اللغات السبع التي اشتملت عليها لغة مضر في القبائل العربية ، وليست هي القراءات السبع أو العشر المتواترة المشهورة ، فهذه القراءات التي انتشرت كثيرا في عصر التابعين ثم اشتهرت في القرن الرابع بعد ظهور كتاب في القراءات للإمام المقرئ ابن مجاهد ، تعتمد على غير

ج ١ ، ص : ٢٨

الأصل الذي يتعلق بالأحرف السبعة ، وتتفرع من حرف واحد من الأحرف السبعة ، كما أبان القرطبي.

(٢٣/١)

ثم إن الكلام على الأحرف السبعة أصبح تاريخيا ، فقد كانت تلك الأحرف السبعة توسعة في النطق بها على الناس في وقت خاص للضرورة ، لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم ، لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم ، ثم زال حكم تلك الضرورة ، وارتفع حكم تلك الأحرف السبعة ، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد ، ولم يكتب القرآن إلا بحرف واحد منذ عهد عثمان ، مما قد تختلف فيه كتابة الحروف ، وهو حرف قريش الذي نزل به القرآن ، كما أوضح الطحاوي وابن عبد البر وابن حجر وغيرهم « ١ » .

رابعا- القرآن كلام الله وأدلة الإثبات بوجوه الإعجاز :

إن القرآن العظيم المسموع والمكتوب : هو كلام الله القديم العزيز العليم ، ليس شيء منه كلاما لغيره من المخلوقين ، لا جبريل ، ولا محمد ولا غيرهما ، والناس يقرءونه بأصواتهم « ٢ » . قال الله تعالى : **وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [الشعراء ٢٦ / ١٩٢ - ١٩٥] وقال عز وجل : قُلْ : نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَهُدًى ، وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [النحل ١٦ / ١٠٢]**.

والدليل على أن القرآن كلام الله : هو عجز الإنس والجن عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه ، وهذا هو المراد بإعجاز القرآن : أي عجز البشر عن الإتيان بمثله ، في بلاغته ، أو تشريعه أو مغيباته. قال الله تعالى مستثيرا العرب المعروفين بأنهم أساطين البيان وفرسان الفصاحة والبلاغة ، ومتحديا لهم بأن يأتوا

(١) تفسير القرطبي : ١ / ٤٢ - ٤٣ ، فتح الباري : ٩ / ٢٤ - ٢٥ ، شرح مسلم للنووي : ٦ / ١٠٠

(٢) فتاوى ابن تيمية : ١٢ / ١١٧ - ١٦١ ، ١٧٢

بمثل القرآن في نظمه ومعانيه وبيانه المشرق البديع الفريد ولو بمثل سورة منه :
وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ، فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ، وَلَنْ تَفْعَلُوا ، فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [البقرة ٢٣ - ٢٤].

وتكرر آي القرآن في مناسبات مختلفة مطابقة بمجاعة القرآن وتحدي العرب الذين عارضوا الدعوة الإسلامية ، ولم يؤمنوا بالقرآن ، ولم يقرؤوا بنوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى : قُلْ : لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً أي معينا [الإسراء ٨٨ / ١٧]. وإذ عجزوا عن الإتيان بالمثل ، فليأتوا بعشر سور مثله ، فقال سبحانه : أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرَاهُ ، قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ، فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [هود ١١ - ١٤].

ثم أكد الحق سبحانه التحدي أو المعارضة بمثل سورة من القرآن بعد العجز عن المثل الكامل أو عن عشر سور منه ، فقال تعالى : أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرَاهُ قُلْ : فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [يونس ١٠ / ٣٨].

قال الطبري « ١ » : إن الله تعالى ذكره جمع لبنينا محمد صلى الله عليه وسلم ولأمته ، بما أنزل إليه من كتابه معاني لم يجمعهن بكتاب أنزله إلى نبي قبله ، ولا لأمة من الأمم قبلهم ، وذلك أن كل كتاب أنزله جلّ ذكره على نبي من أنبيائه قبله ، فإنما أنزله ببعض المعاني التي يحوي جميعها كتابه الذي أنزله إلى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، كالتوراة

(١) تفسير الطبري : ٦٥ - ٦٦

ج ١ ، ص : ٣٠

التي هي مواعط وتفصيل ، والزبور الذي هو تمجيد وتمجيد ، والإنجيل الذي هو مواعط وتذكير ، لا معجزة في واحد منها تشهد لمن أنزل إليه بالتصديق.
والكتاب الذي أنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يحوي معاني ذلك كله ، ويزيد عليه كثيرا من

المعاني التي سائر الكتب ، غيره منها خال. ومن أشرف تلك المعاني التي فضل بها كتابنا سائر الكتب : نظمه العجيب ، ووصفه الغريب ، وتأليفه البديع الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سورة منه الخطباء ، وكلّت عن وصف شكل بعضه البلغاء ، وتحيرت في تأليفه الشعراء ، وتبلدت قصورا عن أن تأتي بمثله لديه أفهام الفهماء ، فلم يجدوا له إلا التسليم والإقرار بأنه من عند الله الواحد القهار ، مع ما يحوي مع ذلك من المعاني التي هي ترغيب وترهيب ، وأمر وزجر ، وقصص وجدل ومثل ، وما أشبه ذلك من المعاني التي لم تجتمع في كتاب أنزل إلى الأرض من السماء. ومظاهر الإعجاز أو أوجه الإعجاز كثيرة :

(٢٦/١)

منها ما يخص العرب في روعة بيانه وبلاغة أسلوبه وجزالة ألفاظه أو نظمه ، سواء في اختيار الكلمة القرآنية أو الجملة والتركيب ونظم الكلام ، ومنها ما يشمل العرب وغيرهم من عقلاء الناس بالإخبار عن المغيبات في المستقبل ، وعن الماضي البعيد من عهد آدم عليه السلام إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وبالتشريع المحكم الشامل لكل شؤون الحياة العامة والخاصة. وأكتفي هنا بإيجاز مظاهر الإعجاز وهي عشرة كما ذكر القرطبي « ١ » :

أ- النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيره ، لأن نظمه ليس من نظم الشعر في شيء.

(١) تفسير القرطبي : ٧٣ - ٧٥ ، وانظر دلائل الإعجاز في علم المعاني ، للإمام عبد القاهر الجرجاني : ص ٢٩٤ وما بعدها ، إعجاز القرآن للباقلاني : ص ٣٣ - ٤٧ ، إعجاز القرآن للرافعي : ص ٢٣٨ - ٢٩٠ ، تفسير المنار : ١ / ١٩٨ - ٢١٥

ج ١ ، ص : ٣١

٢- الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب.

٣- الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال ، وتأمل ذلك في سورة ق ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ وقوله سبحانه : وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلى آخر سورة الزمر ، وكذلك قوله سبحانه : وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إلى آخر سورة [إبراهيم ١٤ / ٤٢].

٤- التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي ، حتى يقع منهم الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه.

(٢٧/١)

٥- الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله على قلب النبي الأمي صلى الله عليه وسلم ، فأخبر بما كان من قصص الأنبياء مع أممها ، والقرون الخالية في دهرها ، وذكر ما سألته أهل الكتاب عنه ، وتحذوه به من قصة أهل الكهف ، وشأن موسى والخضر عليهما السلام ، وحال ذي القرنين ، فجاءهم النبي صلى الله عليه وسلم - وهو أمي من أمة أمية ، ليس لها بذلك علم ، بما عرفوا من الكتب السالفة ، فتحققوا صدقه.

٦- الوفاء بالوعد ، المدرك بالحس في العيان ، في كل ما وعد الله سبحانه ، وينقسم : إلى أخباره المطلقة ، كوعده بنصر رسوله عليه السلام ، وإخراج الذين أخرجوه من وطنه. وإلى وعد مقيد بشرطه ، كقوله : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ [الطلاق ٦٥ / ٣] وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ [التغابن ٦٤ / ١١] وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا [الطلاق ٦٥ / ٢] وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ [الأنفال ٨ / ٦٥] وشبه ذلك.

٧- الإخبار عن المغيبيات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي ، ولا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه ، من ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام أنه سيظهر دينه على الأديان ، بقوله عز وجل : هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

ج ١ ، ص : ٣٢

بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ [التوبة ٩ / ٣٣] ، ففعل ذلك. ومنه قوله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ ، وَيُنْسَى الْمُهِادُ [آل عمران ٣ / ١٢] . ومنه قوله تعالى :

(٢٨/١)

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ [الفتح ٤٨ / ٢٧] . ومنه قوله تعالى : الم. غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ، سَيَغْلِبُونَ. فِي بَضْعِ سِنِينَ [الروم ٣٠ / ١ - ٣] .

فهذه كلها أخبار عن الغيوب التي لا يقف عليها إلا رب العالمين ، أو من أوقفه عليها رب العالمين ، وقد عجز الزمان عن إبطال شيء منها ، سواء في الخلق والإيجاد أم في بيان أخبار الأمم ، أم في وضع التشريع السوي لكل الأمم ، أم في توضيح كثير من المسائل العلمية والتاريخية ، مثل وأرسلنا الرِّيحَ لَوَاقِحَ [الحجر ١٥ / ٢٢] وآية أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا [الأنبياء ٢١ / ٣٠] ، وآية وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ [الذاريات ٥١ / ٤٩] وآية وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ [الحجر ١٥ / ١٩]

وآية إثبات كروية الأرض : يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ [الزمر ٣٩ / ٥] والتكوير :
اللف على الجسم المستدير . واختلاف مطالع الشمس في آية وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا إلى قوله
وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [يس ٣٦ / ٣٨ - ٤٠] .

٨- ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام ، في الحلال والحرام ، وفي سائر الأحكام ،
فهو يشتمل على العلوم الإلهية ، وأصول العقائد الدينية وأحكام العبادات ، وقوانين الفضائل والآداب ،
وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي الموافقة لكل زمان ومكان .

٩- الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها من آدمي .

١٠- التناسب في جميع ما تضمنه القرآن ظاهرا وباطنا ، من غير اختلاف ،

ج ١ ، ص : ٣٣

(٢٩/١)

قال الله تعالى : وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ ، لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [النساء ٨٢ / ٤] .

يظهر من بيان هذه الأوجه في إعجاز القرآن أنها تشمل الأسلوب والمعنى .

أما خصائص الأسلوب فهي أربعة :

الأولى- النسق البديع والنظم الغريب ، والوزن العجيب المتميز عن جميع كلام العرب ، شعرا ونشرا
وخطابة .

الثانية- السمو المتناهي في جمال اللفظ ، ورقة الصياغة ، وروعة التعبير .

الثالثة- التآلف الصوتي في نظم الحروف ورصفها ، وترتيبها ، وصياغتها ، وإيحائها ، بحيث تصلح
خطابا لكل الناس على اختلاف المستويات الفكرية والثقافية ، مع تسهيل سبيلها وحفظها لمن أراد ،

قال تعالى : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ [القمر ٥٤ / ١٧] .

الرابعة- تناسب اللفظ والمعنى ، وجزالة اللفظ وإيفاء المعنى ، ومناسبة التعبير للمقصود ، والإيجاز
والقصد دون أي تزيد ، وترسيخ المعاني بصور فنية محسوسة تكاد تلمسها ، وتتفاعل معها ، بالرغم من
تكرارها بصورة جذابة فريدة .

وأما خصائص المعنى فهي أربعة أيضا :

الأولى- التوافق مع العقل والمنطق والعلم والعاطفة .

الثانية- قوة الإقناع ، واجتذاب النفس ، وتحقيق الغاية بنحو حاسم قاطع .

الثالثة- المصدقية والتطابق مع أحداث التاريخ ، والواقع المشاهد ، وسلامته على طوله من التعارض
والتناقض والاختلاف ، خلافا لجميع كلام البشر .

(٣٠/١)

و يجمع هذه الخصائص آيات ثلاث في وصف القرآن ، وهي قوله تعالى : الر. كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ، ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ [هود ١ / ١] وقوله سبحانه : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالدُّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت ٤١ / ٤١-٤٢] وقوله عز وجل : لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدَّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [الحشر ٥٩ / ٢١].

وسيطل القرآن الكريم ناطقا بالمعجزات في كل عصر ، فهو- كما قال الرافي « ١ » - كتاب كل عصر ، وله في كل دهر دليل من الدهر على الإعجاز ، وهو معجز في تاريخه دون سائر الكتب ، ومعجز في أثره الإنساني ، ومعجز كذلك في حقائقه ، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء ، فهي باقية ما بقيت.

خامسا- عربية القرآن وترجمته إلى اللغات الأخرى :

القرآن كله عربي « ٢ » ، نزل بلسان العرب ، وما من لفظ فيه إلا وهو عربي أصلا ، أو معرّب خاضع لموازين اللغة العربية وقوالها ومقاييسها ... وقد زعم بعض الناس أن القرآن ليس عربيا خالصا ، لاشتماله على بعض كلمات من أصل أعجمي (غير عربي) ، مثل (سندس) و(إستبرق) وأنكر بعض العرب ألفاظ (قسورة) و(كبارا) ، و(عجاب) فدخل شيخ طاعن في السن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : قم ، ثم قال له : اقعد ، كرر ذلك

(١) إعجاز القرآن : ص ١٧٣ ، ١٧٥

(٢) تفسير الطبري : ١ / ٢٥

(٣١/١)

مرات ، فقال الشيخ : أتهز أبي ، يا ابن (قسورة) ، وأنا رجل (كبارا) ، إن هذا الشيء (عجاب) !
فسألوه ، هل هذا في اللغة العربية ؟ فقال : نعم .
وكان الإمام الشافعي رحمه الله أول من رد بكلامه الفصيح ، وحبته القوية على هذا الزعم ، مبينا أنه
ليس في كتاب الله شيء إلا بلسان العرب ، مفندا حجج هؤلاء الزاعمين وأهمها ثنتان :
الأولى- أن في القرآن خاصا يجهل بعضه بعض العرب .
والثانية- أن في القرآن ما ينطق به غير العرب .
ورد على الحجة الأولى : بأن جهل بعض العرب ببعض القرآن ليس دليلا على عجمة بعض القرآن ، بل
هو دليل على جهل هؤلاء ببعض لغتهم ، فليس لأحد أن يدعي الإحاطة بكل ألفاظ اللسان العربي ،
لأنه أوسع الألسنة مذهبا ، وأكثرها لفظا ، ولا يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي .
ثم رد على الحجة الثانية : بأن بعض الأعاجم قد تعلم بعض الألفاظ العربية ، وسرت إلى لغاتهم ،
ويحتمل أن يوافق لسان العجم أو بعض الألسنة قليلا من لسان العرب ، وقد يكون بعض الألفاظ العربية
من أصل أعجمي ، لكن هذا القليل النادر من أصل غير عربي قد سرى قديما إلى العرب ، فعربوه ،
وأنزلوه على طبيعة لغتهم ، وجعلوه صادرا من لسانهم ، بحسب حروفهم ومخارج تلك الحروف
وصفاتها في لغة العرب ، وذلك مثل الألفاظ المرتجلة والأوزان المبتدأة لها ، وإن كانت في الأصل
تقليدا في تغميتها للغات الأخرى « ١ » .
وتضافرت الآيات القرآنية بالتصريح بأن القرآن كله عربي ، جملة

(١) الرسالة للإمام الشافعي : ص ٤١ - ٥٠ ، ف ١٣٣ - ١٧٠ ، وانظر المستصفى للغزالي : ١ /
٦٨ ، وروضة الناظر : ١ / ١٨٤
ج ١ ، ص : ٣٦

(٣٢/١)

و تفصيلا ، وأنه نزل بلسان العرب قوم النبي صلى الله عليه وسلم ، منها قوله تعالى : الر ، تلك آيات
الكتاب المبين . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [يوسف ١ / ٢ - ٢] ومنها قوله سبحانه : وَإِنَّهُ
لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [الشعراء
٢٦ / ١٩٢ - ١٩٥] ومنها : وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا [الرعد ١٣ / ٣٧] ومنها : وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا [الشورى ٤٢ / ٧] ومنها : حم . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا
جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ، لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [الزخرف ٤٣ / ١ - ٣] ومنها : قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ، لَعَلَّهُمْ

يَنْقُوتَ [الزمر ٣٩ / ٢٨].

ورتب الشافعي على عربية القرآن حكما مهما جدا ، فقال : فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد ، وغير ذلك. وكان من مزية عربية القرآن وفضله على العرب أمران عظيمان هما :

الأول- إن تعلم القرآن والنطق به على أصوله يقوم اللسان ، ويفصح المنطق ، ويصحح الكلام ، ويساعد على فهم لغة العرب ، فليس هناك شيء يشبه القرآن في تقويم الألسنة ، حين تتأثر باللهجات العامية المختلفة.

(٣٣/١)

الثاني- كان للقرآن الفضل الأكبر في الحفاظ على اللغة العربية ، في مسيرة القرون الأربعة عشر الغابرة ، بما اشتملت عليه من فترات ضعف وتخلف وتسلب المستعمرين الأوروبيين على بلاد العرب ، بل إن القرآن عامل أساسي في توحيد العرب ، وباعث قوي ساعد في انتفاضة العرب ضد المحتل الغاصب والمستعمر البغيض ، مما أعاد الصحو الإسلامية إلى أوطان العرب والإسلام ، وربط بين

ج ١ ، ص : ٣٧

المسلمين برباط الإيمان والعاطفة القوية الصادقة ، لا سيما في أوقات المحنة والحروب ضد المحتلين. ترجمة القرآن :

يحرم ولا يصح شرعا ترجمة نظم القرآن الكريم ، لأن ذلك متعذر غير ممكن ، بسبب اختلاف طبيعة اللغة العربية التي نزل بها القرآن عن سائر اللغات الأخرى ، ففي العربية المجاز والاستعارة والكناية والتشبيه والصور الفنية التي لا يمكن صيغها بألفاظها في قوالب لغة أخرى ، ولو حدث ذلك لفسد المعنى ، واختل التركيب ، وحدثت العجائب في فهم المعاني والأحكام ، وذهبت قدسية القرآن ، وزالت عظمتة وروعته ، وتبددت بلاغته وفصاحته التي هي سبب إعجازه.

لكن يجوز شرعا ترجمه معاني القرآن أو تفسيره ، على أنه ليس هو القرآن ، فلا تعد ترجمة القرآن قرآنا ، مهما كانت الترجمة دقيقة ، ولا يصح الاعتماد عليها في استنباط الأحكام الشرعية ، لأن فهم المراد من الآيات يحتمل الخطأ ، وترجمتها إلى لغة أخرى يحتمل الخطأ أيضا ، ولا يصح الاعتماد على الترجمة مع وجود هذين الاحتمالين « ١ » .

ولا تصح الصلاة بالترجمة « ٢ » ، ولا يتعبد بتلاوتها ، لأن القرآن اسم للنظم والمعنى ، والنظم : هو عبارات القرآن في المصاحف. والمعنى : هو ما تدل عليه العبارات ، ولا تعرف أحكام الشرع الثابتة

(٣٤/١)

(١) وهذا هو الحادث الآن ، فقد ترجم القرآن الكريم إلى زهاء خمسين لغة ، وكلها ترجمات ناقصة ، أو مشوهة ، وغير موثوقة ، وحذا لو صدرت ترجمة من ثقات العلماء المسلمين.

(٢) تفسير الرازي : ١ / ٢٠٩

ج ١ ، ص : ٣٨

سادسا- الحروف التي في أوائل السور- الحروف المقطعة :

بدأ الحق سبحانه وتعالى بعض السور المكية أو المدنية القرآنية ببعض حروف التهجي أو الحروف المقطعة ، منها البسيط المؤلف من حرف واحد ، وذلك في سور ثلاث : صاد وقاف والقلم ، إذ افتتحت الأولى بحرف : أَحْرَصَ والثانية بحرف : بَرَقَ ، والثالثة بحرف : ن.

ومنها فواتح عشر سور مؤلفة من حرفين ، سيع منها متماثلة تسمى :

الحواميم ، لابتدائها بحرفي : لَحَمَ ، وهي سور : غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجنات ، والأحقاف ، وتتمة العشر : هي سور : طه ، وطس ، ويس.

ومنها فواتح ثلاث عشرة سورة مركبة من ثلاثة أحرف ، ست منها بدئت بالم وهي سور : البقرة ، وآل عمران ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة. وخمس منها بلفظ الر : وهي سور : يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر. واثنان منها بدئت بطسم ، وهما سورتا الشعراء والقصاص.

ومنها سورتان افتتحتا بأربعة أحرف ، وهما سورة الأعراف وفاتحتها المص وسورة الرعد وفاتحتها المر.

ومنها سورة واحدة افتتحت بخمسة حروف هي سورة مريم ومستهلها :

كهيعص. فصارت مجموعة الفواتح القرآنية تسعا وعشرين ، وهي على ثلاثة عشر شكلا ، وحروفها

أربعة عشر ، وهي نصف الحروف الهجائية « ١ » وقد اختلف أهل التأويل المفسرون في بيان

المقصود من فواتح السور « ٢ » ،

(١) مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح : ص ٢٣٤ وما بعدها.

(٢) تفسير القرطبي : ١ / ١٥٤ وما بعدها. [.....]

ج ١ ، ص : ٣٩

فقال جماعة : هي سرّ الله في القرآن ، ولله في كل كتاب سر ، وهي مما استأثر الله بعلمه ، فهو من المتشابه الذي نؤمن به ، على أنه من عند الله ، دون تأويل ولا تعليل ، لكنه أمر مفهوم عند النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال جماعة : لا بد أن يكون لذكره معنى وجيه ، والظاهر أنه إيماء إلى إقامة الحجة على العرب وتشبيته في أسماعهم وآذانهم ، بعد أن تحداهم القرآن على أن يأتوا بمثله ، علما بأن القرآن مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم.

فكأنه يقول لهم : كيف تعجزون عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه ؟ مع أنه كلام عربي ، مكون من حروف هجائية ، ينطق بها كل عربي : أمي أو متعلم ، وهم أساطين البيان وفرسان الفصاحة والبلاغة ، ويعتمدون على هذه الحروف في الكلام : نثره وشعره وخطابته وكتابته ، وهم يكتبون بهذه الحروف ، ومع هذا فقد عجزوا عن مجارة القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقامت الحجة عليهم أنه كلام الله ، لا كلام بشر ، فيجب الإيمان به ، وتكون الفواتح الهجائية تقريبا لهم وإثباتا لعجزهم أن يأتوا بمثله.

لكنهم لما عجزوا عن معارضة القرآن ، كانوا مكابرين معاندين في عدم الإيمان به ، وقالوا ببلاهة وسخف ، وسطحية وسذاجة عن محمد والقرآن : محمد ساحر ، شاعر ، مجنون ، والقرآن : أساطير الأولين. وذلك كله آية الإفلاس ، ومظهر الضعف ، وفقد الحجة ، وكذب المعارضة والممانعة ، وكفر المقلدة ، والعكوف على التقاليد العتيقة البالية ، والعقائد الوثنية الموروثة الخرقاء.

والرأي الثاني هو رأي جماهير المفسرين والمحققين من العلماء ، وهو المعقول المقتضي فتح الأسماع ، واستماع القرآن ، والإقرار بأنه كلام الله تعالى.

سابعاً- التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية في القرآن :

إن القرآن الكريم الذي نزل بلسان العرب ، لم يخرج عن طبيعة اللغة العربية

ج ١ ، ص : ٤٠

في استعمال اللفظ بطريق الحقيقة تارة (و هي استعمال اللفظ فيما وضع له من المعنى في اصطلاح التخاطب) واستعماله بطريق المجاز (استعمال الكلمة في معنى آخر غير ما وضعت له ، لعلاقة بين المعنى الأصلي للكلمة ، والمعنى الآخر الذي استعملت فيه) ، واستخدام التشبيه (و هو أن شيئا أو

أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر بأداة هي الكاف ونحوها ، ملفوظة أو ملحوظة) والاعتماد على الاستعارة (و هي تشبيه بليغ حذف أحد طرفيه ، وعلاقته دائما المشابهة) « ١ » .
أما التشبيه :

فكثير في القرآن ، سواء أكان بحسب وجه الشبه مفردا أم مركبا ، فمن التشبيه المفرد أو غير التمثيل (و هو ما لا يكون وجه الشبه فيه منتزعا من متعدد ، بل من مفرد ، مثل زيد أسد ، انتزع وجه الشبه من مفرد ، وهو أن زيدا أشبه الأسد من جهة الشجاعة) : قوله تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران ٣ / ٥٩] .

(٣٧/١)

و من التشبيه المركب أو تشبيه التمثيل (و هو ما كان وجه الشبه منتزعا فيه من متعدد ، أو هو كما قال السيوطي في الإتقان : أن ينتزع وجه الشبه من أمور مجموع بعضها إلى بعض) قوله تعالى : مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ، ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ، كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً [الجمعة ٦٢ / ٥] فالتشبيه مركب من أحوال الحمار ، وهو حرمان الانتفاع بأبلغ نافع ، مع تحمل التعب في استصحابه . وقوله تعالى : إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ، وَازَيَّنَّتْ ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَاراً ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً ، كَأَنْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ [يونس ١٠ / ٢٤] فيه عشر جمل ، وقع التركيب من مجموعها ، بحيث لو سقط منها شيء ، اختل التشبيه ، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة

(١) انظر مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح : ص ٣٢٢ - ٣٣٣

ج ١ ، ص : ٤١

تقصيها ، وانقراض نعيمها ، واغترار الناس بها ، بحال ماء نزل من السماء ، وأنبت أنواع العشب ، وزين بزخرفها وجه الأرض ، كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة ، حتى إذا طمع أهلها فيها ، وظنوا أنها مسلمة من الجوائح ، أتاهم بأس الله فجأة ، فكأنها لم تكن بالأمس .
وأما الاستعارة

(٣٨/١)

التي هي من المجاز اللغوي أي في الكلمة الواحدة لا كالمجاز العقلي فكثيرة أيضا « ١ » ، مثل قوله تعالى : وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ [التكوير ٨١ / ١٨] . أستعير خروج النفس شيئا فشيئا لخروج النور من المشرق عند ظهور الفجر قليلا ، ومثل قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ... [النساء ٤ / ١٠] شبه مال الأيتام بالنار ، بجامع أن أكله يؤدي ، كما تؤدي النار . ومثل قوله تعالى : كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ [إبراهيم ١٤ / ١] أي لتخرج الناس من جهالاتهم وضلالاتهم إلى الدين القيم والعقيدة الحقة والعلم والأخلاق ، شبه الجهالة والضلالة والعداوة بالظلام ، في أن الإنسان لا يهتدي إلى الطريق الواضح في كل منهما ، وشبه الدين القيم بالنور في أن الإنسان يهتدي إلى الطريق الواضح في كل منهما .
وأما المجاز :

فأنكر جماعة من العلماء وجوده في القرآن (منهم الظاهرية ، وبعض الشافعية كأبي حامد الاسفراييني وابن القاص ، وبعض المالكية كابن خوير منداد البصري ، وابن تيمية) وشبهتهم أن المجاز أخو الكذب ، والقرآن منزّه عنه ، وأن المتكلم لا يعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير ، وذلك محال على الله ، فالجدار لا يريد في قوله تعالى : يُرِيدُ أَنْ يَنْقُصَ [الكهف ١٨ / ٧٧] . والقرية لا تسأل في قوله تعالى : وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ [يوسف ١٢ / ٨٢] « ٢ » .

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ص ١٠٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٩

ج ١ ، ص : ٤٢

(٣٩/١)

لكن الذين تذوقوا جمال الأسلوب القرآني ، يرون أن هذه الشبهة باطلة ، ولو سقط المجاز من القرآن لسقط منه شطر الحسن ، مثل قوله تعالى : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ، فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا [الإسراء ١٧ / ٢٩] دلت القرينة على أن المعنى الحقيقي غير مراد ، وأن الآية تنهى عن كل من التبذير والبخل .
والكناية :

« و هي لفظ أريد به لازم معناه » كثيرة أيضا في القرآن ، لأنها من أبلغ الأساليب في الرمز والإيمان ، فالله تعالى رمز إلى الغاية من المعاشرة الزوجية ، وهي التنازل ، بلفظ (الحرث) في قوله : نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ، فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ [البقرة ٢ / ٢٢٣] ، ووصف الله العلاقة بين الزوجين ، بما فيها

من مخالطة وملابسة ، بأنها لباس من كل منهما للآخر ، في قوله : هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ ، وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ [البقرة ٢ / ١٨٧] ورمز إلى الجماع بقوله سبحانه :

أَوْ لَمْ يَسْتُمْ النِّسَاءَ [النساء ٤ / ٤٣] وقوله : أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ [البقرة ٢ / ١٨٧]. وكفى عن عفة النفس وطهارة الذيل بقوله تعالى : وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ [المدثر ٤ / ٧٤].

والتعريض :

« و هو أن تذكر اللفظ وتستعمله في معناه ، وتلّوَح به إلى ما ليس من معناه ، لا حقيقة ولا مجازا »
مستعمل أيضا في القرآن ، مثاله :

(٤٠/١)

وَ قَالُوا : لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ، قُلْ : نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا [التوبة ٩ / ٨١] ليس المراد به ظاهر الكلام وهو ازدياد حر جهنم ، وكونه أشد من حر الدنيا ، ولكن الغرض الحقيقي هو التعريض بهؤلاء المتخلفين عن القتال ، المعتذرين بشدة الحر ، بأنهم سيردون جهنم ، ويجدون حرها الذي لا يوصف. ومنه قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا [الأنبياء ٢١ / ٦٣] نسب الفعل إلى كبير الأصنام المتخذة آلهة ، لما يعلمون إذا نظروا بعقولهم ، من عجز كبيرها عن ذلك الفعل ، والإله لا يكون عاجزا.

ج ١ ، ص : ٤٣

فوائد :

القرآن ثلاثون جزءا ٣٠ عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة ١١٤ عدد آي القرآن ٦٢٣٦ على طريقة الكوفيين.

الأمر ١٠٠٠ النهي ١٠٠٠ الوعد ١٠٠٠ الوعيد ١٠٠٠ القصص والأخبار ١٠٠٠ العبر والأمثال ١٠٠٠ الحرام والحلال ٥٠٠ الدعاء ١٠٠ الناسخ والمنسوخ ٦٦

(٤١/١)

ج ١ ، ص : ٤٤

الاستعاذة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

١ - معناها :

أستجير بجناب الله وأعتصم به من شر الشيطان الملعون المذموم أن يغويني ويضلني أو يضرنني في ديني أو دنياي ، أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحضني على ما نهيت عنه ، فإنه لا يكفه ويمنعه إلا رب العالمين. والشيطان :

واحد الشياطين ، وسمي بذلك لبعده عن الحق وتمرده. والرجيم : أي المبعد من الخير ، المهان ، المرمي باللعن والسب.

٢- أمر الله سبحانه بالاستعاذة

عند أول كل تلاوة للقرآن ، بقوله تعالى :

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ [النحل ١٦ / ٩٨] أي إذا أردت أن تقرأ ، فتعوذ ، وقوله : اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ. وَقُلْ : رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبَّ أَنْ يَخْضُرُونِ [المؤمنون ٢٣ / ٩٦ - ٩٨] وهذا يوحى إلى أن القرآن جعل دفع السيئة بالحسنة علاجاً للشيطان الإنس ، والاستعاذة علاجاً للشيطان الجن.

وتطبيقاً لهذا الأمر في السنة

ورد عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه كان إذا قام إلى الصلاة استفتح ، ثم يقول : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزة ونفخه ونفثه » « ١ »

و

قال ابن المنذر : « جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم - فيما رواه ابن مسعود - أنه كان يقول قبل القراءة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وهذا اللفظ هو الذي عليه جمهور العلماء في التعوذ : لأنه لفظ كتاب الله.

٣-

الاستعاذة مندوبة في رأي جمهور العلماء في كل قراءة في غير الصلاة.

(١) أخرجه أحمد والترمذي (نيل الأوطار : ٢ / ١٩٦ وما بعدها).

ج ١ ، ص : ٤٥

أما في الصلاة ، فقال المالكية : يكره التعوذ وبسملته قبل الفاتحة والسورة ، إلا في قيام رمضان ، لحديث أنس : « أن النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين » « ١ »

وقال الحنفية : يتعوذ في الركعة الأولى فقط.

ورأي الشافعية والحنابلة : أنه يسن التعوذ سرا في أول كل ركعة قبل القراءة.

٤-

أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ، ولا آية منه.

(١) متفق عليه بين البخاري ومسلم.

ج ١ ، ص : ٤٦

(٤٢/١)

البسملة : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- معناها :

أبدأ بتسمية الله وذكره وتسبيحه قبل كل شيء ، مستعينا به في جميع أمورنا ، فإنه الرب المعبود بحق ، واسع الرحمة ، الذي وسعت رحمته كل شيء ، المنعم بجلال النعم ودقائقها ، المتفضل بدوام الفضل والرحمة والإحسان.

٢- حكمتها :

ابتدأ الله تعالى بالبسملة سورة الفاتحة وكل سور القرآن ، ما عدا سورة التوبة ، تنبيها على أن ما في كل سورة حق ، ووعد صادق للعباد ، فهو سبحانه يفي لهم بجميع ما تضمنت السورة من وعد ولطف وبر ، وإرشادا إلى استحباب البدء بالبسملة في كل الأعمال ، التماسا لمعونة الله وتوفيقه ، ومخالفة لغير المؤمنين الذين يستفتحون أعمالهم بأسماء آلهتهم أو زعمائهم.

قال بعض العلماء : إن « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » تضمنت جميع الشرع ، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات « ١ » .

٣- هل هي آية من السورة ؟

اختلف العلماء في البسملة ، أهى آية من الفاتحة وغيرها من السور أم لا ؟ على ثلاثة أقوال : فقال المالكية والحنفية : ليست البسملة بآية من الفاتحة ولا غيرها ، إلا من سورة النمل في أثنائها ، لحديث أنس رضي الله عنه قال : « صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، فلم أسمع أحدا منهم ،

(١) وأما

حديث « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع » فهو ضعيف ، رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين عن أبي هريرة.

ج ١ ، ص : ٤٧

يقرأ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ « ١ »

أي أن أهل المدينة كانوا لا يقرءون البسملة في صلاتهم في مسجد المدينة ، إلا أن الحنفية قالوا : يقرأ المنفرد : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مع الفاتحة ، في كل ركعة سرا ، فهي قرآن ، لكنها ليست بعض السورة ، وإنما هي للفصل بين السور . وقال المالكية : لا يقرؤها في الصلاة المكتوبة ، جهرا كانت أو سرا ، لا في الفاتحة ، ولا في غيرها من السور ، ويجوز قراءتها في النافلة . وقال القرطبي : الصحيح من هذه الأقوال قول مالك ، لأن القرآن لا يثبت بأخبار الآحاد ، وإنما طريقه التواتر القطعي الذي لا يختلف فيه « ٢ » ، لكن هذا غير ظاهر ، لأنه ليس بلزوم تواتر كل آية .

وقال عبد الله بن المبارك : إنها آية من كل سورة ،

لما رواه مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذا أغفى إغفاءة ، ثم رفع رأسه متبسما ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : « نزلت علي آفا سورة » فقرأ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ [الكوثر ١٠٩ / ١ - ٣ -] .

وقال الشافعية والحنابلة : البسملة آية من الفاتحة ، يجب قراءتها في الصلاة ، إلا أن الحنابلة قالوا كالحنفية : يقرأ بها سرا ، ولا يجهر بها . وقال الشافعية : يسر بها في الصلاة السرية ، ويجهر بها في الصلاة الجهرية ، كما يجهر في سائر الفاتحة .

ودليلهم على كونها آية في الفاتحة :

ما رواه الدار قطني عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قرأتم : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فاقروا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، إنها أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، ويسمى الله الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ أحد آياتها » وإسناده صحيح .

(١) رواه مسلم وأحمد .

(٢) تفسير القرطبي : ٩٣ / ١

ما روى ابن عباس رضي الله عنهما « أن النبي صلى الله عليه وسلم جهر ب بسم الله الرحمن الرحيم »
« ١ »

ولأنها تقرأ على أنها آية من القرآن ، بدليل أنها تقرأ بعد التعوذ ، فكان سنتها الجهر كسائر الفاتحة .
وتردد قول الشافعي في كون البسملة آية في سائر السور ، فمرة قال : هي آية من كل سورة ، ومرة قال :
ليست بآية إلا في الفاتحة وحدها ، والأصح أنها آية من كل سورة كالفاتحة ، بدليل اتفاق الصحابة
على كتبها في أوائل كل سورة ، ما عدا سورة براءة ، مع العلم بأنهم كانوا لا يكتبون في المصاحف ما
ليس من القرآن . وبغض النظر عن الخلاف الفقهي السابق ، اتفقت الأمة على أن البسملة آية في سورة
النمل ، وعلى جواز كتب البسملة في أول كل كتاب من كتب العلم والرسائل ، فإن كان الكتاب ديوان
شعر فمنعه الشعبي والزهري ، وأجازه سعيد بن جبير وأكثر المتأخرين « ٢ » .
فضل البسملة :

قال علي كرم الله وجهه في قوله « بسم الله » : إنه شفاء من كل داء ، وعون على كل دواء . وأما «
الرحمن » فهو عون لكل من آمن به ، وهو اسم لم يسم به غيره . وأما « الرحيم » فهو لمن تاب وآمن
وعمل صالحا .

ملاحظة : أثبت النص القرآني برسم المصحف العثماني ، فمثلا : « و أولوا » و « يتلوا » فيهما ألف ،
و « الصلوة » و « يريكم » هكذا ، أما في الإملاء الحديثة فلا تكتب الألف في الكلمتين ، وتكتب «
ال صلاة » و « يراكم » اليوم هكذا ، وأما في شرحي أو تفسيري فأتقيد بالقواعد الجديدة .
كذلك لا أعرب بعض الكلمات المعروفة ، مثل أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ، ثُمَّ نُنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ [المرسلات
١٧- ١٨] لم أعرب « ننبعهم » التي هي فعل مضارع مرفوع ، لأنه كلام مستأنف ، وليس مجزوما
مثل « نهلك » .

)

(٤٥/١)

(١) تكتب « بسم الله » بغير ألف ، استغناء عنها بباء الإلصاق ، في اللفظ والخط ، لكثرة الاستعمال
، بخلاف قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك » فإنها لم تحذف لقلة الاستعمال .

(٢) تفسير القرطبي : ٩٧ / ١

ج ١ ، ص : ٤٩

أمل ودعاء وغاية

اللهم اجعل كل ما تعلّمته - حفظته أو نسيته ، وعلمته ، طوال حياتي ، وكتبته أو ألّفته « ١ » من فيض فضلك ، ومن حركة القلم الذي أكتب به ، وومضة الفكر وإشعاعاته ، وإجهاد العقل ونتاجه ، وعناء النفس ليل نهار ، ونور البصيرة والبصر ، وإصغاء السمع ، ووعي القلب ... ذخرا لي عندك ، مخلصا لك فيه عملي ، ومن أجل إعلاء كلمتك ونشر دينك ، وتيسير العلم لأهله على وفق أذواق العصر والمعاصرين ، وبقصد مرضاتك ووجهك الكريم ، مبعدا عني بعد المشرقين كل ما يشوب ذلك من رياء أو سمعة أو شهرة ، تفيض به علي من جودك وإحسانك ، واحتسابا للأجر والثواب الواسع من لدنك وجنابك ، فتقبّل مني يا كريم قليلي في كثيرك ، ويسيري في سعتك ، فإني في عصر لم أتمكن فيه من القيام بجهدا مثلما قام به السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وأجزل به الأجر والنفع المنشود في حياتي وبعد مماتي ، وحتى يوم العرض الأكبر عليك ، وثقل به ميزان حسابي ، وحقق لي بفضلك ورحمتك النجاة يوم المعاد ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ، يا أكرم مسئول ، والحمد لله رب العالمين.

أ- د : وهبة مصطفى الزحيلي

(١) التي منها أكثر من عشرين بحثا (للموسوعة الفقهية في الكويت ، وللمؤسسة آل البيت في الأردن ، ولمجمع الفقه الإسلامي في جدة - موسوعة الفقه - وللموسوعة العربية السورية) ، ومنها الموسوعات العلمية الثلاث : أصول الفقه الإسلامي في مجلدين ، والفقه الإسلامي وأدلته في ثمانية مجلدات ، وهذا التفسير الذي ركزت فيه على فقه الحياة الأكبر في القرآن الكريم ، ومؤلفات أخرى.

ج ١ ، ص : ٥١

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ الْأَنْفَال ٨ / ٢٤ التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج في آخر الكتاب فهرسة ألفبائية شاملة الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي رئيس قسم الفقه الاسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق الجزء الأول

(٤٦/١)

ج ١ ، ص : ٥٣

سورة الفاتحة

مكية وآياتها سبع نزلت بعد المدثر

[سورة الفاتحة (١) : الآيات ١ الى ٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)
اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧)
ما اشتملت عليه السورة :

تضمنت هذه السورة معاني القرآن العظيم ، واشتملت على أصول الدين وفروعه ، وتناولت العقيدة ،
والعبادة ، والتشريع ، والإيمان بالبعث وبصفات الله الحسنى ، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء ،
والإرشاد إلى طلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم ، وتجنب طريق المنحرفين عن هداية
الله تعالى.

أسمائها :

للفاتحة اثنا عشر اسما ذكرها القرطبي ، وهي الصلاة ،
للحديث القدسي : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين »

»

١ « ، وسورة الحمد ، لأن فيها ذكر

(١) رواه مسلم ومالك في الموطأ وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.

(٤٧/١)

ج ١ ، ص : ٥٤

الحمد ، وفاتحة الكتاب ، لأنه تفتتح قراءة القرآن بها لفظا وكتابة ، وتفتتح بها الصلوات ، وأم الكتاب
في رأي الجمهور ، وأم القرآن في رأي الجمهور ،

لقوله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني » « ١ »
، والمثاني ، لأنها تشني في كل ركعة ، والقرآن العظيم ، لتضمنها جميع علوم القرآن ومقاصده الأساسية
، والشفاء ،

لقوله صلى الله عليه وسلم : « فاتحة الكتاب شفاء من كل سم » « ٢ » ،
و الرقية ،

لقوله صلى الله عليه وسلم لمن رقى بها سيد الحي : « ما أدراك أنها رقية » « ٣ »

، والأساس ، لقول ابن عباس : « ... وأساس الكتب : القرآن ، وأساس القرآن :
الفاتحة ، وأساس الفاتحة : بسم الله الرحمن الرحيم » ، والوافية : لأنها لا تتنصف ولا تحتل الاختزال

، فلو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز عند الجمهور ، والكافية ، لأنها تكفي عن سواها ، ولا يكفي سواها عنها. هذه هي أسماء سورة الفاتحة ، وأشهرها ثلاث : الفاتحة ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني. والسورة :

طائفة من القرآن مؤلفة من ثلاث آيات ، فأكثر ، لها اسم يعرف بطريق الرواية الثابتة. فضلها :

ثبت في الأحاديث الصحيحة فضل الفاتحة ، منها قوله صَلَّى الله عليه وسلم : « ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن ، وهي السبع المثاني ، وهي - كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي - مقسومة بيني وبين عبي ، ولعبي ما سأل » « ٤ » .

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة.

(٢) رواه الدارمي عن عبد الملك بن عمير ، بلفظ : « في فاتحة الكتاب شفاء من كل داء » [.....]

(٣) أخرجه الأئمة عن أبي سعيد الخدري.

(٤) رواه الترمذي عن أبي بن كعب ، ورواه أيضا عنه الإمام أحمد في المسند بلفظ : « و الذي نفسي بيده ما أنزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلها ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته » .

(٤٨/١)

ج ١ ، ص : ٥٥

ومنها أن النبي صَلَّى الله عليه وسلم قال لأبي سعيد بن المعلى : « لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن : الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته » « ١ » .
وهذان الحديثان يشيران إلى قوله تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ [الحجر ١٥ / ٨٧] لأنها سبع آيات تشي في الصلاة ، أي تعاد.
الإعراب :

الباء من بِسْمِ اللَّهِ زائدة بمعنى الإلصاق ، والراجح أنها بمعنى الاستعانة ، والجار والمجرور خبر مبتدأ محذوف عند البصريين ، وتقديره : ابتدائي بسم الله ، أي كائن باسم الله ، أو في موضع نصب بفعل مقدر عند الكوفيين ، وتقديره : ابتدأت بسم الله.
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مبتدأ وخبر ، وَرَبُّ الْعَالَمِينَ صفة الله.

ومالك مجرور على البدل ، لا على الصفة : لأنه نكرة ، بسبب أنه اسم فاعل لا يكتسب التعريف من المضاف إليه ، إذا كان للحال أو الاستقبال. ويؤم الذين ظرف زمان. وإيّاك ضمير منصوب منفصل ، والعامل فيه نَعْبُدُ والكاف للخطاب. وأهدنا سؤال وطلب ، فعل أمر يتعدى إلى مفعولين. وصراط الذين بدل من الصراط الأول. والذين اسم موصول. وغير مجرور على البدل من ضمير عَلَيْهِمْ : وهذا ضعيف ، أو من الذين أو مجرور على الوصف للذين. ولا في ولا الضالين زائدة للتوكيد عند البصريين ، وبمعنى « غير » عند الكوفيين. وأما « آمين » فدعاء ، وليس من القرآن ، وهو اسم فعل ومعناه : اللهم استجب. البلاغة :

الْحَمْدُ لِلَّهِ جملة خبرية لفظا ، إنشائية معنى ، أي قولوا : الحمد لله ، وهي مفيدة قصر الحمد عليه تعالى.

وإيّاك نَعْبُدُ ... فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وتقديم المفعول يفيد القصر ، أي لا نعبد سواك.

(١) خرّجه البخاري.

(٤٩/١)

ج ١ ، ص : ٥٦

وأهدنا الصراط أي ثبتنا عليه ، فالمراد به دوام الطلب واستمراره. وغير المغضوب عليهم فيه حذف ، تقديره : غير صراط المغضوب عليهم. المفردات اللغوية :

الْحَمْدُ الشّاء بالجميل على الفعل الاختياري ، وهو أعم من الشكر ، لأن الشكر يكون مقابل النعمة. الله : علم على الذات العلية المقدسة ، ومعناه : المعبود بحق ، وقيل : إنه اسم الله الأعظم ، ولم يتسم به غيره. أما « الإله » فهو المعبود بحق أو باطل ، يطلق على الله تعالى وعلى غيره. ربّ الرب : المالك والسيد المعبود والمصلح والمدبر والجابر والقائم ، فيه معنى الربوبية والتربية والعناية بالمخلوقات. العالمين جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله تعالى ، وهو أنواع كعالم الإنسان والحيوان والنبات والذر والجن. ولفظ العالم : اسم جنس لا واحد له من لفظه ، مثل رهط وقوم. الرحمن الرحيم صفتان لله مشتقتان من الرحمة ، لوحظ في كل منهما معنى معين ، فالرحمن : صيغة مبالغة بمعنى : عظيم الرحمة ، وهو اسم عام في جميع أنواع الرحمة ، وأكثر العلماء على أن الرحمن

اسم مختص بالله عز وجل ، ولا يجوز أن يسمى به غيره. والرَّحِيمُ بمعنى دائم الرحمة. ولما كان في اتصافه تعالى بربِّ الْعَالَمِينَ ترهيب ، قرنه بالرحمن الرحيم.

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ أي مالك يوم الحساب والمكافأة والجزاء على الأعمال ، والأمر كله في قبضته يوم القيامة ، ومن عرف أن الله ملك يوم الدين ، فقد عرفه بأسمائه الحسنی وصفاته المثلى.

(٥٠/١)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ نخصك بالعبادة ولا نعبد غيرك ، ومعناه نطيع ، والعبادة : الطاعة والتذلل وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ أي نطلب العون والتأييد والتوفيق ، ونخصك بطلب المعونة ، فأنت مصدر العون والفضل والإحسان ، ولا يملك القدرة على عوننا أحد. وقد جاء الإعلان « نعبد ونستعين » بصيغة الجمع ، لا بصيغة المفرد « إياك أعبد وإياك أستعين » للاعتراف بقصور العبد وحده عن الوقوف أمام الله ، فكأنه يقول : لا يليق بي الوقوف وحدي وبمفردي في مناجاتك ، وأجمل من تقصيري وذنوبي ، بل أنضم إلى سائر المؤمنين ، وأتوارى بينهم ، فتقبل دعائي معهم ، فنحن جميعا نعبدك ونستعين بك.

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ عرفنا ووقفنا ودلنا على الطريق الموصل إلى الحق ، وأرشدنا إليه ، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك. والصراط المستقيم : الطريق المعتدل : طريق الإسلام الذي بعث به أنبياءك ورسلك ، وختمت برسالاتهم رسالة خاتم النبيين ، وهو جملة ما يوصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة ، من عقائد وأحكام وآداب وتشريع ديني ، كالعلم الصحيح بالله والنبوة وأحوال الاجتماع.

ج ١ ، ص : ٥٧

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ أي طريق من أنعمت عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين السابقين ، وحسن أولئك رفيقا. غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ أي لا تجعلنا مع أولئك الحائدين عن طريق الاستقامة ، المبعدين عن رحمة الله ، المعاقبين أشد العقاب ، لأنهم عرفوا الحق وتركوه ، وضلوا الطريق. ويرى الجمهور أن المغضوب عليهم هم اليهود ، والضالين هم النصارى. والحق : أن المغضوب عليهم : هم الذين بلغهم الدين الحق الذي شرعه الله لعباده ، فرفضوه ونبذوه. والضالون : هم الذين لم يعرفوا الحق ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح ، وهم الذين لم تبلغهم رسالة أو بلغتهم بنحو ناقص ..

التأمين :

(٥١/١)

« آمين » دعاء ، أي تقبل منا واستجب دعاءنا ، وهي ليست من القرآن ، ولم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون عليهما السلام ، ويسن ختم الفاتحة بها ، بعد سكتة على نون وَلَا الضَّالِّينَ لِيَتَمَيَّزَ ما هو قرآن مما ليس بقرآن. ودليل سنيتهما

ما رواه مالك والجماعة (أحمد والأئمة الستة) عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم قال : « إذا أمّن الإمام فأمنوا ، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة ، غفر له ما تقدم من ذنبه » . آراء العلماء في الجهر والإسرار بالتأمين :

للعلماء رأيان : قال الحنفية ، والمالكية في الراجح : الإخفاء أو الإسرار بآمين أولى من الجهر بها ، لأنه دعاء ، وقد قال الله تعالى : ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً [الأعراف ٧ / ٥٥] وقال ابن مسعود : « أربع يخفيهن الإمام : التعوذ ، والتسمية ، والتأمين ، والتحميد » أي قول : ربنا لك الحمد. ورأى الشافعية والحنابلة : أن التأمين سرا في الصلاة السرية ، وجها فيما يجهر فيه بالقراءة ، ويؤمن المأموم مع تأمين إمامه ،

لحديث أبي هريرة المتقدم :

« إذا أمّن الإمام فأمنوا ... »

ودليلهم على هذا التفصيل :

حديث أبي هريرة : « كان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم إذا تلا : غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : آمين ، حتى يسمع من يليه من الصف الأول » « ١ »

و

حديث وائل بن حجر : « سمعت

(١) رواه أبو داود وابن ماجه ، وقال : حتى يسمعها أهل الصف الأول ، فيرتج بها المسجد.

ج ١ ، ص : ٥٨

التي صَلَّى الله عليه وسلّم قرأ : غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فقال : آمين ، يمدّ بها صوته » « ١ » .

(٥٢/١)

التفسير والبيان :

أرشدنا الله تعالى إلى أن نبداً كل أعمالنا وأقوالنا بالبسملة ، فهي مطلوبة لذاتها ، محققة للاستعانة باسمه العظيم. وعلمنا سبحانه كيف نحمده على إحسانه ونعمه ، فهو صاحب الشاء بحق ، فالحمد كله

للّه دون سواه ، لأنه مالك الملك ورب العوالم والموجودات كلها ، أوجدها ورباها وعني بها ، وهو صاحب الرحمة الشاملة الدائمة ، ومالك يوم الجزاء والحساب ليقيم العدل المطلق بين العباد ، ويحقق للمحسن ثوابه ، وللمسيء عقابه. فهذه الصفات تقتضي أن نخص الله بالعبادة وطلب المعونة ، والخضوع التام له ، فلا نستعين إلا به ، ولا نتوكل إلا عليه ، ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ، لأنه المستحق لكل تعظيم ، والمستقل بإيجاد النفع ودفع الضرر. وقد تعصف الأهواء بالنفوس ، وتزيغ بالعقول ، فلا غاصم من التردّي في الشهوات ومتاهات الانحراف إلا الله ، لذا أرشدنا الحق سبحانه إلى طلب الهداية والتوفيق منه ، حتى نسير على منهج الحق والعدل ، ونلتزم طريق الاستقامة والنجاة ، وهو طريق الإسلام القديم المستمر الذي أنعم الله به على النبيين والصديقين والصالحين. وهذا شأن العبد العابد الناسك العاقل العارف حقيقة نفسه ومصيره في المستقبل ، لا شأن الكافر الجاحد الضال المنحرف ، الذي أعرض عن طريق الاستقامة عنادا ، أو ميلا مع الأهواء ، أو جهلا وضلالا ، وما أكثر الضالين عن طريق الهداية ، المتكبين منهج الاستقامة ، الذين استحقوا الغضب والسخط الإلهي!

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي.

(٥٣/١)

ج ١ ، ص : ٥٩

فاللهم أدم علينا البقاء في طريق الهداية ، وتقبل ثناءنا ودعاءنا واحفظنا من الغواية والضلال. وبه تبين أن الناس فريقان : فريق الهدى ، وفريق الضلال « ١ » . وقد منح الله تعالى للإنسان خمس هدايات يتوصل بها إلى سعادته « ٢ » .

١ - هداية الإلهام الفطري : وتكون للطفل منذ ولادته ، فهو يحس بالحاجة إلى الطعام والشراب ، فيصرخ طالبا له إن غفل عنه والداه.

٢ - هداية الحواس : وهي متممة للهداية الأولى ، وهاتان الهدايتان يشترك فيهما الإنسان والحيوان ، بل هما في البداية أكمل في الحيوان من الإنسان ، إذ إلهام الحيوان يكمل بعد ولادته بقليل ، ويكتمل في الإنسان تدريجيا.

٣ - هداية العقل : وهي أسمى من الهدايتين السابقتين ، فالإنسان خلق مدنيا بالطبع ليعيش مع غيره ، ولا يكفي الحس الظاهر للحياة الاجتماعية ، فلا بد له من العقل الذي يوجهه إلى مسالك الحياة ، ويعصمه من الخطأ والانحراف ، ويصحح له أغلاط الحواس ، والانزلاق في تيارات الهوى.

٤- هداية الدين : وهي الهداية التي لا تخطئ ، والمصدر الذي لا يضل ، فقد يخطئ العقل ، وتنجرف النفس مع اللذات والشهوات ، حتى توردها موارد الهلاك ، فيحتاج الإنسان إلى مقوم مرشد هاد لا يتأثر بالأهواء ، فتسعفه هداية الدين لإرشاده إلى الطريق الأقوم ، إما بعد الوقوع في الخطأ أو قبله ، وتظل هذه الهداية هي الحارس الأمين الذي يفيء إليها الإنسان للتزود بمفاتيح الخير ، والتسلح بمغلاق الشر ، فيأمن العثر ، ويضمن النجاة ، وتعرّفه بحدود ما يجب

(١) الضلال : العدول عن الطريق المستقيم ، وبضاده الهداية.

(٢) تفسير المنار : ١ / ٦٢ ، تفسير المراغي : ١ / ٣٥.

(٥٤/١)

ج ١ ، ص : ٦٠

عليه لسلطان الله الذي يخضع له في أعماق نفسه ، ويحس بالحاجة الملحة لصاحب ذلك السلطان ، الذي خلقه وسواه ، وأنعم عليه نعمًا ظاهرة وباطنة ، لا تعد ولا تحصى. فصارت هذه الهداية أشد ما يحتاج إليها الإنسان ، لتحقيق سعادته.

وقد أشار القرآن إلى تلك الهدايات في آيات كثيرة ، منها وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ [البلد ٩٠ / ١٠] أي بينا له طريقي الخير والشر ، والسعادة والشقاء.

و منها قوله تعالى : وَأَمَّا تُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ، فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى [فصلت ٤١ / ١٧] أي أرشدناهم إلى طريق الخير والشر ، فاختاروا الثاني.

٥- هداية المعونة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة : وهي أخص من هداية الدين ، وهي التي أمرنا الله بدوام طلبها في قوله تعالى : اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ أي دلنا دلالة ، تصحبها من لدنك معونة غيبية ، تحفظنا بها من الضلال والخطأ.

وهذه الهداية خاصة به سبحانه ، لم يمنحها أحدا من خلقه ، بل نفاها عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [القصص ٢٨ / ٥٦] ، وقوله : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقرة ٢ / ٢٧٢] ، وأثبتها لنفسه في قوله : أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ [الأنعام ٦ / ٩٠].

أما الهداية بمعنى الدلالة على الخير والحق ، فأثبتها الله للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله : وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الشورى ٤٢ / ٥٢].

والخلاصة : الهداية في القرآن نوعان : هداية عامة : وهي الدلالة إلى مصالح العبد في معاده ، وهذه

تشمل الأنواع الأربعة السابقة ، وهداية خاصة : وهي الإعانة والتوفيق للسير في طريق الخير والنجاة ، مع الدلالة ، وهي النوع الخامس .

ج ١ ، ص : ٦١

و الإضلال نوعان « ١ » :

أحدهما- أن يكون سببه الضلال : إما بأن يضل عنك الشيء كقولك :

أضللت البعير ، أي ضلّ عني ، وإما أن تحكم بضالته . والضلال في هذين سبب الإضلال .

والثاني- أن يكون الإضلال سببا للضلال : وهو أن يزين للإنسان الباطل ليضلّ .

وإضلال الله تعالى للإنسان على أحد وجهين : إما الحكم عليه بالضلال ، أو التمكن من البقاء في الضلال .

(٥٥/١)

و الأول- سببه الضلال : وهو أن يضل الإنسان ، فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا ، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار في الآخرة ، وذلك إضلال هو حق وعدل ، لأن الحكم على الضال بضالته والعدول به عن طريق الجنة إلى النار عدل وحق .

والثاني- سببه اختيار الإنسان : وهو أن يختار الإنسان طريق الانحراف ، فيمده الله في ضلاله ، ويمكنه من البقاء في طغيانه ، ويخلق له القدرة على الاستمرار في كفره وفساده ، لذا نسب الله الإضلال للكافر والفاسق ، دون المؤمن ، بل نفى عن نفسه إضلال المؤمن ، فقال : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ [التوبة ١١٥ / ٩] ، فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ [محمد ٤٧ / ٤ - ٥] ، وقال في الكافر والفاسق : فَتَعَسَّأَ لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ [محمد ٤٧ / ٨] ، وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ [البقرة ٢ / ٢٦] ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ [غافر ٤٠ / ٧٤] ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ [إبراهيم ١٤ / ٢٧] ، وعلى هذا النحو

(١) مفردات الراغب للأصفهاني : ص ٣٠٧

ج ١ ، ص : ٦٢

تقليب الأفتدة في قوله تعالى : وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ [الأنعام ٦ / ١١٠] ، والختم على القلب في قوله : خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ [البقرة ٢ / ٧] ، وزيادة المرض في قوله : فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا [البقرة ٢ / ١٠] ، فمن اختار الضلالة ، أبقاه الله فيها ، ومنع عنه نفوذ الهداية إلى قلبه ، عقابا له من الله تعالى .

فقه الحياة أو الأحكام :

لا يوجد في القرآن آية بدون معنى أو فائدة أو حكمة أو تشريع ، فهو كلام الله المعجز دستور الحياة البشرية ، وبناء عليه ، يقصد بالآيات القرآنية تحقيق فائدة الإنسان في حياته الدينية والدينية والأخروية ، وتربطه بالحياة.

(٥٦/١)

و تكون بالتالي الأحكام المستفادة من معاني الآيات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً إما بالعقيدة أو بالعبادة أو بالأخلاق والسلوك أو بالتشريع الصالح للفرد والجماعة ، وهذا المعنى الأعم هو الذي عينته بفقه الحياة في القرآن الكريم.

والمعاني أو الأحكام المستفادة من الفاتحة تشمل صلة الإنسان بالله ، وتحدد طريق مناجاته ، وترسم له نوع مسيرته في الحياة ، وتلزمه باتباع المنهج الأقوم والطريق الأعدل ، الذي لا انحراف فيه قيد أنملة عن جادة الاستقامة ، ولا قبول بأي لون من ألوان الضلال والغي والانحراف. ومعنى البسملة في الفاتحة : أنّ جميع ما يقرر في القرآن من الأحكام وغيرها هو لله ومنه ، ليس لأحد غير الله فيه شيء.

١ - كيفية حمد الله : الفاتحة ذلك النشيد العاقد للصلة مع الله ، والذي علمنا الله إياه ، يقرؤه المؤمن في كل المناسبات ، في الصلاة وغيرها ، لأن بدايته على تأويل : قولوا : الحمد لله رب العالمين ، وذلك يقضي أن الله أمرنا بفعل الحمد ، وعلمنا كيف نحمده ونثني عليه ، وكيف ندعوه ، ويفهم منه أنّ من آداب الدعاء : أن يبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ليكون ذلك أدعى إلى الإجابة.

ج ١ ، ص : ٦٣

٢ - قراءة الفاتحة في الصلاة : للعلماء رأيان في وجوب قراءة الفاتحة في الصلاة.

الرأي الأول - للحنفية : وهو عدم وجوب قراءة الفاتحة ، وإنما الواجب للإمام والمنفرد مطلق قراءة ، وهو قراءة آية من القرآن ، وأقلها عند أبي حنيفة آية بمقدار ستة أحرف ، مثل : ثُمَّ نَظَرَ [المدثر ٧٤/ ٢١] ولو تقديراً ، مثل :

لَمْ يَلِدْ إِذْ أَصْلَهُ : « لم يولد » [الإخلاص ١١٢ / ٣]. وقال صاحبان : فرض القراءة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة.

واستدلوا بالكتاب والسنة والمعقول.

(٥٧/١)

أما الكتاب : فقله تعالى : فَأَقْرَأُوا مَا تَيْسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ [المزمل ٧٣ / ٢٠] ، وهو أمر بمطلق قراءة ،
فتتحقق بأدنى ما يطلق عليه اسم القرآن .
وأما السنة :

فحديث المسيء صلاته : « إذا قمت إلى الصلاة ، فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة ، فكبر ، ثم اقرأ
ما تيسر معك من القرآن » « ١ » .
وأما

حديث : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »
« ٢ » ، فمحمول على نفي الفضيلة ، لا نفي الصحة ، أي لا صلاة كاملة .
وأما المعقول : فهو أنه لا تجوز الزيادة بخبر الواحد الظني على ما ثبتت فرضيته بالدليل القطعي في
القرآن ، ولكن خبر الواحد يقتضي وجوب العمل به ، لا الفرضية ، فقالوا بوجوب قراءة الفاتحة فقط ،
أي أن الصلاة تصح بتركها ، مع الكراهة التحريمية .
ولا قراءة مطلقا على المقتدي عند الحنفية ، سواء أكانت الصلاة سرية أم

(١) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حديث متواتر .
(٢) رواه الأئمة الستة عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

ج ١ ، ص : ٦٤

جهرية ، واستدلوا أيضا بالكتاب والسنة والقياس .
أما الكتاب : فقله تعالى : وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ ، فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ، لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [الأعراف ٧/
٢٠٤] ، وهي تأمر بالاستماع والإنصات ، والاستماع خاص بالجهرية ، والإنصات يعم السرية
والجهرية .
وأما السنة :

فقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من صلى خلف إمام ، فإن قراءة الإمام له قراءة » « ١ »
، وهو يشمل السرية والجهرية .

وأما القياس : فهو أنه لو وجبت القراءة على المأموم ، لما سقطت عن المسبوق ، كسائر الأركان ،
فقاوسوا قراءة المؤتم على قراءة المسبوق في حكم الصلاة ، فتكون غير مشروعة .
الرأي الثاني - للمالكية والشافعية والحنبلية : وهو وجوب قراءة الفاتحة بعينها في الصلاة للإمام
والمنفرد ،

لقوله صَلَّى الله عليه وسلّم : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » ،
وحملوا النفي على نفي الحقيقة ، لأن الأصل والأقوى أن النفي على العموم ، أي لا صلاة صحيحة ،
ونفي الصحة أقرب إلى نفي الحقيقة. و
قوله عليه الصلاة والسلام أيضا : « لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب » « ٢ »
، ولفعله صَلَّى الله عليه وسلّم
كما روى مسلم ، مع خبر البخاري : « صلوا كما رأيتموني أصلي » .
قال القرطبي : الصحيح من هذه الأقوال قول الشافعي وأحمد ومالك في القول الآخر ، وأن الفاتحة
متعينة في كل ركعة ، لكل أحد على العموم.
وتتعين عند الشافعية قراءة الفاتحة ، في كل ركعة ، للإمام والمأموم والمنفرد ، سواء أكانت الصلاة سرية
أم جهرية ، فرضا أم نفلا ،
لحديث :

(١) رواه أبو حنيفة عن جابر رضي الله عنه ، وهو ضعيف ، كما ذكر القرطبي (تفسير القرطبي :
١ / ١٢٢).

(٢) رواه ابنا خزيمة وحبان في صحيحهما.

ج ١ ، ص : ٦٥

« لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »

، و

حديث : « صَلَّى رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم الصبح ، فثقلت عليه القراءة ، فلما انصرف ، قال :
إني أراكم تقرؤون وراء إمامكم ؟ » قال : قلنا : يا رسول الله ، إي والله ، قال : « لا تفعلوا إلا بأمّ
القرآن ، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ فيها » « ١ »

، فهو نص صريح خاص بقراءة المأموم ، دال على فرضيتها ، وظاهر النفي متجه إلى الإجزاء ، أي لا
تجزئ ، وهو كالنفي للذات في المآل ، وقراءة الفاتحة مستثناة من النص القرآني الأمر بالاستماع إلى
القرآن والإنصات له.

ورأى المالكية والحنابلة : أنه لا يقرأ المأموم الفاتحة في الصلاة الجهرية ، وإنما يستحب أن يقرأها في
السرية ، لأن الأمر القرآني بالاستماع والإنصات للقرآن خاص بالصلاة الجهرية ، بدليل

»

أن النبي صلى الله عليه وسلم انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة ، فقال : هل قرأ أحد منكم آفأ ؟ فقال رجل : نعم ، يا رسول الله ، قال : فإني أقول : ما لي أنازع القرآن ، فأنتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يجهر فيه من الصلوات بالقراءة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم » « ٢ » .

وهذا صريح في كراهة القراءة للمؤتم حالة الجهر.

وأما دليلهم على استحباب القراءة في حالة السر : فهو

قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا أسررت بقراءتي فاقراءوا » « ٣ » .

٣- استحضر معاني الفاتحة : على المصلي أن يستحضر في صلاته كل معاني الفاتحة من كون الله أعظم من كل عظيم ، وأكبر من كل شيء ، وأن كل ثناء جميل هو لله تعالى استحقاقا وفعلا ، من حيث إنه الرب خالق العالمين ومدبر جميع

(١) رواه أبو داود والترمذي وأحمد وابن حبان.

(٢) رواه أبو داود والنسائي والترمذي عن أبي هريرة ، وقال : حديث حسن. [.....]

(٣) رواه الدار قطني والترمذي.

ج ١ ، ص : ٦٦

أموهم ، وأن رحمة الله مقرونة بعظمته وملكه وسلطانه وتصرفه دون غيره يوم الحساب ، فهو المستحق للعبادة وحده ، ومنه وحده تطلب المعونة على العبادة وعلى جميع الشؤون ، وهو سبحانه الدال بتوقيفه ومعونته إلى طريق الخير والحق في العلم والعمل ، وللمؤمن في مناجاته قدوة حسنة وهم أولئك الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، كما أن أمامه عبرة وعظة وهم الذين غضب الله عليهم بإيثارهم الباطل على الحق ، وترجيحهم الشر على الخير ، والضالون عن طريق الحق والخير بجهلهم ، الذين ضلّ سعيهم في الحياة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فمصيرهم إلى جهنم وساءت مصيرا.

(٦٠/١)

و أما الذين جاءوا على فترة من الرسل كآهل الفترة في عصر الجاهلية ، فلا يكلفون في رأي الجمهور بشريعة ، ولا يعذبون في الآخرة ، لقوله تعالى :

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء ٧ / ١٥]. وقال جماعة من العلماء : إنهم يكلفون ويعذبون ، لأن العقل وحده كاف في التكليف ، فمتى أوتيه الإنسان ، وجب عليه النظر في ملكوت السموات

والأرض ، والتدبّر والتفكّر في خالق الكون ، وما يجب له من عبادة وإجلال ، بقدر ما يهديه عقله ، ويصل إليه اجتهاده ، وبذلك ينجو من العذاب.

٤- قراءة غير العربي : أجمع الفقهاء على أنه لا تجزئ قراءة القرآن بغير العربية ، ولا الإبدال بلفظها لفظاً عربياً ، سواء أحسن قراءتها بالعربية أو لم يحسن ، لقوله تعالى : قُرْآنًا عَرَبِيًّا [يوسف ١٢ / ٢] ، وقوله سبحانه :

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [الشعراء ٢٦ / ١٩٥] ، ولأن القرآن معجزة بلفظه ومعناه ، فإذا غيّر خرج عن نظمه ، فلم يكن قرآناً ولا مثله ، وإنما يكون تفسيراً له ، والتفسير غير المفسر ، وليس هو مثل القرآن المعجز المتحدّي بالإتيان بسورة مثله.

ج ١ ، ص : ٦٧

و أجاز القرطبي المالكي للعاجز عن العربية أن يذكر في موضع القراءة ما أمكنه من تكبير أو تهليل أو تحميد أو تسبيح أو تمجيد أو لا حول ولا قوة إلا بالله. وأجاز الكاساني لعاجز عن القراءة بالعربية أن يقرأ الفاتحة بغير العربية « ١ » .

٥- تأمين المصلي : يؤمن المنفرد اتفاقاً. وأما الإمام : فيؤمن سرّاً عند أبي حنيفة وفي الراجح عند المالكية ، لأنه دعاء. وروي عن مالك أنه قال :

لا يؤمن وإنما يقول ذلك من خلفه ، وقال الشافعية والحنابلة : يجهر الإمام بالتأمين في الصلاة الجهرية ، كما بيّنا سابقاً. وقال ابن العربي والقرطبي « ٢ » :

والصحيح تأمين الإمام جهاً ،

فإن ابن شهاب الزهري قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : آمين ، خرجه البخاري ومسلم وغيرهما ، وفي البخاري :

حتى إن للمسجد للجة « ٣ » من قول الناس : آمين. وأما المأموم : فيؤمن سرّاً عند الحنفية والمالكية ، وجهراً فيما يجهر فيه بالقراءة ، ويخفيه فيما يخفي فيه القراءة عند الشافعية والحنابلة.

(١) تفسير القرطبي : ١ / ١٢٦ ، البدائع : ١ / ١١٢

(٢) أحكام القرآن : ١ / ٧ ، تفسير القرطبي : ١ / ١٢٩

(٣) اللجة : الجلبة ، يعني أصوات المصلين.

ج ١ ، ص : ٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة البقرة

مدنية إلا آية ٢٨١ فنزلت بمنى في حجة الوداع وآياتها مائتان وست وثمانون وهي أول سورة نزلت بالمدينة

ما اشتملت عليه السورة :

سورة البقرة أطول سورة في القرآن ، وهي مدنية ، قال عكرمة : « أول سورة أنزلت بالمدينة : سورة البقرة » « ١ » . وتعني تغييرها من السور المدنية بالتشريع المنظم لحياة المسلمين في المجتمع الجديد بالمدينة ، مجتمع الدين والدولة معا ، فلا ينفصل أحدهما عن الآخر ، وإنما هما متلازمان تلازم الجسد والروح ، لذا كان التشريع المدني قائما على تأصيل العقيدة الإسلامية ، ومبدؤها الإيمان بالله ، وبالغيب ، وبأن مصدر القرآن هو الله عز وجل ، والاعتقاد الجازم بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء السابقين ، وبأن العمل الصالح ترجمان ذلك الإيمان ، ويتمثل العمل بعقد صلة الإنسان مع ربه بواسطة الصلاة ، وتحقيق أصول التكافل الاجتماعي بواسطة الإنفاق في سبيل الله .

ويقتضي تقرير العقيدة التحدث عن صفات المؤمنين والكافرين والمنافقين ، لعقد مقارنة بين أهل النجاة وبين أهل الدمار والهلاك . كما يقتضي التحدث عن قدرة الله عز وجل ، ببدء الخليقة وتكريم آدم أبي البشر بسجود الملائكة له ، وترتيب المولى ما حدث معه وزوجه في الجنة ، ثم الهبوط إلى الأرض .

(١) أسباب النزول للواحدي النيسابوري : ص ١١

(٦٢/١)

ج ١ ، ص : ٦٩

و استوجب التحذير الإلهي للمؤمنين التحدث في هذه السورة بما يزيد عن ثلثها عن جرائم بني إسرائيل ، من الآية ٤٧ - ١٢٣ ، فهم كفروا بنعمة الله ، ولم يقدروا نجاتهم من فرعون ، وعبدوا العجل ، وطالبوا موسى عليه السلام بطلبات على سبيل العناد والمكابرة والتحدي ، وبالرغم من تحقيق مطالبهم المادية كفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء بغير حق ، ونقضوا العهود والمواثيق ، فاستحقوا إنزال اللعنة وغضب الله عليهم ، وجعلهم الله أذلاء منبوذين مطرودين من رحمته .

ثم انتقلت السورة من خطاب أهل الكتاب إلى خطاب أهل القرآن ، بالتذكير بما هو مشترك بين قوم موسى وقوم محمد عليهما السلام من نسب إبراهيم والاتفاق على فضله ، واستئصال كل مزاعم

الخلاف على القبلة ، وبيان الأساس الأعظم للدين وهو توحيد الألوهية ، بتخصيص الخالق بالعبودية ، وشكر الإله على ما أنعم به من إباحة الاستمتاع بطيبات الرزق وإباحة المحرمات حال الضرورة ، وبيان أصول البر في آية : لَيْسَ الْبِرُّ [في البقرة ١٧٧ / ٢] .

(٦٣/١)

ثم أوضحت السورة أصول التشريع الإسلامي للمؤمنين به ، في نطاق العبادات والمعاملات ، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت والجهاد في سبيل الله وتنظيم أحكام القتال ، واعتماد الأشهر القمرية في التوقيت الديني ، والإنفاق في سبيل الله ، لأنه وسيلة للوقاية من الهلاك ، والوصية للوالدين والأقربين ، وبيان مستحقي النفقات ، ومعاملة اليتامى ومخالطتهم في المعيشة ، وتنظيم شؤون الأسرة في الزواج والطلاق والرضاع والعدة ، والإيلاء من النساء ، وعدم المؤاخذة بيمين اللغو ، وتحريم السحر ، والقتل بغير حق وإيجاب القصاص في القتل ، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل ، وتحريم الخمر والميسر والربا ، وإتيان النساء في المحيض وفي غير مكان الحرث وإنجاب النسل ، أي في الدبر .

ج ١ ، ص : ٧٠

و تضمنت السورة آية عظيمة في العقيدة والأسرار الإلهية ، وهي آية الكرسي ، وحذرت من يوم القيامة الرهيب في آخر ما نزل من القرآن ، وهي آية وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ [البقرة ٢ / ٢٨١] .

وتضمنت هذه السورة أطول آية في القرآن هي آية الدين ، التي أبانت أحكام الدين من كتابة وإشهاد وشهادة وحكم النساء والرجال فيها ، والرهان ، ووجوب أداء الأمانة ، وتحريم كتمان الشهادة . وختمت السورة بالتذكير بالتوبة والإنابة إلى الله ، وبالدعاء العظيم المشتمل على طلب اليسر والسماحة ، ورفع الحرج والأغلال والآصار ، وطلب النصرة على الكفار .

(٦٤/١)

فالسورة كلها منهاج قوي للمؤمنين ، ببيان أوصافهم ، وأوصاف معارضيتهم ومعاديهم من الكفار والمنافقين ، وتوضيح مناهج التشريع في الحياة الخاصة والعامة ، واللجوء في الخاتمة إلى الله والدعاء المستمر له في التشييت على الإيمان ، والإمداد بالإحسان والفضل الإلهي ، وتحقيق النصر على أعداء الله والإنسانية .

ومن توجيهات السورة أن مناط السعادة في الدنيا والآخرة هو اتباع الدين ، وأصول الدين ثلاثة : هي الإيمان بالله ورسوله ، والإيمان باليوم الآخر ، والعمل الصالح . والولاية العامة يجب أن تكون لأهل الإيمان والاستقامة ، لكن الإكراه على الدين ممنوع .

سبب التسمية :

سميت هذه السورة « سورة البقرة » لاشتمالها على قصة البقرة ، التي أمر الله بني إسرائيل بذبحها ، لاكتشاف قاتل إنسان ، بأن يضربوا الميت بجزء منها ،

ج ١ ، ص : ٧١

فيحيا بإذن الله ، ويخبرهم عن القاتل ، والقصة تبدأ بالآية [(٦٧) من سورة البقرة] وهي قصة مثيرة فعلا ، يعجب منها السامع ، ويحرص على طلبها .

فضلها :

فضل هذه السورة عظيم ، وثوابها جسيم ، ويقال لها : « فسطاط القرآن » لعظمها وبهائها ، وكثرة أحكامها ومواعظها ،

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة » « ١ »

و

قال أيضا : « اقرؤوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة » « ٢ » أي السحرة . و

في صحيح البستي عن سهل بن سعد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شيء سناما ، وإن سنام القرآن سورة البقرة ، ومن قرأها في بيته ليلا لم يدخل الشيطان بيته ثلاث ليال ، ومن قرأها نهارا لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام » .

صفات المؤمنين وجزاء المتقين [سورة البقرة (٢) : الآيات ١ الى ٥]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٥/١)

الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

(١) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم عن أبي أمامة الباهلي.

ج ١ ، ص : ٧٢

الإعراب :

الم أحرف مقطعة مبنية غير معربة ، وكذلك سائر حروف الهجاء في أوائل السور .
ذلك ذا : اسم إشارة مبني في موضع رفع ، وهو إما مبتدأ والكتاب خبره ، وإما خبر مبتدأ مقدر ،
وتقديره : هو ذلك الكتاب . والكتاب بدل من ذلك أو عطف بيان .
لا ريب فيه لا : نافية للجنس ، وريب اسمها المنصوب . وفيه متعلق بمحذوف خبر تقديره : كائن .
هديّ إما مرفوع على أنه خبر مبتدأ مقدر ، وتقديره : هو هديّ ، أو منصوب على أنه حال من « ذا »
أو من الكتاب أو من الضمير في فيه .
الذين يؤمنون إما بالجر صفة للمتقين أو بدل منهم ، وإما بالرفع على أنه مبتدأ ، وخبره أولئك على
هديّ أو على أنه خبر مبتدأ مقدر ، وتقديره هم الذين وإما بالنصب على تقدير « أعني » ويؤمنون
صلته .

أولئك على هديّ بالرفع على أنه مبتدأ ، وعلى هديّ خبره ، أو خبر الذين يؤمنون إذا جعل الذين
يؤمنون مبتدأ .

البلاغة :

ذلك الكتاب الإشارة بالبعيد عن القريب للتنبيه على علو شأنه .
هديّ للمُتَّقِينَ مجاز مرسل أو عقلي ، أسند الهداية للقرآن ، لأنه سبب الهداية ، والهادي في الحقيقة
هو الله تعالى .

(٦٦/١)

أولئك على هديّ وأولئك هم المُفْلِحُونَ للعناية بشأن المتقين . رَبَّهِمْ لِلْحَصْرِ فِيهِمْ « ١ » .
المفردات اللغوية :

الكتاب القرآن العظيم . ذلك الكتاب قال عامة المفسرين : تأويل قول الله تعالى : ذلك الكتاب : هذا
الكتاب لا ريب فيه لا شك في أنه من عند الله هديّ هداية ورشاد للمُتَّقِينَ الذين وقوا أنفسهم مما
يضرها ، فالتزموا الأوامر الإلهية وتجنبوا النواهي والمحظورات .

(١) ملاحظة عامة : اعتمدت في الإعراب على كتاب « البيان في غريب إعراب القرآن » لأبي البركات

بن الأنباري ، واستفدت كثيرا في البلاغة من كتاب « صفوة التفاسير » للأستاذ محمد علي الصابوني ،
والمعول في الأصل على تفسير الكشاف والقرطبي وغيرهما في الأمرين.

ج ١ ، ص : ٧٣

يُؤْمِنُونَ الإيمان : هو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها ، ويدل عليه العمل . وبِالْغَيْبِ ما
غاب عن الإنسان من حساب وجزاء وجنة ونار وغيرها . وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ الإتيان بها مستكملة شروطها
وأركانها.

يُوقِنُونَ اليقين : هو الاعتقاد الذي لا يقبل الشك ، وهو حقيقة العلم.

التفسير والبيان

معنى البسملة إعلان بأن جميع ما في السورة من الله تعالى ، لا من إنسان ، أنزلها برحمته لهداية الناس
إلى ما فيه الخير والسعادة في الدنيا والآخرة . وهي لا شك آية من القرآن ياجماع الصحابة الذين
حرصوا عند جمع المصحف ألا يكتبوا فيه أي شيء من غير القرآن .

وقد استفتح الله هذه السورة بالحروف المقطعة ، تنبيها لوصف القرآن وإشارة إلى إعجازه ، وتحديا
دائما على الإتيان بأقصر سورة من مثله ، وإثباتا قاطعا إلى أنه كلام الله الذي لا يضارعه شيء من كلام
البشر ، فكأن الله يقول للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم : كيف تعجزون عن الإتيان بمثله ، مع أنه كلام
عربي ، مركب من الحروف الهجائية التي ينطق بها كل عربي ، ومع ذلك عجزتم عن مجاراته . هذا هو
رأي المحققين من العلماء الذين قالوا : إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها ،
بيانا لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف
المقطعة التي يتخاطبون بها « ١ » .

قال الزمخشري : ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن ، وإنما كررت ليكون

(١) تفسير ابن كثير : ٣٨ / ١

(٦٧/١)

ج ١ ، ص : ٧٤

أبلغ في التحدي والتبكيث ، كما كررت قصص كثيرة ، وكرر التحدي بالصريح في أماكن « ١ » .
ومما يدل على كون المكونة من الحروف المقطعة :
قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة ، والحسنة بعشر
أمثالها ، لا أقول :

الم حرف ، لكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف « ٢ » .

ثم وصف الله تعالى القرآن بأوصاف ثلاثة :

الأول- أنه الكتاب الكامل في كل ما اشتمل عليه من معان ومقاصد وقصص وعبر وتشريعات غير قابلة للنقض.

والثاني- أنه لا شك في كونه حقا من عند الله ، لمن أمعن النظر وأصغى بقلبه.

والثالث- أنه مصدر هداية وإرشاد للمؤمنين المتقين ، الذين يتقون عذاب الله ، بامتنال أوامره واجتناب نواهيه ، فهم المنتفعون به.

(٦٨/١)

ثم أبان الله تعالى أربع صفات للمتقين الذين ينتفعون بالقرآن ، وهم الذين يؤمنون ويصدقون بالغيبات التي أخبر عنها القرآن من البعث والحساب والصراط والجنة والنار وغيرها ، فلا يقفون عند مجرد الماديات والمحسوسات التي يدركها العقل إدراكا قريبا ، وإنما يدركون أيضا ما وراء المادة من عوالم أخرى كالروح والجن والملائكة ، وعلى رأسها وجود الله ووحدانيته.

ثم يؤدون الصلاة على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها وآدابها وخشوعها ،

(١) تفسير الكشاف : ٧٩ / ١

(٢) رواه الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ج ١ ، ص : ٧٥

فالصلاة بدون خشوع وتأمل في المقروء فيها وتدبر للمعاني القرآنية وخشية لله جسم بلا روح.

ثم ينفقون في وجوه البر والإحسان من الأموال كالزكاة والصدقة وسائر النفقات الواجبة شرعا ، فيتحقق الرخاء لجميع الناس ، وتتطهر الأموال مما شابها من شبهات ، ويكتمل البناء المنشود شرعا : بناء الفرد بالصلاة التي هي عماد الدين ، وبناء المجتمع بالزكاة وتوابعها التي هي أساس التقدم ورقي الحياة وسعادة الأمة. فالآية عامة في كل غيب أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كائن ، وعام في كل صلاة فرضا كانت أو نفلا ، وعام في كل نفقة.

ثم إن أولئك المتقين هم الذين يصدقون بجميع ما أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، ويصدقون أيضا تصديقا جازما لا شك فيه بالآخرة وما تضمنه من بعث الأجساد والأرواح معا من القبور ، وحساب وجزاء وميزان وصراط وجنة ونار.

(٦٩/١)

وهؤلاء الموصوفون بما ذكر من الإيمان الحق بالغيب ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والاعتقاد باليوم الآخر ، والإيمان بالقرآن وبالكتاب المنزل قبله (و هي التوراة والإنجيل والزبور والصحف) ، هم على نور وهداية من ربهم ، وعلى منزلة عالية عند الله ، وهم الفائزون بالدرجات العالية في جنات الخلود. فقه الحياة أو الأحكام :

هذه صفات المؤمنين ومنهجهم وقانونهم في الحياة الإسلامية : إيمان شامل كامل بكل ما غاب علمه عنهم ، كذات الله تعالى وملائكه والدار الآخرة ، مما أخبر عنه القرآن العظيم وأرشد إليه الدليل السليم ، والإيمان مقرون بالعمل الصالح : وهو إقامة الصلاة المفروضة ، والإنفاق في سبيل الله في الجهاد ، وعون

ج ١ ، ص : ٧٦

الفقراء والمساكين وصدقة التطوع ، والنفقة الواجبة على أهل الولد وذوي القربى. ولا يتجزأ الإيمان بما أنزل الله ، فلا بد من الإيمان التفصيلي بكل ما أنزله الله تعالى في القرآن ، والإيمان الإجمالي بالكتب والصحف السماوية السابقة ، هذا مع العلم بأنه لا يعتد بما دون اليقين في الإيمان. وأرشدت الآيات إلى أن التقوى : وهي الخوف من المخالفة ، فيها جماع الخير كله ، وهي وصية الله في الأولين والآخرين ، وهي خير ما يستفيدة الإنسان ، كما قال أبو الدرداء. فمن اتصف بأوصاف المؤمنين المذكورة ، كان القرآن هدى له ، أي أنه إمامه في أعماله وأحواله ، لا يحيد عن نهجه ، وقد ضمن لنفسه النجاة في عالم الآخرة ، والسعادة والطمأنينة في الدنيا. والمشار إليه عند الجمهور وهم المؤمنون واحد ، وكرر الإشارة للإعلام بأنه لا بد من تحقق الوصفين لتحقيق الحكم بأنهم على هدى ، وأنهم هم المفلحون. قال مجاهد : في أول البقرة أربع آيات في نعت المؤمنين ، وآيتان في نعت الكافرين ، وثلاث عشرة آية في نعت المنافقين. صفات الكافرين [سورة البقرة (٢) : الآيات ٦ الى ٧]

(٧٠/١)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)

الإعراب :

سواءً إما مبتدأ ، وخبره : أُنذِرْتَهُمْ .. ، أو خبر إن وما بعده ، والتقدير فيه : إن الذين كفروا مستو عليهم الإنذار وتركه. وإنما وحّد سَمْعِهِمْ ولم يجمعه

ج ١ ، ص : ٧٧

لِ قُلُوبِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِمَّا لِأَن السَّمْعَ مَصْدَرٌ ، وَالْمَصْدَرُ : اسْمُ جِنْسٍ يَقَعُ عَلَى الْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ ، أَوْ عَلَى تَقْدِيرِ مَضَافٍ بِلَفْظِ الْجَمْعِ ، أَيْ مَوَاضِعَ سَمْعِهِمْ ، أَوْ اكْتِفَاءً بِاللَّفْظِ الْمَفْرَدِ لِمَا أَضَافَهُ إِلَى الْجَمْعِ ، وَهُوَ يَفِيدُ الْعُمُومَ ، وَالْمَرَادُ بِهِ الْجَمْعُ .

البلاغة :

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ .. فِيهِ التَّيْسُ مِنْ إِيمَانِ الْكُفَّارِ ، بِسَبَبِ عَدَمِ اسْتِعْدَادِهِمْ لِلْإِيمَانِ .
خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ اسْتِعَارَةً تَصْرِيحِيَّةً ، شَبَّهَ قُلُوبَهُمْ لِتَأْيِيدِهَا عَنِ الْحَقِّ بِالْوَعَاءِ الْمَخْتُومِ عَلَيْهِ ، وَاسْتِعَارَةً لَفْظِ الْخَتْمِ بِطَرِيقِ الْاسْتِعَارَةِ التَّصْرِيحِيَّةِ ، لِلتَّصْرِيحِ بِلَفْظِ الْمَشَبَّهِ بِهِ وَحَذْفِ الْمَشَبَّهِ وَأَدَاةِ التَّشْبِيهِ وَوَجْهِ الشَّبَّهِ .

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ : التَّنْكِيرُ فِيهِ لِلتَّعْظِيمِ وَالتَّهْوِيلِ ، ثُمَّ وَصَفَهُ مَعَ ذَلِكَ بِعَظِيمٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ بَالِغٌ حَدِّ الْعِظَمَةِ كَمَا وَكَيْفَا ، فَهُوَ شَدِيدُ الْإِيلَامِ ، وَطَوِيلُ الزَّمَانِ .

المفردات اللغوية :

الكفر : ستر الشيء وتغطيته ، ومن كفر فقد غطى الحقيقة وستر نعم الله عليه ، وكل من لم يؤمن بالقرآن فهو كافر .

أَأَنْذَرْتَهُمْ الْإِنْذَارَ : الإعلام مع التخويف .

خَتَمَ اللَّهُ طَبْعَ اللَّهِ عَلَيْهَا بِالْخَاتَمِ ، وَالْمَرَادُ : أَغْلَقَتْ قُلُوبَهُمْ ، فَلَا يَدْخُلُهَا إِيمَانٌ وَنُورٌ .
غِشَاوَةٌ غَطَاءٌ وَسْتَرٌ ، وَالْمَقْصُودُ : التَّعَامِي عَنْ النَّظَرِ إِلَى آيَاتِ اللَّهِ .
المناسبة وسبب النزول :

(٧١/١)

أتبع الله تعالى هذه الآية بعد بيان أحوال المؤمنين ، لعقد مقارنة بين أهل الإيمان وبين أهل الكفر ، لأن الكفر ضد الإيمان ، والمؤمنون ناجون ، والكفار هالكون خالدون في نار جهنم .
وسبب النزول في أصح الروايات : ما أخرجه الطبري عن ابن عباس والكلبي أن هاتين الآيتين نزلتا في رؤساء اليهود ، منهم حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظراؤهما « ١ » .

(١) تفسير الطبري : ٨٤ / ١ ، تفسير القرطبي : ١٨٤ / ١

ج ١ ، ص : ٧٨

التفسير والبيان :

إن الذين كفروا وجحدوا بآيات الله وكذبوا بالقرآن ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم يستوي عندهم الإنذار وعدمه ، فلا تتأثر قلوبهم به ، لأنها مغلقة لا يصل إليها النور الإلهي ، ولا يشرق فيها إيمان ، بسبب تعاميمهم عن الحق وآيات الله ، فلا ينفذ إليها أثر الهداية والموعظة ، ولأنهم عطلوا وسائل المعرفة والنظر والتفكير وإعمال السمع والبصر ، فأصبحوا يرون الحق فلا يتبعونه ، ويسمعونه فلا يعونه ، فكان جزاؤهم عذابا عظيما شديدا لا ينقطع ، بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى .
فقه الحياة أو الأحكام :

في هاتين الآيتين تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب قومه له ، فلا تحسر عليهم ، ولا طمع في إيمانهم ، ولا لوم عليه فيهم .

والختم على القلوب بمعنى عدم وعي الحق ، وإلقاء الغشاوة على السامع والأبصار : بمعنى عدم فهمهم للقرآن إذا تلي عليهم ، أو بمعنى عدم نظرهم في مخلوقات الله ، أو بمعنى أنهم دعوا إلى وحدانية الله فلم يؤمنوا ، وكل ذلك إنما كان بسبب كفرهم وجحودهم ، لا بسبب في القرآن أو تقصير من محمد أو أحد بعده في هدايتهم ، فهم المتسبون لكل ذلك ، المعرضون عن استخدام وسائل المعرفة السليمة في اعتقاد الحق والعمل به .

(٧٢/١)

فدلّ تعبير الختم والطبع على القلوب والأسماع والأبصار على تمكّن الكفر في قلوبهم ، حتى فقدوا الدواعي والأسباب التي ترشدتهم إلى النظر والتفكير في أدلة الإيمان ومحاسنه ، وأصبحوا في هيئة أو عادة تألف الجحود والعصيان . وقد أسند الختم على قلوبهم وعلى أسماعهم وأبصارهم إلى الله تعالى ، تنبيها على سنة الله في أمثالهم ، لا على أنهم مجبورون على الكفر ، ولا على منع الله تعالى إياهم من الإيمان بالقهر ، وإنما هو تمثيل لسنته تعالى في تأثير تمرّسهم على الكفر وإعماله في قلوبهم ،
ج ١ ، ص : ٧٩

بأنه استحوذ عليها وملك أمرها ، حتى لم يعد فيها استعداد لغيره ، وكان فعل الله ذلك عدلا فيمن خذله وأمد له في ضلاله ، إذ لم يمنعه حقا وجب له ، فتزول صفة العدل ، وإنما منعهم ما كان له أن يتفضل به عليهم ، لا ما وجب لهم .

ويوضحه آيتان أخريان هما : وَقَالُوا : قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ، فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ [البقرة ٨٨ / ٢] ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وَقَالُوا : قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ [فصلت ٤١ / ٤ - ٥] ، فهم باستكبارهم وعنادهم لا يخرجون عن سلطان الله ، وأن الله سبحانه خالق كل شيء من الهدى والضلال ، والكفر والإيمان ، والإنسان هو الذي

يختار أحد المنهجين.

صفات المنافقين - ١ - [سورة البقرة (٢) : الآيات ٨ الى ١٠]

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالِيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

الإعراب :

(٧٣/١)

مَنْ يَقُولُ وحد الضمير في الفعل مراعاة للفظ « من » وتجوز مراعاة المعنى ، فيجمع.
يُخَادِعُونَ اللَّهَ أي نبي الله ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.
بما كانوا يَكْذِبُونَ الباء تتعلق بفعل مقدّر ، أي استقر لهم. و « ما » مع الفعل بعدها في تقدير المصدر ، أي بكونهم يكذبون.

ج ١ ، ص : ٨٠

البلاغة :

وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ المتبادر أن يقال : « و ما آمنوا » ليطابق قوله مَنْ يَقُولُ آمَنَّا ولكنه عدل عن الفعل إلى الاسم ، لإخراجهم من عداد المؤمنين ، وأكده بالباء مبالغة في تكذيبهم.
يُخَادِعُونَ اللَّهَ استعارة تمثيلية ، شبه حالهم مع ربهم في إظهار الإيمان وإخفاء الكفر بحال رعية تخادع سلطانها ، وأستعير المشبه به للمشبهه بطريق الاستعارة.
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كناية ، كنى بالمرض في القلب عن النفاق ، لأن المرض فساد للجسد ، والنفاق فساد للقلب.

المفردات اللغوية :

يَالْيَوْمِ الْآخِرِ هو من وقت الحشر إلى ما لا يتناهى ، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار. والنفاق : اسم شرعي جعل سمة لمن يظهر الإيمان ويسر الكفر.

يُخَادِعُونَ يعملون عمل المخادع ، والخداع : صرف الغير عما يقصده بحيلة ، والمراد هنا : إظهار الإسلام وإضمار الكفر.

مَرَضٌ المرض : العلة ، والمراد هنا شك ونفاق وتكذيب وجحود. فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا : شكًا.

التفسير والبيان :

هؤلاء هم الصنف الثالث من الناس ، وقد وصف الله حال الذين كفروا في آيتين ، وحال المنافقين في

ثلاث عشرة آية ، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم ، وفضحهم ، واستهزأ بهم ، وتهكم بفعلهم ، ودعاهم صمًا بكما عميا ، وضرب لهم الأمثال ، فهم أشدّ خطرا على الإسلام من الكفار صراحة. ولا تقتصر أوصاف المنافقين على المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلّم فقط ، بل في كل عصر إذا وجدت صفاتهم.

(٧٤/١)

وأول هذه الصفات النطق بالإيمان باللسان ، وامتلأ القلب بالكفر والضلال. وكان عبد الله بن أبيّ بن سلول زعيم المنافقين في عصر النبوة ، وكان

ج ١ ، ص : ٨١

أكثر أصحابه من اليهود ، وكانوا يدعون الإيمان ، فردّ الله عليهم دعواهم ، وأنهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين ، وإن تظاهروا به ، ولا شكّ أنهم بهذا في صورة المخادعين لله ، والله يعلم عنهم ذلك ، فهم أشدّ ضررا من الكفار ، ولهم في الآخرة عذاب أليم بسبب كذبهم في دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر.

ونظرا لقصور عقولهم تصوّروا أنهم يخدعون الله تعالى ، وهو منزّه عن ذلك ، فإنه لا يخفى عليه شيء ، وهذا دليل على أنهم لم يعرفوه ، ولو عرفوه لعرفوا أنه لا يخدع ، وليس خداعهم إلا وبالا عليهم ، والله قادر على كشف أمرهم للمسلمين.

ومع كل ذلك يأمر الله بإجراء أحكام الإسلام عليهم ، كأنه يخادعهم ، على سبيل المشاكلة والمحاكاة والمشابهة لفعلهم ، وكأن المسلمين حيث امتثلوا أمر الله فيهم مخادعون لهم ، من باب التشبيه والتمثيل ، للإشارة إلى أن المنافقين هم الخادعون المخدوعون.

والصحيح - كما قال ابن العربي « ١ » - أن النبي صلى الله عليه وسلّم لم يقتلهم وأعرض عنهم لمصلحة تألف القلوب عليه ، ومخافة من سوء المقالة الموجبة للتنفير ، لئلا تنفر عنه القلوب ، وقد أشار هو صلى الله عليه وسلّم إلى هذا المعنى ،

فقال : « أخاف أن يتحدث الناس أن محمدا صلى الله عليه وسلّم يقتل أصحابه » وهذا كما كان يعطي الصدقة للمؤلفة قلوبهم ، مع علمه بسوء اعتقادهم تألّفا لهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن النفاق مرض خطير ، وإن المنافقين شوكة مؤذية تطعن المجتمع من الداخل ، وكان المتبادر إلى الذهن في تقديرنا أن تستأصل شأفة النفاق

(١) أحكام القرآن : ١ / ١٢ ، وانظر تفسير القرطبي : ١ / ١٩٨ وما بعدها.

(٧٥/١)

ج ١ ، ص : ٨٢

و المنافقين ، حتى ترتاح الدولة منهم ، وكذلك تفعل الدول الآن ، إلا أن للوحي الإلهي والتشريع السماوي حكمة عميقة الأثر ، بعيدة المدى ، تنتظر أحداث المستقبل ، ليظهر للناس قصور علمهم أمام سعة العلم الإلهي ، فكثيرا ما لاقى النبي صلى الله عليه وسلم الأذى من المنافقين ولكنه انتصر في النهاية عليهم ، ولعل ذلك من أصدق البراهين التاريخية على أن النفاق واليهودية شيئان متلازمان : لأنه ينشأ عن جبن حقيقي ولؤم طبعي ، فالمنافق يلتوي مع الناس في أقواله وأفعاله ، ويظهر النعومة ، ولكنها السم الزعاف في الدسم.

وتشير الآيات إلى أن الكذب هو شعار المنافقين ، لذا حذر الله المؤمنين منه أشد التحذير ، فما فشا في أمة إلا كثرت فيها الجرائم ، وشاعت فيها الرذائل ،

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إياكم والكذب ، فإن الكذب مجانب للإيمان » « ١ » .

وإذا كان الكذب شعار المنافقين ، فإن الصراحة في القول ، والجرأة في العمل الموافق للاعتقاد شعار المؤمنين الصادقين ، الذين يستحقون كل تكريم ، فتكون العظة بإيراد صفات المنافقين أشد أثرا ، وأحكم أمرا للمؤمنين أنفسهم ، إذ امتازوا بالثبات على الحق ، وظل المنافقون في نفاقهم وزاد تمسكهم بما هم عليه ، وأبوا الإيمان ، وأعرضوا عن القرآن ، وازداد مرض قلوبهم ، وتحرقت نفوسهم بعد ما جاءهم البشير النذير ، وعلا مجده وكثر أتباعه ، على ما فاتهم من الزعامة ، وحسدا للنبي صلى الله عليه وسلم وصحبه.

(١) حديث حسن رواه أحمد في مسنده ، وأبو الشيخ في التوبخ ، وابن لال في مكارم الأخلاق عن

أبي بكر . [.....]

ج ١ ، ص : ٨٣

صفات المنافقين - ٢ - [سورة البقرة (٢) : الآيات ١١ إلى ١٣]

(٧٦/١)

وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) (١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (٢) (١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

الإعراب :

وَإِذَا إِذَا : ظرف زمان مستقبل ، وهو مبني لتضمنه معنى الحرف لَهُمْ في موضع رفع نائب فاعل لكلمة قِيلَ : هذا رأي ابن الأنباري ، والصحيح أنه جار ومجرور متعلق بالفعل السابق ، إِنَّمَا كَافَّةٌ ، ليس للجملة بعدها موضع من الإعراب نَحْنُ ضمير مرفوع منفصل ، وهو مبني لأنه مضمَر .

أَلَا إِنَّهُمْ أَلَا : حرف استفتاح ، وكسرت « إن » لأنها مبتدأة .

إِنَّهُمْ ضمير فصل لا موضع له من الإعراب أو توكيد للهاء والميم في إِنَّهُمْ .

« و المفسدون » خبر « إن » .

كما مصدرية تقديره : كإيمان الناس .

البلاغة :

إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ قصر الموصوف على الصفة ، أي نحن مصلحون ليس إلا .

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ تنويع التأكيد ، جاءت الجملة مؤكدة بأربعة تأكيدات هي « أَلَا » و « إن »

و ضمير الفصل : « هم » و « المفسدون » .

المفردات اللغوية :

لَا تُفْسِدُوا الفساد : ضد الصلاح ، والمراد النهي عن الأسباب المؤدية إلى الفساد ، بإثارة

ج ١ ، ص : ٨٤

الفتن ، وإفشاء أسرار المؤمنين إلى الكفار ، وإغرائهم بالمؤمنين ، وتنفيرهم من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، والكفر والصد عن سبيل الله .

إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ الصلاح ضد الفساد ، أي ليس شأننا الإفساد أبداً ، ولا شأن لنا إلا الإصلاح ، وإنما نحن أناس مصلحون ، بعيدون عن شوائب الإفساد ، نسعى للخير والصلاح ، باتباعنا رؤساءنا ، وهكذا شأن المفسدين في كل زمان ، يدعون في إفسادهم أنه هو الإصلاح بعينه .

(٧٧/١)

السُّفَهَاءُ ضعفاء العقول ، والمراد هنا الجهلاء وضعفاء الناس . وأصل السفه : الخفة .

التفسير والبيان :

إِذَا قِيلَ لِلْمُتَّقِينَ : إِنْ مَأْمَرَاتِكُمُ الدِّينَ وَمَخَطَاتِكُمُ الْخَبِيثَةَ يَأْتَارَتِكُمُ الْفِتَنَ ، والتجسس لحساب

الكفار ، وتألّيب العرب على المسلمين فساد ، قالوا : ليس الأمر كما تزعمون ، فإنما نحن مصلحون ، لا نبغي إلا الإصلاح ، فرد الله عليهم بأنهم وحدهم هم المفسدون ، ولكنهم لا يدركون خطورة عملهم ، ولا يشعرون بهذا الإفساد ، لأنه أصبح غريزة لهم ، مركزة في طباعهم.

وكان المسلمون ينصحونهم بشتى الوسائل ، ويدعونهم إلى الإيمان ، كإيمان الذين أصغوا للعقل السليم ، وسلكوا سبيل الرشاد كعبد الله بن سلام وأشباهه ، فإذا قالوا لهم : ادخلوا في ساحة الإيمان كغيركم من الناس ، أجابوا مترفعين :

أ نؤمن بالقرآن وبمحمد ، كما آمن السفهاء : أتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، ضعفاء الناس من العبيد والفقراء ، وضعفاء العقل من الجهلاء ؟ مع أن العاقل هو من يرى طريق الخير والنور أمامه فيسلكه. فرد الله عليهم بأنهم وحدهم هم السفهاء دون من نسبوهم إلى السفه ، فليس عندهم إدراك صحيح للإيمان ، ولا يعلمون حقيقته وأثره.

والسبب في أنه قيل في الإفساد : لا يَشْعُرُونَ والشعور : إدراك ما خفي ، وفي الإيمان : لا يَعْلَمُونَ والعلم : اليقين ومطابقة الواقع : هو أن الإفساد في الأرض أمر محسوس ، ولكن لا حسن لهم حتى يدركوه ، وأما الإيمان

ج ١ ، ص : ٨٥

فهو أمر قلبي ، لا يدركه إلا من علم حقيقته ، ولا يتم الإيمان إلا بالعلم اليقيني ، والعلم : معرفة المعلوم على ما هو به ، ولكن لا علم لديهم حتى يصلوا إلى حقيقة الإيمان. فقه الحياة أو الأحكام :

(٧٨/١)

إن قلب الحقائق ، وتغيير الوقائع سمة الجبناء الضعفاء ، أما الأقوياء وهم المؤمنون الذين استخدموا وسائل المعرفة السليمة للوصول إلى الحقائق ، فهم الخالدون الباقيون ، وهم الذين يحبون الإنسانية بحق وصدق ، فيدعونهم إلى إصلاح السلوك ، وتقويم الأخلاق ، والثبات على المبدأ الحق الذي يرشد إليه العقل ، وتقتضيه الفطرة ، وتؤيده البراهين الحسية والتاريخية.

وقد دلت الآيات : وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ : آمَنَّا عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ هُوَ الْإِقْرَارُ ، دُونَ الْإِعْتِقَادِ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ عَنْ إِقْرَارِهِمْ بِالْإِيمَانِ ، وَنَفَى عَنْهُمْ سَمْتَهُ بِقَوْلِهِ : وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ « ١ » .

صفات المنافقين - ٣ - [سورة البقرة (٢) : الآيات ١٤ إلى ١٦]

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤْنَ (١) (٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَتِ

تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٢٥ / ١

ج ١ ، ص : ٨٦

الإعراب :

يَعْمَهُونَ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من « هم » في يَمُدُّهُمْ والعامل فيه الفعل ، وهو «

يمدّ » وتقديره : يمدّهم عمهين ، وإن شئت « عامهين » فقد قالوا : عمه ، فهو عمه وعامه : إذا

تحير .

البلاغة :

(٧٩/١)

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ سمي الجزاء على الاستهزاء استهزاء بطريق المجاز أو المشاكلة : وهي اتفاق الجملتين في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، أو هي مقابلة الكلام بمثله وإن لم يكن في معناه ، كقوله تعالى : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا [الشورى ٤٢ / ٤٠] والثانية ليست سيئة ولكنه لما قابل بها السيئة أجرى عليها اسمها ، وقوله : فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ [البقرة ١٩٤ / ٢] والثاني ليس باعتداء. وقوله تعالى : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ [النحل ١٦ / ١٢٦] والأول ليس بعقاب ، وإنما هو على مقابلة اللفظ بمثله ومزاوجته له ، وتقول العرب : الجزاء بالجزاء ، والأول ليس بجزاء.

اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى استعارة تصريحية ، استعار لفظ الشراء لاستبدال الغي بالرشاد ، والكفر بالإيمان ، فخرست صفقتهم ، ثم زاده توضيحا بقوله فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ وهذا هو الترشيح : وهو ذكر ما يلائم المشبه به.

المفردات اللغوية :

خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ انصرفوا إليهم أو انفردوا معهم ، وشياطينهم : إخوانهم في الكفر ورؤسأؤهم وكبرأؤهم مُسْتَهْزِئُونَ الاستهزاء : الاستخفاف والسخرية ، وهذا فعل اليهود.

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ أي أنه سيجازيهم عليه بالإمهال ، ثم بالنكال ، على سبيل المشاكلة (اتفاق اللفظ واختلاف المعنى) ليزدوج الكلام ، فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما.

يَمُدُّهُمْ يزيدهم أو يمهلهم. طُغْيَانُهُمْ تجاوزهم الحد وغلوهم في الكفر. يَعْمَهُونَ أي يتحIRON أو يعمون عن الرشd ، من العمه : وهو ضلال البصيرة.

سبب نزول الآية ١٤ :

أورد المفسرون أنها نزلت في عبد الله بن أبي وأصحابه المنافقين إذ امتدح أبا بكر وعمر وعلياً بعد أن قال فيهم لأصحابه : انظروا كيف أردّ عنكم هؤلاء السفهاء ؟ فنزلت الآية ، لكن قال السيوطي : هذا الإسناد واه جدا.

(٨٠/١)

ج ١ ، ص : ٨٧

التفسير والبيان :

هذا في عصر النبوة موقف أو مشهد آخر من مواقف ومشاهد المنافقين من اليهود ، الذين هم كالشياطين ، بل أشد ، وهو موقف لا يحسدون عليه ، لأنه سينكشف الحق قريباً ، وتتجلى الحقيقة ، فإن كل كاذب قليل الإدراك قصير النظر ، لا ينظر إلى المستقبل. فهم إذا خلوا مع بعضهم وزعمائهم تضامنوا معهم ، وقالوا : إنا معكم. وإذا رأوا المؤمنين أعلنوا إيمانهم ، وقد فضح الله أوضاعهم ، ولم يعبأ بهم ، وسيجازيهم أشد الجزاء ، ويزيدهم حيرة وضلالاً في أمورهم. ثم إنهم ياهملهم العقل في فهم كتاب الله ، وتركهم الطريق المستقيم ، وأدلة صحة هذا الدين حسداً وبغياً ، كأنهم أقدموا على صفقة خاسرة ، ودفعوا الهدى ثمناً للضلال ، وباعوا النور بالكفر وضلالات الأهواء ، فما ربحوا في هذه التجارة ، لما ينتظرهم من عذاب جهنم. قال ابن عباس : « أخذوا الضلالة وتركوا الهدى » أي استبدلوا واختاروا الكفر على الإيمان. وإنما أورده بلفظ الشراء توسعاً ، لأن الشراء والتجارة راجعان إلى الاستبدال ، والعرب تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء. وأسند الله تعالى الربح إلى التجارة ، على عادة العرب في قولهم : ربح بيعك ، وخسرت صفقتك ، والمعنى ربحت وخسرت في بيعك. وما كانوا مهتدين في اشترائهم الضلالة. فقه الحياة أو الأحكام :

الجزء والعقاب واقع على كل من بدل بالإيمان كفراً ، وبالهدى والقرآن والنور والمنهج المستقيم ضلالاً وبطلاً وظلاماً والتواء ، إذ إن هؤلاء أضاعوا رأس المال وهو ما كان لهم من الفطرة السليمة ، والاستعداد العقلي لإدراك الحقائق.

ومن المعلوم أن الناس يصفون التاجر الخاسر الذي ضيع كل رأس ماله ، ولم

ج ١ ، ص : ٨٨

(٨١/١)

يتدارك ما قد خسره في صفقة ما بأنه غبي أحق ، وهذا هو حال المنافق. ثم إن المعول عليه في دستور القرآن الحكم بصدق الإسلام هو الإخلاص بالقلب ، لا مجرد القول باللسان. والخلاصة : أن الله تعالى ذكر أربعة أنواع من قبائح المنافقين ، وكل نوع منها كاف وحده في إنزال العقاب بهم وهي ما يأتي « ١ » :

- ١ - مخادعة الله ، والخديعة مذمومة ، والمذموم يجب أن يميز من غيره كيلا يفعل الذم.
- ٢ - الإفساد في الأرض بإثارة الفتنة والتأليب على المسلمين وترويج الإشاعات الباطلة.
- ٣ - الإعراض عن الإيمان والاعتقاد الصحيح المستقر في القلب ، الموافق للفعل.
- ٤ - التردد والحيرة في الطغيان وتجاوز الحدود المعقولة ، بالافتراء على المؤمنين ووصفهم بالسفاهة ، مع أنهم هم السفهاء بحق ، لأن من أعرض عن الدليل ، ثم نسب المتمسك به إلى السفاهة فهو السفية ، ولأن من باع آخرته بدنياه فهو السفية ، ولأن من عادى محمدا عليه الصلاة والسلام ، فقد عادى الله ، وذلك هو السفية ، فالسفة محصور فيهم ، ومقصور عليهم ، ولديهم شعور ما : بأنهم ركبوا هواهم ، ولم يتبعوا هدي سلفهم ، واعتمدوا في نجاتهم وسعادتهم على الأمانى والتعللات ، كقولهم : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً [البقرة ٢ / ٨٠] وقولهم : نَحْنُ أُنْبَاءُ اللَّهِ وَأَحْبَاؤُهُ [المائدة ١٨ / ٥] أي شعبه وأصفياءه.

(١) تفسير الرازي : ٢ / ٦٢ - ٦٨

ج ١ ، ص : ٨٩

إيراد الأمثال للمنافقين [سورة البقرة (٢) : الآيات ١٧ الى ٢٠]

(١/٨٢)

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَنْبَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

الإعراب :

اسْتَوْقَدَ وَو تَرَكَهُمْ أَعَاد الضمير إلى الأول بالافراد ، وإلى الثاني بالجمع ، لأنه نَزَلَ الَّذِي منزلة « من »

و « من » يرد الضمير إليها تارة بالافراد ، وتارة بالجمع . واستَوْقَدَ :
 إما بمعنى « أوقد » فيكون متعديا إلى مفعول واحد ، وهو قوله : ناراً ، وإما أن تكون السين فيه للطلب ،
 فيكون متعديا إلى مفعولين ، والتقدير ، استوقد صاحبه ناراً . « لما » ظرف زمان ، العامل فيه : ذَهَبَ
 اللَّهُ بِنُورِهِمْ . ما حَوَّلَهُ اسم موصول بمعنى الذي ، وحوله : الصلة ، وهو في موضع نصب ، لأنه مفعول
 « أضاءت » . وأضاءت : يكون لازما ومتعديا ، والأفعال التي تكون لازمة ومتعدية تنيّف على ثمانين
 فعلا . لا يُبْصِرُونَ جملة فعلية منفية في موضع نصب على الحال ، من ضمير تَرْكَهُمْ .
 صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ : مرفوع خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هم .
 أَوْ كَصَيْبٍ أَوْ : هاهنا للإباحة ، كصيب : مرفوع لكونه خبرا لقوله : مَثَلُهُمْ ، وتقديره : مثلهم كمثل
 أصحاب صيب ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه . فِيهِ ظُلُمَاتٌ في موضع جر على
 الوصف لصيب . وَيَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ جملة فعلية في موضع جر ، صفة لأصحاب المقدر . حَذَرَ الْمَوْتِ
 مفعول لأجله .

(٨٣/١)

يَكَادُ الْبَرْقُ مضارع كاد ، من أفعال المقاربة ، ينفي في الإيجاب ويوجب في النفي .
 كُلَّمَا منصوب لأنه ظرف .
 ج ١ ، ص : ٩٠
 البلاغة :
 مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً تشبيه تمثيلي ، شبه المنافق بمستوقد النار ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ،
 وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار . وكذلك أَوْ كَصَيْبٍ .. تشبيه تمثيلي ، شبه الإسلام بالمطر لأن القلوب
 تحيا به ، وشبه شبهات الكفار بالظلمات .
 صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ تشبيه بليغ ، أي هم كالصم البكم العمي في عدم الاستفادة من هذه الحواس .
 يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ مجاز مرسل من إطلاق الكل وإرادة الجزء ، أي رؤوس أصابعهم .
 « و يكذبون .. مصلحون .. يعمهون » : توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات ، وهو من المحسنات
 البديعية . والخلاصة : اشتملت الآيات على قوة التعبير وشدة التأثير وروائع التشبيه ، ففيها تشبيه القرآن
 بالمطر إذا أمطر يحيي الأرض ، والقرآن يحيي موات النفوس ، ويرى أصحاب الأهواء أن في القرآن
 شبها هي كالظلمات العارضة مع المطر . وفي الآيات أيضا وعد ووعد كالرعد قوة وشدة .
 المفردات اللغوية :
 « المثل » الصفة التي أضحت كالمثل ، أو مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة . استَوْقَدَ أوقد ناراً

للاستدفاء والإضاءة ، أو طلب إيقاد النار أضاءتْ أظهرت ما حولها ، « ترك » صير .
والصم : آفة تمنع السماع ، والبكم : الخرس ، والعمى : عدم البصر عما من شأنه أن يبصر .
كصَيَّب الصيب : المطر الكثير . رَعَدَ الرعد : صوت احتكاك الهواء الذي يسمع في السحاب عند
تجمعه . والبرق : هو الضوء الذي يلمع في السحاب غالبا بسبب احتكاك الهواء واتحاد كهربية
السحاب الموجبة بالسالبة . والصاعقة : نار عظيمة تنزل أحيانا أثناء المطر والبرق بسبب تفريغ كهربية
السحاب بجاذب يجذبها إلى الأرض . والخطف : الأخذ بسرعة .

(٨٤/١)

قاموا : وقفوا وثبتوا في أماكنهم متحيرين منتظرين تغير الحال ، للوصول إلى النجاة .
والظلمات : هي ظلمة الليل وظلمة السحب وظلمة الصيَّب نفسه .
سبب نزول الآية ١٩ :
أخرج الطبري عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما في نزول هذه الآية :
قالوا : كان رجلا من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى
المشركين ، فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله : فيه رعد شديد وصواعق وبرق ، فكان كلما أضاءت
لهما الصواعق ، جعلاً أصابعهما في آذانهما من الفرق (الخوف) أن
ج ١ ، ص : ٩١
تدخل الصواعق في مسامعهما ، فتقتلهما ، وإذا لمع البرق مشوا في ضوئه ، وإذا لم يلمع لم يبصرا ،
وقاما مكانهما لا يمشيان ، فجعلوا يقولان : ليتنا قد أصبحنا ، فنأتي محمدا ، فنضع أيدينا في يده ،
فأصبحا فأتيه ، فأسلما ووضعاً أيديهما في يده ، وحسن إسلامهما ، فضرب الله شأن هذين المنافقين
الخارجين ، مثلاً للمنافقين الذين بالمدينة .
وكان المنافقون إذا حضروا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم ، جعلوا أصابعهم في آذانهم فرقا من
كلام النبي صلى الله عليه وسلم أن ينزل فيهم شيء ، أو يذكروا بشيء ، فيقتلوا ، كما كان ذاك
المنافقان الخارجان يجعلان أصابعهما في آذانهما ، وإذا أضاء لهم مشوا فيه .
فإذا كثرت أموالهم وولد لهم الغلمان ، وأصابوا غنيمة أو فتحا ، مشوا فيه ، وقالوا : إن دين محمد
صلى الله عليه وسلم دين صدق ، فاستقاموا عليه ، كما كان ذاك المنافقان يمشيان إذا أضاء لهم
البرق ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، وكانوا إذا هلكت أموالهم وولد لهم وأصابهم البلاء قالوا : هذا من أجل
دين محمد ، فارتدوا كفارا ، كما قام ذاك المنافقان حين أظلم البرق عليهما « ١ » .
التفسير والبيان :

ضرب الله تعالى في هذه الآيات مثلين لتوضيح حال المنافقين وبيان شناعة أعمالهم وسوء أفعالهم ، تنكيلا بهم ، وفضحا لأموهم ، إذ كانوا فتنة للبشر ، ومرضاً في الأمة. وضرب الأمثال هو منهج القرآن لتوضيح المعاني وإبراز المعقولات الخفية في معرض المحسوسات الجلية ، وهذان المثالان يصوران حالة القلق والحيرة والاضطراب عند المنافقين وسرعة انكشاف أمرهم :

المثل الأول- لسرعة انكشاف أمرهم : وهو أن مثل المنافقين وحالهم في إظهار الإسلام زمناً قليلاً وأمنهم على أنفسهم وأولادهم ، كحال الذين أوقدوا

(١) تفسير الطبري : ١ / ١١٩

ج ١ ، ص : ٩٢

نارا ، لينتفعوا بها ، فلما أضاءت ما حولهم من الأمكنة والأشياء ، وأبصروا زمناً يسيراً ، أطفأها الله بنحو مطر شديد أو ريح عاصف ، فصيرهم لا يبصرون شيئاً ، وتركهم في ظلمة الليل وظلمة السحب المتراكمة وظلمة إطفاء النار ، لأن النور قد زال.

والمنافقون عطلوا مشاعرهم وإحساساتهم ، إنهم عطلوا منفعة السمع ، فلم يسمعوا عظة واعظ وإرشاد مرشد ، بل لا يفقهون إن سمعوا ، فكأنهم صمّ عن الحق لا يسمعون. وعطلوا منفعة الكلام والسؤال والمناقشة ، فلم يطلبوا برهاناً على قضية ، ولا بيانا عن مسألة ، فكأنهم بكم لا يتكلمون ، وعطلوا منفعة البصر ، فلم ينظروا ولم يعتبروا بما حل بهم من الفتن وبما تعرضت له الأمم ، فكأنهم عمي عن الهدى. وهم لا يعدلون أصلاً عن حالهم من الضلالة إلى الهدى ، فلا تأس عليهم ولا تحزن.

و المثل الثاني- لحيرتهم وقلقهم وانتهازيتهم : وهو أن القرآن قد أتاهاهم بالإرشادات الإلهية ، ولكنهم أعرضوا عنها ، فحالهم تشبه حال قوم نزل عليهم المطر الغزير ، المصحوب بالمخاوف من ظلمات المطر والسحب والليل ، والرعد القاصف ، والبرق الخاطف ، وفي هذا الجو القاتم تلمسوا سبيل النجاة ، وعقدوا الأمل على ما لاح في الأفق من نور ، فعزموا على اتباع الحق الذي جاءت به الآيات البينات ، ثم ما لبثوا أن وقعوا في الظلام ، فأصابهم القلق والاضطراب ، والله محيط بهم ، قادر عليهم ، فلو شاء لأذهب أسماعهم بقوة الرعد ، وأبصارهم بوميض البرق الخاطف ، ولكن لحكمة ومصلحة ، لم يشأ ذلك ، لإمهالهم وإعطائهم الفرصة ليتوبوا إلى رشدهم.

والخلاصة : قد يضيء النفاق لصاحبه الدرب حيناً قصيراً ، ثم سرعان ما ينطفئ كما تنطفئ النار ، مما يجعل النفاق لا دوام له ولا استمرار . وقد يجد المنافق الأمل في نفاقه لتحقيق غرض أو مكسب مادي رخيص ، ثم تتبدد فسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ، ج ١ ، ص : ٩٣

الآمال ، ويبقى المنافقون في قلق واضطراب ، إذ إن فرحهم الظاهري بنزول آية ، وسيرهم مع المسلمين ، يسقطه الامتحان عند ما يطالبون بالجهاد مع المؤمنين ، وإن التلون بالدعم حين الخير ، والنقمة والكفر حين الشر ، مثل المنافق غير المؤمن .

فقه الحياة أو الأحكام :

(٨٧/١)

هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا ثم كفروا فذهب الله بنورهم . فما يظهره المنافقون من الإيمان الذي تثبت به أحكام المسلمين في الزواج والميراث والغنائم والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، واغترارهم لما آمنوا بكلمة الإسلام ، لا فائدة له في أحكام الآخرة ، لأنهم يصيرون إلى العذاب الأليم ، كما أخبر التنزيل : إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ [النساء ٤ / ١٤٥] فمثل استضاءتهم بضوء إقرارهم بالإسلام مع إسرار الكفر كإضاءة النار الموقوتة أو كمثل مطر مظلّم . والمنافقون عطلوا بحق وسائل المعرفة الصحيحة والإيمان الراسخ ، فهم صمّ عن استماع الحق ، بكم عن التكلم به ، عمي عن الإبصار له ، وأشد من ذلك أنهم لا يرجعون في النهاية إلى الحق لسابق علم الله تعالى فيهم ، لا بقهر وإجبار . ومع نفاقهم فلم يعجل الله عقابهم في الدنيا ، وقد استنبط الجصاص من ذلك : أن عقوبات الدنيا ليست موضوعة على مقادير الاجرام ، وإنما هي على ما يعلم الله من المصالح فيها ، وعلى هذا أجرى الله تعالى أحكامه « ١ » .

والقرآن ممتلئ بالخير والآيات الدالة على كونه من عند الله كالصيّب ، وما فيه من الوعيد والزجر كالرعد ، وما فيه من النور والحجج الباهرة التي تكاد أحياناً تبهر المنافقين كالبرق ، وما فيه من الدعوة إلى القتال في العاجل والوعيد في الآجل كالصواعق .

(١) أحكام القرآن : ٢٦ - ٢٧

ج ١ ، ص : ٩٤

(٨٨/١)

و الله محيط بجميع الكائنات وبالكافرين ، فلن يفلت من حسابه أو قدرته أو مشيئته أحد ، ولو شاء الله لأطلع المؤمنين على المنافقين ، فذهب منهم عز الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلهم وإخراجهم من بينهم. وهو سبحانه المتميز بالقدرة الشاملة لكل شيء ، فهو جل وعز قادر مقتدر قدير على كل ممكن يقبل الوجود والعدم ، ويجب على كل مكلف (بالغ عاقل) أن يعلم أن الله تعالى قادر ، له قدرة بها فعل ، ويفعل ما يشاء على وفق علمه واختياره ، ويجب عليه أيضا أن يعلم أن للعبد قدرة يكتسب بها ما أقره الله تعالى عليه على مجرى العادة ، وأنه غير مستبد بقدرته.

هذه هي الآيات العشرون ، أربع منها في وصف المؤمنين ، وآيتان في وصف الكافرين ، وبقيتها في المنافقين « ١ » .

الأمر بعبادة الله وحده والأسباب الموجبة لها [سورة البقرة (٢) : الآيات ٢١ الى ٢٢]
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢) (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

الإعراب :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ : يا حرف نداء ، وأي : اسم منادى مضموم ، وها للتنبيه ، وكثرة النداء في القرآن بهذا الأسلوب للتأكيد والمبالغة ، لأن كل ما نادى الله به عباده من أوامر ونواه وعظات من

(١) أسباب النزول للواحدي النيسابوري : ص ١١

ج ١ ، ص : ٩٥

(١٩/١)

الأمر العظام الموجبة للتيقظ. والناس : بدل من المنادي ، لأن ما فيه أل بدل من المنادي إذا كان جامدا ، ونعت أو صفة إذا كان مشتقا ، وعبرة القرطبي : الناس : مرفوع صفة لأي عند جماعة النحويين. الَّذِي جَعَلَ : إما منصوب صفة رَبَّكُمُ أو مفعول تَتَّقُونَ أو منصوب على المدح بتقدير فعل ، أو منصوب صفة للفظ الله في قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ .. (٢٠). وإما مرفوع خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو الذي ، أو مبتدأ خبره : فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا (٢) (٢) ، أو صفة لفظ الله في قوله : وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ .. (٢٠).

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنْتُمْ : ضمير مرفوع منفصل مبتدأ ، وَتَعْلَمُونَ جملة فعلية في موضع الخبر ، والجملة من المبتدأ والخبر حال من ضمير تَجْعَلُوا.

البلاغة :

رَبِّكُمْ الإضافة للمخاطبين للتعظيم.

جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا ، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً مُقَابِلَةً بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، والفراش والبناء ، من أنواع المحسنات البديعية.

المفردات اللغوية :

« يا » : نداء البعيد أو الساهي أو الغافل ، فإن نودي به القريب فهو بقصد تعظيم المنادي به ، وإيقاظ النفوس ، واجتذاب الأنظار ، واستمالة القلوب الغافلة ، فاقترضى الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ. وأما نداء القريب فيكون بكلمة « أي » خَلَقَكُمْ الخلق : الإيجاد والاختراع بلا مثال سابق.

(٩٠/١)

فِرَاشًا : الفراش : البساط للاستقرار ، والمراد أنه مهد الأرض للإقامة فيها والاستقرار عليها وذلك مثل المذكور في آيتين أخريين : الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا [غافر ٤٠ / ٦٤] أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا [النبا ٧٨ / ٦]. بِنَاءً سقفا مرفوعا مبنيًا محكما. أُنْدَادًا جمع ند وهو النظير ، أي أمثالا من الآلهة تعبدونها من دون الله. والمراد بعبادة المؤمنين : ازديادهم منها وإقبالهم عليها وثباتهم فيها : وأما عبادة الكفار فمشروط فيها ما لا بد لها منه وهو الإقرار بالشهادتين ، وما لا بد للفعل منه فهو مندرج تحت الأمر به ، وإن لم يذكر ، كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرها. مناسبة الآيات :

بعد أن ذكر الله تعالى أصناف الناس الثلاثة : وهم المؤمنون ، والكافرون ،

ج ١ ، ص : ٩٦

و المنافقون ، أمر جميع الناس ومنهم مشركو مكة بعبادته والاستكانة والخضوع له بالطاعة ، وإفراد الربوبية والوحدانية له ، وعبادته دون الأوثان والأصنام والآلهة التي كانوا يعبدونها ، لأنه تعالى هو خالقهم وخالق من قبلهم من آبائهم وأجدادهم ، وخالق أصنامهم وأوثانهم وآلهتهم ، ولأنه المنعم المتفضل على جميع الخلائق بخيرات الأرض والسما.

التفسير والبيان :

يأمر الله تعالى جميع الناس من مشركي مكة وغيرهم بعبادته وحده ، كما أمرهم على لسان الأنبياء السابقين في قوله تعالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل ١٦ / ٣٦] أي الأوثان. وأصل العبادة :

(٩١/١)

الخشوع والتذلل ، ويراد بها هنا توحيد الله والتزام شرائع دينه ، ونبذ عبادة الأصنام. والسبب أن هذا الرب العظيم يستحق إفراده بالعبادة ، لأنه خالق العباد جميعهم ، المأمورين وأسلافهم ، ومدبر شؤونهم ، وواهبهم ما يحتاجونه من طرق الهداية ووسائل المعرفة. وللعبادة ثمرة مؤكدة هي الوصول للتقوى والظفر بالفوز والنجاح والهدى وبلوغ درجة الكمال ، لأن من ذراه الله لجهنم لم يخلقه ليتقي ، ومن عبد الله حق العبادة تحققت تقواه التي يحبها الله من عباده. وبما أن الأصل في كلمة « لعل » للترجي والتوقع ، وهو مستحيل من الله التقدير الأعلى للعبد الضعيف الأدنى ، فكان المراد به : افعلوا ذلك راجين الوصول للتقوى ، أو لتعقلوا ولتذكروا ولتستقوا.

والأمر بالعبادة أيضا لأنه سبحانه جعل الأرض مهادا وقرارا للاستقرار عليها ، والحياة والإقامة فيها بهدوء واطمئنان ، بالرغم من دورانها وكرويتها ، فهي ثابتة بالجبال الراسيات : وَالْجِبَالُ أَوْتَاداً [النبا ٧٨ / ٧] ، ولأنه جعل السماء سقفا مرفوعا فوق الأرض كالقبة ، تظل الناس بالخير والبركة ، وأحكم ج ١ ، ص : ٩٧

بناءها مع ما فيها من أفلاك وأجرام ، وأحكم التسبب بينها بسنة الجاذبية ، فلا يختل نظامها ، ولا يسقط منها جرم عظيم على الأرض ، ولا تصطدم ببعضها ، وأنزل منها أي من السحاب ماء مباركا ومطرا عذبا ينبت به الزرع والعشب ، ويحيي الأرض بعد موتها ، ويغسل به الجو الذي تلوث بالتراب وغيره من كل ما يؤدي ويضر ويعكر صفو الحياة وصفاء الهواء.

(٩٢/١)

فمن اتصف بالخلق والإبداع والتكوين للإنسان ، والإمداد له بالنعم والأرزاق ، ويخلق السماء والأرض لخير البشر ، جدير بالعبادة والتعظيم والخضوع له ، فلا يليق اتخاذ الشركاء الضعفاء معه من الأصنام والبشر ، الذين لا يخلقون شيئا ولا يقدمون رزقا ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ، ولا يدفعون عن ذواتهم ضرا ، وتقديس الله تعالى عن اتخاذ الأنداد والشركاء والأولاد ، إذ لا حاجة له بهم ، فمن كانت له حقيقة القدرة ، ودلت عليه دلائل الربوبية والوحدانية هو المستحق وحده للطاعة.

وأما اتخاذ المشركين الأصنام أندادا توسلا بها إلى الله ، واتخاذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، في التشريع وتحليل المنكرات ، وتحريم بعض الطيبات ، فهو محض الافتراء والكذب ، ومغالطة الواقع ، مع أن الكل متفقون على أن الخالق والرازق هو الله ، وحال جميع الكافرين والمنافقين يعلمون في الحقيقة بطلان شرائع وأنظمة الآلهة المزعومة ، قال تعالى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ [العنكبوت ٢٩ / ٦١]

أي يصرفون. وقال سبحانه منددًا باتخاذ الوسائط إلى الله ، وبإبطال التقرب بغير ما شرع الله : ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمر ٣٩ / ٣].

ج ١ ، ص : ٩٨

فقه الحياة أو الأحكام :

العبادة التي هي توحيد الله والتزام شرائع دينه لا تكون إلا لله الخالق الرازق ، وملازمة العبادة الخالصة لله مدعاة لغرس أصول التقوى لله عز وجل ، فلا يجزأ المتقون على مخالفة الأوامر ، واقتحام المعاصي.

(٩٣/١)

و ليس المراد بكون الأرض فراشا ، أي وطاء للافتراش والاستقرار عليها ، هو الفراش المعهود المستخدم للنوم ، فمن حلف لا ينام على فراش ، فنام على الأرض ، لا يحنث في رأي الحنفية والشافعية ، لأن اللفظ لا ينصرف إليها عرفا ، والأيمان محمولة على المعتاد المتعارف من الأسماء ، وليس في العادة إطلاق هذا اللفظ على الأرض. وأما المالكية فيحملون الأيمان على النية أو السبب أو بساط الحال التي جرت عليه اليمين (أي سبب اليمين) ، فإن عدم ذلك فالعرف ، فإن لم يكن شيء من ذلك فيحمل اليمين على مطلق اللفظ المراد في اللغة.

ودلت الآية على توحيد الله ، وإثبات الصانع الذي لا يشبهه شيء ، القادر الذي لا يعجزه شيء. ومن مظاهر قدرته رفع السماء ووقوفها بغير عمد نراه ، ودوامها على طول الدهر ، دون تبدل ولا تغير ، كما قال تعالى : وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ، وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ [الأنبياء ٢١ / ٣٢] وكذلك ثبات الأرض ووقوفها على غير سند بالرغم من تحركها ، ودورانها في الفضاء ، من أعظم الدلالات على التوحيد ، وعلى قدرة خالقها ، وأنه لا يعجزه شيء ، وفي ذلك تنبيه على الاستدلال بها على الله وتذكير بالنعمة ، فقد أخرج الله من الأرض ألوانا من الثمرات ، وأنواعا من النبات ، طعاما للإنسان ، وعلفا للدواب ، وقد بين الله هذا في قوله تعالى : أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ، وَعَبْنَا وَقَضْبًا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا « ١ » ، متاعاً لكم ولأنعامكم [عبس ٨٠ / ٢٥ - ٣٢].

(١) القضب : علف رطب للدواب كالبرسيم ، والأب : الكأ والعشب ، أو هو التبن خاصة.

ج ١ ، ص : ٩٩

(٩٤/١)

و أرشدت هذه الآية إلى أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق ، و قد أشار عليه السلام إلى هذا المعنى : « و الله لأن يأخذ أحدكم حبله ، فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يسأل أحدا ، أعطاه أو منعه » « ١ » .
قال القرطبي :

ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها ، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله ، بسبب الحرص والأمل ، والرغبة في زخرف الدنيا ، فقد أخذ بطرف من جعل لله ندا « ٢ » .
وفي قوله تعالى : وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ دليل على الأمر باستعمال حجج العقول وإبطال التقليد ، لأن المشركين يعلمون في الحقيقة أن المنعم عليهم هو الله دون الأنداد ، ويعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبروا ونظروا وأعملوا عقولهم وأفكارهم ، فلا داعي للوسائط المزعومة في قولهم : ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمر ٢٥ / ٣] .

تحدي الجاحدين بالإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن [سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٣ الى ٢٤]
وَأِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢) (٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)

(١) أخرجه مسلم.

(٢) تفسير القرطبي : ٢٣٠ / ١

ج ١ ، ص : ١٠٠

الإعراب :

(٩٥/١)

الهاء في مثله إما أن تكون عائدة على عَبْدِنَا فتكون من ابتدائية ، وتقديره : ابتدئوا في الإتيان بالسورة من مثل محمد ، وإما أن تكون عائدة على مِمَّا نَزَّلْنَا وهو القرآن ، فتكون من زائدة للبيان ، وتقديره : فأتوا بسورة مثله. ومن مثله متعلق بسورة صفة لها ، أي بسورة كائنة من مثله. قال الزمخشري : ورد الضمير إلى المنزل أوجه ، لقوله تعالى : فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ [يونس ١٠ / ٣٨] ، فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ [هود ١٤ / ١٣] ، عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ [الإسراء ١٧ / ٨٨] ، ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح الأساليب ، والكلام مع ردّ الضمير إلى « المنزل » أحسن

ترتيا ، وذلك أن الحديث في المنزل ، لا في المنزل عليه.
أُعِدَّتْ إما حال للنار على معنى معدّة ، وأضمرت معه قد ، كما قال : أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ
[النساء ٩٠ / ٤] ، أي قد حصرت ، وإما بكلام منقطع عما قبله.

البلاغة :

على عَبْدِنَا إضافة تشريف وتخصيص. فَأَتُوا بِسُورَةِ الْأَمْرِ خَرَجَ إِلَى معنى التعجيز ، وتنكير السورة لإرادة العموم والشمول.

وَلَنْ تَفْعَلُوا يفيد دوام التحدي في الماضي والحاضر والمستقبل. فَاتَّقُوا النَّارَ إيجاز صارف إلى الغاية المقصودة جوهريا ، أي فإن عجزتم فخافوا نار جهنم بالإيمان بالقرآن وبالنبي محمد عليه الصلاة والسلام.

المفردات اللغوية :

رَبِّ شَك. عَبْدِنَا محمد. مِنْ مِثْلِهِ أي المنزل ، أي هي مثله في البلاغة وحسن النظم والإخبار عن الغيب. وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ أَحْضَرُوا آلِهَتَكُمْ أَوْ نَصْرَاءَكُمْ وَرُؤَسَاءَكُمْ ، أَوْ مَنْ يَشْهَدُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. مِنْ دُونِ اللَّهِ أي غيره لتعينكم. إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ في أن محمدا قاله من عند نفسه ، فإنكم عرب فصحاء مثله. والسورة : قطعة أو طائفة من القرآن ، لها أول وآخر ، أقلها ثلاث آيات.

(٩٦/١)

ج ١ ، ص : ١٠١

المناسبة :

بعد أن صنّف القرآن الناس إلى أقسام ثلاثة : متقين موحدين ، وجاحدين معاندين ، ومنافقين مذبذبين ، وبعد أن أثبت الوحداية والربوبية لله ، ونفى الشركاء بالمنطق والبرهان ، أثبت الله تعالى أن القرآن كلام الله ، وأنه نزل من عنده ، بدليل أنه معجز ، لم يتمكن أحد من الجن أو الإنس مجاراته والإتيان بمثله ، مع أن العرب فرسان البلاغة ، وأساطين الفصاحة ، ولا فخر لهم إلا بالكلام شعرا ونثرا وخطابة ، وبما أنهم عجزوا ، ولم يستطيعوا الإتيان بمثله أقصر سورة من القرآن ، فقد ثبت صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما ادعاه من النبوة ، وما أتى به من الرسالة الإلهية. وكان منكر نبوته ورسالته مستحقا العقاب والجزاء في نار جهنم.

التفسير والبيان :

إن كنتم أيها العرب وغيركم من الجاحدين في شك من صدق القرآن ، الذي أنزله الله على عبده

ورسوله النبي الأمي محمد بن عبد الله ، وزعمتم أنه من كلام البشر ، فأتوا بمثله ، كما يقدر سائر البشر ، وذلك إن كنتم صادقين في أنه مختلق ومن كلام البشر ، وأنكم تقدرّون على المعارضة لقولهم : لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا [الأنفال ٨ / ٣١] ، واستعينوا بمن شئتُم من الرؤساء والأشراف والآلهة المزعومة ، لمعارضة القرآن ، فإنه لا يقدر أن يأتي بمثله إلا الله ، وحيث عجزتم ولم تقدرّوا على الإتيان بسورة تماثل القرآن في البيان الغريب والبلاغة المتفوقة ، وعلو حسن النظم ، وسلامة المنطق ، وروعة التشريع والأحكام الصالحة لكل زمان ومكان ، والإخبار بالمغيبات ، ويظل العجز دائما في المستقبل ، فلن تقدرّوا على الإتيان بمثله ، مع أنه كلام عربي من جنس كلام العرب في الشعر والخطابة والنثر والأسلوب ، وفي العرب البلغاء والفصحاء والشعراء والخطباء وأعلام البيان والقول.

ج ١ ، ص : ١٠٢

(٩٧/١)

و حيث ظهر العجز فعلا ، فارجعوا إلى الحق ، والإيمان بالقرآن ، والتصديق برسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ففي ذلك وحده النجاة من عذاب الله في النار التي وقودها الناس الكفار والحجارة (الأصنام) مادة الاشتعال ، فهي لا يماثلها أعلى فرن ناري عالي التوتر لصهر الحديد وغيره من المواد الصلبة ، ولا تقدر درجات حرارتها بأفران الدنيا على الإطلاق ، وقد أعدها الله وهيأها للكافرين الجاحدين المنكرين رسالة الإسلام ، جزاء وفاقا لكفرهم وجحودهم. قال تعالى : إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ [الأنبياء ٢٩ / ٩٨].

والخلاصة : إذا بان العجز التام عن الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن ، مع المحاولة وبذل الجهود واستمرار التحدي في المستقبل ، فاحذروا العناد ، واعترفوا بكون القرآن من عند الله ، لئلا تكونوا مع أصنامكم وقودا لنار جهنم التي أعدت لأمثالكم الكافرين.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت آية وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ .. على صحة نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام من وجوه :

الوجه الأول

– أنه تحداهم بالإتيان بمثل القرآن ، وقرّعهم بالعجز عنه ، مع ما هم عليه من الأنفة والحمية ، وأنه كلام موصوف بلغتهم ، فلو قدرّوا على معارضته لكانت معارضته أبلغ الأشياء في إبطال دعواه وتفريق أصحابه عنه.

فلما ظهر عجزهم عن معارضته ، دلّ ذلك على أن القرآن من عند الله الذي لا يعجزه شيء ، وأنه ليس في مقدور العباد مثله. وهذه معجزة باقية لنبينا عليه الصلاة والسلام بعده إلى قيام الساعة ، وقد كانت

هذه المعجزة تتناسب مع اعتزاز العرب بالفصاحة والبلاغة بما لم يتهياً لغيرهم ، فجعل الله تعالى آية محمد الكبرى كتاباً معجزاً لهم ولسائر الخلق في نظمه وأسلوبه ، وفصاحته وبلاغته ،
ج ١ ، ص : ١٠٣

(٩٨/١)

فكانت عليهم الحجة بأقوى مما قامت به المعجزات المادية السابقة مثل عصا موسى ويده في عصر السحر ، وإبراء عيسى الأكمه والأبرص وإحياء الموتى في عصر الطب .
والوجه الثاني

– كان معلوماً عند الناس قاطبة : المؤمنين والجاحدين لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان من أتم الناس عقلاً ، وأكملهم خلقاً ، وأفضلهم رأياً ، فما طعن عليه أحد في كمال عقله ، ووفور حلمه ، وصحة فهمه ، وجودة رأيه ، فلا يجوز على من كان هذا وصفه أن يدعي النبوة ، ويجعل علامة نبوته كلاماً يقدر كل واحد من العرب على مثله ، فيظهر حينئذ كذبه ، وبطلان دعواه ، فدل ذلك على أنه تحداهم بكلام هو من عند الله لا يقدر العباد على مثله .

والوجه الثالث

– أخبر تعالى بقوله : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا أَنَّهُمْ لَا يِعَارَضُونَ ، وذلك إخبار بالغيب ، وتحقيق الخبر مع مضي الزمان . قال أبو بكر الجصاص « ١ » : وقد تحدى الله الخلق كلهم من الجن والإنس بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن بقوله تعالى : قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً [الإسراء ١٧ / ٨٨] ، فلما ظهر عجزهم قال : فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ [هود ١٤ / ١٣] ، فلما عجزوا قال : فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ [الطور ٥٢ / ٣٤] ، فتحداهم بالإتيان بمثل أقصر سورة منه ، فلما ظهر عجزهم عن ذلك ، وقامت عليهم الحجة ، وأعرضوا عن طريق المحاجة ، وصمموا على القتال والمغالبة ، أمر الله نبيه بقتالهم .

والخلاصة : أن التحدي كان متنوعاً ، مرة بالنظم والمعنى ، ومرة بالنظم دون المعنى ، بافتراء شيء لا معنى له ، وفي كل الأحوال ظهر فشلهم .

(١) أحكام القرآن : ٢٩ / ١

(٩٩/١)

ج ١ ، ص : ١٠٤

و أرشدت الآية : فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا .. على ظهور العجز التام عن المعارضة ، وعلى استحقاق الكافرين النار لإنكارهم نبوة النبي صَلَّى الله عليه وسلّم ، ولعدم تصديقهم بالقرآن ، وعلى أن من اتقى النار ترك المعاندة ، وعلى أن النار حاليا ومن القديم مخلوقة مهيأة موجودة معدة للعصاة والفساق والكفار. قال القرطبي « ١ » : فيه دليل على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة ، خلافا للمبتدعة في قولهم : إنها لم تخلق حتى الآن.

جزاء المؤمنين العاملين [سورة البقرة (٢) : آية ٢٥]

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)
الإعراب :

مُتَشَابِهًا منصوب على الحال من الضمير في به والعامل فيه : أُتُوا أي يشبه بعضه بعضا في المنظر ، ويختلف في الطعم. وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم.
مُطَهَّرَةٌ نعت للأزواج ، ومطهرة في اللغة : أجمع من طاهرة وأبلغ. وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ « هم » : مبتدأ ، و « خالدون » خبره ، والظرف ملغى. ويجوز في غير القرآن نصب « خالدين » على الحال.
والسبب في تنكير جنات وتعريف الأنهار : أن الجنة اسم لدار الثواب كلها ، وهي مشتملة على جنات كثيرة مرتبة مراتب على حسب استحقاقات العاملين ، لكل طبقة منهم جنات من تلك

(١) تفسير القرطبي : ٢٣٦ / ١

ج ١ ، ص : ١٠٥

(١٠٠/١)

الجنان. وأما تعريف الأنهار : فلأن إيراد الجنس ، كما تقول : لفلان بستان فيه الماء الجاري والتين والعنب وألوان الفاكهة ، تشير إلى الأجناس التي في علم المخاطب ، أو المراد أنهارها ، فعوض التعريف باللام من تعريف الإضافة ، كقوله : وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا [مريم ١٩ / ٤] ، أو لأنه يشار باللام إلى الأنهار المذكورة في قوله تعالى : فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ .. [محمد ٤٧ / ١٥].

لمفردات اللغوية :

وَبَشِّرِ أَخْبِرِ. الَّذِينَ آمَنُوا صدقوا بالله. وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ من الفروض والنوافل. أَنَّ أَي بَأْن. جَنَّاتٍ حدائق ذات شجر ومساكن ، وهي دار الخلود للمؤمنين ، وسميت جنة ، لأنها تجنّ من فيها أي تستره بشجرها. تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أي تحت أشجارها وقصورها. الْأَنْهَارُ المياه فيها. كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ أَعْطُوا مِنْ تِلْكَ الْجَنَّاتِ.

رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ أي قبله في الجنة لتشابه ثمارها. وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا يشبه بعضه بعضا لونا ويختلف طعما. وَأَلْهُم فِيهَا أَزْوَاجٌ من الحور وغيرها. مُطَهَّرَةٌ من الحيض والبصاق وسائر الأقدار. وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ماكنون أبدا لا يفنون ولا يخرجون ، والخلود : البقاء ، ومنه جنة الخلد. المناسبة :

يعقد القرآن عادة مقارنات بين الأشياء المتضادة ، فلما ذكر الله جزاء الكافرين والعصاة ، أردف ذلك ببيان جزاء المؤمنين الأتقياء الأطهار ، ليظهر الفرق بين الفريقين ، وليكون ذلك أدعى للعبارة والعظة ، والامتنال من مقارنة الأحوال.

التفسير والبيان :

بَشِّرِ يا محمد أنت وورثتك من العلماء : المؤمنين المتقين ، الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات والحسنات أن لهم حدائق ذات أشجار ومساكن ، تجري من تحت

ج ١ ، ص : ١٠٦

(١٠١/١)

قصورها ومساكنها أنهار الجنة « ١ » ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وفيها- كما ورد في الصحيحين- ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهو معنى قوله تعالى : فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جزاء بما كانوا يَعْمَلُونَ [السجدة ٣٢ / ١٧].

فيها الأرزاق الدائمة والثمار الشهية المتنوعة ، كلما قدمت لهم ثمرة منها في أول النهار وآخره ، قالوا متعجبين : هذه الثمرة كالتي رزقناها في الدنيا ، فإذا أكلوها وجدوا لها طعما غير الطعم المعتاد ، وأدركوا أنها تشبه ثمار الدنيا في المنظر والشكل والجنس فقط ، وتختلف في الذوق والطعم والحجم ، فهي مما لم يروه أبدا ، وجئوا بها مشابهة لثمار الدنيا المألوفة ، مع اختلاف المادة والطعم ، قال ابن عباس :

« ليس في الدنيا من الجنة شيء إلا الأسماء » ، وقال الطبري « ٢ » : « أولى التأويلات تأويل من قال : وأتوا به متشابهها في اللون والمنظر ، والطعم مختلف ، يعني بذلك اشتباه ثمر الجنة وثمر الدنيا

في المنظر واللون ، مختلفا في الطعم والذوق.

ومن الأمور الغيبية التي نؤمن بها كما أخبر الله أن في الجنة للمؤمنين زوجات من الحور العين ، مقصورات في الخيام ، لم يطمثنهن إنس قبلهم ولا جان ، مطهرات من الأقدار والأدناس المنفرة : الحسية والمعنوية ، كالحيض والنفاس ، والحدث من البول والغائط ، والتنخم أو البصاق ، وشروور النفس والهوى.

روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ، ولا يتفلون ولا يبولون ، ولا يتغوطون ولا يتمخطون ، قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ، ويلهمون التسبيح والتحميد ، كما تلهمون النفس » .

(١)

روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو من تحت جبال المسك » .

)

(١٠٢/١)

(٢) تفسير الطبري : ١ / ١٣٥ وما بعدها ، ومثله تفسير الرازي : ٢ / ١٣٠

ج ١ ، ص : ١٠٧

لكن ورد أن نساء الدنيا المؤمنات يكنّ يوم القيامة أفضل من الحور العين ، المذكورات في قول الله تعالى : إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرْباً أَثَرَباً لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ [الواقعة ٥٦ / ٣٥ - ٣٨] .
روى الترمذي عن أم سلمة : « .. قلت : يا رسول الله ، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين ؟ قال : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين ، كفضل الظهارة على البطانة. قلت :

يا رسول الله ، وبم ذاك ؟ ! قال : بصلاتهن وصيامهم وعبادتهن الله عز وجل » « ١ » .

وثبت في الصحيح أيضا : أن لكل رجل في الجنة زوجتين اثنتين.

قال العلماء : إحداهن من نساء الدنيا ، والأخرى من نساء الجنة.

وتمتاز الجنة عن الدنيا بأنها دار الخلود أي الدوام والبقاء والمكث الطويل ، الذي لا بديل عنه ، وهو تمام السعادة ، وأمل المؤمنين.

فقه الحياة أو الأحكام :

تتوالى البشائر القرآنية المفرحة للنفوس ، المحركة للقلوب ، بأن الجنة دار النعيم الدائم المقيم هي

المخصصة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات. والإيمان بمجرده لا يكفي ، بل لا بدّ من أن ينضم إليه الطاعة والعمل الصالح. ونعيم الجنة غير محدود ورزقها لا ينقطع ، وإنما أراد الله أن يقرب لعقولنا ما أعدّ فيها ، بهذه الآية وغيرها ، وبما أن طبيعة البشر تتعلق عادة بالماديات ، أغراهم الله بما تميل إليه نفوسهم ، فوعدهم بالحقائق المادية ، المعبر عنها في آية أخرى بإيجاز : وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ ، وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [الزخرف ٤٣ / ٧١] ، ويظل الإنسان في عالم الآخرة إنسانا لا ملكا ، وإنما تكون لذاته الإنسانية أكمل مما كان في الدنيا ، وأسلم من المنغصات. وأما الأعمال الصالحة التي تبوئ أصحابها الجنان : فهي كل خير أقره العرف

(١٠٣/١)

(١) تفسير ابن كثير : ٢٩١ / ٤

ج ١ ، ص : ١٠٨

و الشرع والعقل والفطرة السليمة ، منها المذكور في أوائل سورة « المؤمنون » :
 قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [المؤمنون ٢٣ / ١ - ١١].
 وخلود المؤمنين في الجنة ، وخلود الكفار في النار : معناه في الشرع : الدوام الأبدي ، أي لا يخرجون منها ، ولا هي تفنى بهم ، فيزولوا بزوالها ، وإنما هي حياة أبدية لا نهاية لها.

فائدة ضرب الأمثال للناس في القرآن [سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٦ الى ٢٧]
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٢٧)

ج ١ ، ص : ١٠٩

الإعراب :

(١٠٤/١)

لا يَسْتَحْيِي جملة فعلية منفية في موضع رفع خبر إنَّ. أَنْ يَضْرِبَ في موضع نصب بفعل يَسْتَحْيِي وحذف حرف الجر هنا ، لأنَّ إنَّ هنا مصدرية. مَثَلًا مفعول أول ، وما في قوله مَثَلًا ما بَعُوضَةٌ إما زائدة لتأكيد الخسة أي مثلاً بعوضة ، وبَعُوضَةٌ بالنصب على البدل من مثل ، وإما نكرة موصوفة بما بعدها بدل من مثل أي مثلاً شيئاً بعوضة فهو مفعول ثان ، وإما بمعنى « الذي » و « بعوضة » مرفوع خبر مبتدأ مقدر ، أي الذي هو بعوضة. فَمَا فَوْقَهَا ما : عطف على ما الأولى ، أو على بَعُوضَةٌ إن جعلت « ما » زائدة. فَأَمَّا حرف فيه معنى الشرط ، فوقع في جوابها الفاء.

ما ذا إما كلمة واحدة للاستفهام في موضع نصب بأراد ، والمعنى : أي شيء أراد الله بهذا المثل. وإما أن تجعل ذا بمعنى « الذي » فتكون ما في موضع مبتدأ ، وما بعدها الخبر ، فهو استفهام إنكاري. مَثَلًا إما منصوب على التمييز ، أو منصوب على الحال من « ذا » في « هذا » .
أَنْ يُوصَلَ إما في موضع نصب على البدل من ما أو في موضع جرّ على البدل من الهاء في به. وَالَّذِينَ نعت. وَأَنْ يُوصَلَ بدل من ضمير به.

البلاغة :

لا يَسْتَحْيِي المعنى : لا يترك ، فعبر بالحياء عن الترك ، لأن الترك من ثمرات الحياء ، ومن استحيا من فعل شيء تركه ، كما قرر الزمخشري في (تفسيره : ١ / ٢٠٤) فهو مجاز من باب إطلاق المألوم وإرادة اللزم.

يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ فيه استعارة مكنية ، حيث شبه العهد بالجبل ، وحذف المشبه به ، ورمز له بشيء من لوازمه ، وهو النقص ، وسمي العهد حبلاً على سبيل الاستعارة ، لما فيه من ثبات الصلة بين المتعاهدين ، كما قال الزمخشري : ١ / ٢٠٧ ، أي أن أصل استعمال النقص هو في الحبل ، ثم استعمل في العهد ، لأنه يشبهه.

المفردات اللغوية :

(١٠٥/١)

لا يَسْتَحْيِي لا يترك ضرب المثل. والحياء : تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب عليه ويذم ، فإذا ورد الحياء في حق الله تعالى ، فليس المراد منه ذلك الخوف الذي هو مبدأ الحياء ومقدمته ، بل ترك الفعل الذي هو منتهاه وغايته. أَنَّ يَضْرِبَ يجعل مَثَلًا المثل في اللغة : الشبيه والنظير ، وضرب المثل في الكلام : أن يذكر لحال ما يناسبها ، فيظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفياً. بَعُوضَةٌ الناموسة المعروفة. فَمَا فَوْقَهَا ما زاد عليها أو كان أكبر منها ،

ج ١ ، ص : ١١٠

أي لا يترك بيانه لما فيه من الحكم. الحقُّ هو الشيء الذي يحقّ ويجب ثبوته ، ولا يجد العقل سبيلا لإنكاره. والفسق لغة : الخروج ، يقال : فسقت الرطبة عن قشرها : إذا خرجت. والنقض : الفسخ وفكّ التركيب لحبل وغزل ونحوهما. والميثاق : ما يوثق به الشيء ، ويكون محكما يعسر نقضه. وميثاق العهد : توكيده ، والمراد : العهد المؤكد باليمين. وعهد الله : ما أخذه على عباده من فهم السنن الكونية بالنظر والاعتبار ، وهو ما أوصاهم به في الكتب السابقة من الإيمان بمحمد إذا ظهر. وطريق الإيمان : استخدام نعمة العقل والحواس المرشدة إلى الفهم. ونقض الميثاق : عدم استعمال تلك المواهب فيما خلقت له ، حتى كأنهم فقدوها أو عطّلوها ، فالمراد بقوله : مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ توكيده عليهم. والمأمور بوصله : هو الإيمان بالتّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم والرحم وغير ذلك. والإفساد في الأرض : بالمعاصي والتعويق عن الإيمان. سبب النزول :

(١٠٦/١)

أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره : ١ / ١٣٨ عن جماعة من الصحابة : لما ضرب الله هذين المثليين للمنافقين : قوله : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ، وقوله : أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ الآيات الثلاث ، قال المنافقون : الله أعلى وأجلّ من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل الله : إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً ... إلى قوله : أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » ١ . قال السيوطي في الجلالين : هذا القول أصح إسنادا وأنسب بما تقدم أول السورة. التفسير والبيان :

إن الله سبحانه وتعالى لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ونحوها بما هو دونها أو أكبر منها ، ترك من يستحي أن يتمثل بها لحقارتها ، فلا غرابة ولا حرج ولا عيب في الإتيان بالأمثال والأشياء سواء أكانت صغيرة أم كبيرة ، لأن العظمة فيها جميعها شيء واحد وهو الخلق والإبداع ، ولأن المثل جعل لكشف المعنى وتوضيحه بما هو معروف مشاهد ، وما الأمثال إلا إبراز للمعاني المقصودة في قالب الأشياء

(١) انظر أيضا تفسير القرطبي : ١ / ٢٤١ ، أسباب النزول للواحدي : ص ١٢ [.....]

ج ١ ، ص : ١١١

المحسوسة لتأنس بها النفوس ، وتنكشف أمامها الغوامض ، وتزول الأوهام عن معارضة العقل. والله الحكيم يفعل ما يحقق المصلحة بضرب المثل في العظام والمحقرات حسب الأحوال والمناسبات ،

فإن كان الأمر عظيما كالحق والإسلام ضرب مثله بالنور والضياء ، وإن كان الأمر مهينا حقيرا كالأصنام ضرب مثله في عدم النفع وانعدام الفائدة بما يشبهه من الذباب والبعوض والعنكبوت.

(١٠٧/١)

فأما المؤمنون الذين يصدقون بأن الله خالق الأشياء كلها صغيرها وكبيرها ، فيقولون : هذا كلام الله حق ، لا يقول غير الحق ، والكل لديه سواء ، وهذا المثل لمصلحة وحكمة. وأما الكافرون الذين يستهزئون بالأمثال بالمحقرات فيقولون متعجبين : ماذا أراد الله بمثل هذه الأشياء الحقيرة ؟ فهم في حيرة من أمرهم ، وخسارة في نهايتهم ، ولو آمنوا لعرفوا الحق ووجه الحكمة في ذلك ، قال تعالى :
لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ، وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ، وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ،
وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ : مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا [المدرثر ٧٤ / ٣١].

ثم ردّ الله تعالى على المتسائلين بأن هذا المثل كان سببا في زيادة ضلال كثير من الكافرين لكفرهم بالله ، وزيادة هداية كثير من المؤمنين لإيمانهم بالله ، ولا يضلّ بضرب المثل أو بغيره من القرآن ، إلا الفاسقون : الخارجون عن طاعة الله وعن سنته في خلقه ووجد آياته ، وتعطيل عقولهم ومشاعرهم عن إدراك المصالح والغايات.

وفي هذا إشارة إلى أن علّة إضلالهم خروجهم عن السنن الكونية التي جعلها الله عبرة لمن تذكر ، فإسناد الإضلال إلى الله تعالى إسناد الفعل إلى السبب ، لأنه لما ضرب المثل ، فضلّ به قوم ، واهتدى به قوم ، تسبب لضلالهم وهداهم « ١ » . قال

(١) الكشف : ٢٠٦ / ١ وما بعدها.

ج ١ ، ص : ١١٢

تعالى : وَلَئِكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [العنكبوت ٢٩ / ٤٣] ، والعالمون : هم المؤمنون المهتدون بهدي الحق.

(١٠٨/١)

ثم أردف تعالى ذلك ببيان أوصاف هؤلاء الفاسقين ، فهم ينقضون الميثاق ، فلا يستعملون مواهبهم من عقل ومشاعر وحواس لإرشادهم إلى المقصود ، وينقضون ما عاهدوا الله عليه عهدا فطريا « ١ » من الإيمان بمحمد والتصديق به وبجميع الرسل الكرام ، والعمل بشرائع الله ، قال تعالى : لَهُمْ قُلُوبٌ لَا

يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف ١٧٩ / ٧].

وهم يقطعون ما أمر الله به أن يوصل من الإيمان بالله بعد قيام الأدلة الكونية على وجوده ، فقطعوا الصلة بين الدليل والمدلول ، والإيمان بجميع الأنبياء ، ففرقوا بين نبي ونبي ، وقد أمر الله بوصل الإيمان بجميع الأنبياء ، وهم لا يصلون الرحم والقربات المادية بين الأقارب ، والمعنوية بين الرسل وموالات المؤمنين.

ومشركو العرب بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم نقضوا عهد الفطرة ، وأهل الكتاب نقضوا العهدين : عهد الفطرة والعهد الديني الذي أخذه الله عليهم في كتبهم من الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، كما قال تعالى : وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ [البقرة ٢ / ١٤٦] ، فمن أنكر بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم ، فهو ناقض لعهد الله تعالى .
وهم يفسدون في الأرض بالمعاصي ، والفتن بين الناس ، والصدّ عن الإيمان ،

(١) العهد الفطري أو عهد الله : هو ما ركز في قلوب ومشاعر وعقول الناس قاطبة من ظهور الحجة على توحيد الإله ، وهو بمثابة أمر وصاهم الله به ووثقه عليهم ، وهو معنى قوله تعالى :

(١٠٩/١)

وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنَا [الأعراف ١٧٢ / ٧]. والعهد الديني : هو أخذ الميثاق على أهل الكتاب بأنهم إذا بعث إليهم رسول يصدقه الله بمعجزاته . صدقوه واتبعوه .

ج ١ ، ص : ١١٣

و التضليل في العقائد ، وإثارة الشبهات حول القرآن ، إبقاء على نفوذهم ومراكزهم .
وهم في النهاية الخاسرون في الدنيا بافتضاحهم وتخبطهم وخزيهم ، وفي الآخرة بالعذاب الأليم وغضب الله عليهم ، فلا سعادة لهم في دنياهم وأخراهم ، لأنهم استبدلوا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، والنار بالجنة ، والنقض بالوفاء ، والقطع بالوصل ، والفساد بالصلاح ، والعقاب بالثواب .
فقه الحياة أو الأحكام :

إن اشتغال القرآن الكريم على ذكر النحل والذباب والعنكبوت والنمل ونحوها من المحقرات مما قد لا يليق - في زعم المشركين - بكلام الفصحاء ، لا يقدح في فصاحة القرآن ، ولا يخلّ بكونه معجزا ، لأن صغر هذه الأشياء لا يقدح في الفصاحة إذا كان ذكرها مشتملا على حكم بالغة . وهذا وجه متناسبة

الآية لما قبلها.

وإذا ورد الحياء في حق الله تعالى ، فليس المراد منه الخوف الذي هو مبدأ الحياء ومقدمته ، بل ترك الفعل الذي هو منتهاه وغايته. وكذلك ليس المراد بالغضب في حق الله تعالى شهوة الانتقام وغلbian دم القلب ، بل المراد تلك النهاية ، وهو إنزال العقاب. وهذا هو القانون الكلي في هذا الباب « ١ » . وكلام الله حق مطلق ، لا نقص فيه في حد ذاته ، ولا في جانب من جوانبه ، وإنما هو حق ، لأنه مبين للحق ومقرر له ، وسائق إلى الأخذ به ، بما له من التأثير في النفس. وضرب الأمثال والأشباه في القرآن الكريم يراد به كشف الغوامض ، وتنبيه

(١) تفسير الرازي : ٢ / ١٣٢ وما بعدها.

ج ١ ، ص : ١١٤

(١١٠/١)

الأذهان إلى الحقائق ، وإبانة المصالح ، وتقدير الحكم البالغة ، وهو من الأمور المستحسنة في العقول والتربية والتعليم. وأما الذين كفروا فيجادلون في الحق بعد ما تبين ، ويمارون بالبرهان وقد تعين ، فيخرجون من الموضوع ، ويعرضون عن الحجة. وليس الإيمان أو الكفر أمرا وراثيا ، أو قهريا جبريا ، وإنما للإرادة والاختيار والعقل دخل فيه ، وسببه هو استخدام طاقات الإنسان من حواس ومشاعر وأفكار ، وليس للمثل - كما يزعم الكفار - تأثير في تفريق الناس إلى ضلالة وهدى ، فالله تعالى لا يضلّ أحدا من المؤمنين المهتدين بهداية العقل والدين ، وإنما يضلّ الفاسقين الخارجين عن الطاعة وصراط الله السوي ، الذين سبق في علم الله تعالى أنهم غير هداة ، فيكون إسناد الإضلال إلى الله تعالى من قبيل إسناد الفعل إلى السبب ، لأنه لما ضرب المثل ، فضلّ به قوم ، واهتدى به قوم ، كان ذلك سببا في ضلال الناس وهداهم ، فكانت علة ضلالهم : هي الفسوق ، أي الخروج عن هداية الله تعالى في سننه في خلقه ، التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر ، وبكتابه بالنسبة إلى الذين أوتوه.

وصفات الفاسقين الذين أضلوا أنفسهم بأنفسهم كثيرة منها ما ذكرته الآية (٢٧) : نقض عهد الله من بعد توكيده : وهو وصية الله تعالى إلى خلقه ، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ، ونهيهم إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على ألسنة رسله. ونقضهم ذلك : ترك العمل به. ومنها : قطع ما أمر الله به أن يوصل : وهو الإشارة إلى دين الله وعبادته في الأرض ، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده ، فهي عامة في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل ، وهو قول الجمهور. والرحم : جزء

من هذا.

ومنها : الإفساد في الأرض : أي عبادة غير الله تعالى ، والجور في الأفعال ،

ج ١ ، ص : ١١٥

و اتّباع الشهوات ، وهذا غاية الفساد.

(١١١/١)

و الفسق موجب حتما للخسارة ، كما أن الطاعة توصل إلى الربح ، وليس المراد بالفاسقين هنا ما هو معروف شرعا وهم العصاة بما دون الكفر من المعاصي ، فإنه لا يصح هنا.

وفي الآية دليل على أن الوفاء بالعهد والتزامه وكل عهد جائز ، ألزم المرء نفسه به ، هو أمر واجب شرعا وعقلا ، فلا يحلّ له نقضه ، سواء أكان بين مسلم أم بين غيره ، لذمّ الله تعالى من نقض عهده ، وقد قال : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ [المائدة ١ / ٥] ، وقال لنبيه عليه الصلاة والسلام : وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً ، فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ [الأنفال ٨ / ٥٨] ، فنهاه عن الغدر ، وذلك لا يكون إلا بنقض العهد.

والمؤمنون المهتدون على قلتهم أجل فائدة وأكثر نفعا وأعظم آثارا من أولئك الكفار الفاسقين الضالين ، على كثرتهم. فإذا أشعرت الآية بأن المهتدين في الكثرة كالضالين ، مع أن هؤلاء أكثر ، فليس الظاهر مرادا : لأن العبرة بالكيف لا بالكم ، قال تعالى : وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ [سبأ ٣٤ / ١٣]. وقدم الله تعالى الإضلال على الهداية في قوله : يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا لأن سببه ومنشأه من الكفر متقدم في الوجود ، فكان ذلك مناسبا لحال الكفرة ، ليكون أول ما يقرع سمعهم من الجواب أمرا يفتّ في أعضادهم ، ويهزّ جنابهم ، وعبر عن ذلك بصيغة المضارع المفيدة للاستقبال إيذانا بالتجدد والاستمرار.

ج ١ ، ص : ١١٦

مظاهر قدرة الله بخلق الإنسان وإماتته وخلق الأرض والسماء [سورة البقرة (٢) : الآيات ٢٨ الى

[٢٩

(١١٢/١)

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

الإعراب :

كَيْفَ اسم استفهام ، منصوب هنا على الحال بتكفرون. جَمِيعاً نصب على الحال من الموصول الثاني : ما.

سَبَّحَ سَمَواتٍ إما منصوب على البدل من الهاء والنون في فَسَّوْهُنَّ أو منصوب على أنه مفعول « سَوَى » على تقدير : فسوى منهن سبع سماوات ، فحذف حرف الجر ، فصار فَسَّوْهُنَّ مثل قوله : وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ [الأعراف ٧ / ١٥٥] أي من قومه ، ثم حذف حرف الجر ، فاتصل الفعل : فَسَّوْهُنَّ بما بعده ، فصبه ، وأعاد الضمير بلفظ الجمع على السماء. وقال الرمخشري : الوجه العربي أن ضمير فَسَّوْهُنَّ مبهم. وكلمة ثُمَّ اسْتَوَى لا للتراخي في الوقت هنا ، وإنما لبيان ما بين الخلقين من التفاوت ، وفضل خلق السموات على خلق الأرض. وإنما كان العطف الأول بالفاء ، والبواقي بثم ، لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بلا تراخ ، وأما الموت فقد تراخى عن الحياة ، وعن الحياة الثانية. البلاغة :

كَيْفَ تَكْفُرُونَ النفات من كلام الغيبة إلى الحضور للتوبيخ والتقريع.

عَلِيمٌ من صيغ المبالغة التي وصف تعالى نفسه بها ، مثل : عالم وعلام ، ومعناه : الواسع العلم الذي أحاط علمه بجميع الأشياء. ولا يجوز وصف الله تعالى بعلامة ، التي أدخل العرب عليها الهاء للمبالغة. فَسَّوْهُنَّ أتم خلقهن مستويات ، لا تشقق فيهن ولا عوج ، فمعنى تسويتهن :

(١١٣/١)

تعديل خلقهن وتقويمه وإخلاؤه من العوج والفتور ، أو إتمام خلقهن. ثُمَّ اسْتَوَى الاستواء في اللغة : الارتفاع والعلو على الشيء ء. بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ بأحوالهن إجمالاً وتفصيلاً ، بعد أن خلق ج ١ ، ص : ١١٧

السموات خلقاً مستوياً محكماً من غير تفاوت ، وخلق ما في الأرض على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصلحتهم.

المفردات اللغوية :

كَيْفَ تَكْفُرُونَ يا أهل مكة ، مثله في قولك : « أ تكفرون بالله ومعكم ما يصرف عن الكفر ، ويدعو إلى الإيمان ؟ » والاستفهام للإنكار والتعجب من كفرهم مع قيام البرهان أو للتوبيخ.

كُنْتُمْ أَمْواتاً نطفاً في الأصلاب. فَأَحْيَاكُمْ في الأرحام والدنيا ، بنفخ الروح فيكم.

ثُمَّ يَمِيتُكُمْ عند انتهاء آجالكم. ثُمَّ يُحْيِيكُمْ بالبعث ، فيجازيكم بأعمالكم. ودخلت الواو على جملة

كُنْتُمْ أَمْواتاً إلى آخر الآية ، كأنه قيل : كيف تكفرون بالله ، وقصتكم هذه ، وحالكم أنكم كنتم أَمْواتاً ،

نظفنا في أصلاب آبائكم ، فجعلكم أحياء ، ثم يميّتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم بعد الموت ، ثم يحاسبكم.

ما في الأرض الأرض وما فيها. جميعاً لتستغفروا به وتعتبروا. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ بعد خلق الأرض : قصد وعمد إليها بإرادته تعالى ، قصدا مستويا خاصا بها. المناسبة :

بعد أن ذكر الله صفات الفاسقين وموقف الكفار من القرآن ، وجّه الخطاب إلى الكفار في هاتين الآيتين على طريق الإنكار والتعجب والتوبيخ على موقفهم وصفة كفرهم ، بذكر البراهين الداعية إلى الإيمان : وهي النعم الدالة على قدرته تعالى من مبدأ الخلق إلى منتهاه ، من إحيائهم بعد الإماتة ، ثم الإماتة والإحياء ، وخلق جميع الخيرات المكنونة في الأرض ليتمتعوا بجميع ما في ظاهرها وباطنها ، وخلق سبع سموات مزينة بمصابيح ، ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، أبعد هذا كله يكفرون بمحمد وبرسالته ؟ !

لتفسير والبيان :

(١١٤/١)

عجيب حالكم أيها الكفار ، كيف تنكرون وجود الله وقدرته مع أن الله

ج ١ ، ص : ١١٨

سبحانه أوجدكم في هذه الحياة بعد الموت ، وأتمّ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ووهبكم أفضل مقومات الحياة من العقل والحواس والمشاعر ، وأمدكم بالأرزاق التي تكفل بقاء الحياة ، ثم أماتكم عند انقضاء الأجل ، ثم يحييكم بالبعث من القبور ، ثم ترجعون إلى الله وحده للحساب والجزاء ، ليجزي كل امرئ بما قدّم ، ولتحاسب كل نفس على النعمة التي أنعم الله بها عليكم. فهاتان موتتان وحياتان ، لا تدع لكم عذرا في البقاء على الكفر ، والاستهزاء بأمثال القرآن ، وإنكار نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

قال ابن عباس وابن مسعود : أي كنتم أمواتا معدومين قبل أن تخلقوا ، فأحياكم - أي خلقكم - ثم يميّتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يحييكم يوم القيامة.

ويؤيده آية أخرى : قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ ، وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ [غافر ٤٠ / ١١]. قال ابن عطية : وهذا القول : هو المراد بالآية ، وهو الذي لا محيد للكفار عنه لإقرارهم بهما ، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين ، ثم للإحياء في الدنيا ، ثم للإماتة فيها ، قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر ، وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها « ١ » .

ثم بعد ذكر المبدأ والمنتهى ، ذكر الله تعالى برهانا على البعث ، وعلى توجيه النفوس نحو الإيمان ، فأبان أنه خلق لكم الأرض وما فيها ، لتنتفعوا بكل ما فيها ، وتعتبروا بأن الله هو الخالق الرازق ، فيكون الانتفاع إما ماديا بالاستفادة من الموجودات العينية في حال المعيشة ، وإما معنويا بالنظر والاعتبار فيما لا سلطة لأيديكم عليه ، ويتم في الحالتين غذاء الأجساد والأرواح .
ومكّن الله تعالى للإنسان الحياة في الأرض بإظلاله بالسقف المحفوظ وهو السموات السبع ، التي رفعها بقدرته ، وسوّاها محكمة البناء ، وأوجدتها بحكمته ،

(١١٥/١)

(١) تفسير القرطبي : ٢٤٩ / ١ .

ج ١ ، ص : ١١٩

و أودع فيها بدائع الكواكب والنجوم لإنارة الأرض في الليل ، وعلم سبحانه وحده حقيقتها وروائع ما فيها ، والله عالم بكل ما خلق في الأرض وفي السماء ، وذلك كله دليل القدرة الباهرة الدالة على وجود الإله الخالق ، وهو وحده ، القادرة على إعادة الخلق والحياة . فهل بعد هذا يسوّغ الكفر أو الإلحاد وإنكار وجود الله ؟ !
فقه الحياة أو الأحكام :

وصف الكفر ينطبق على كل من لم يصدّق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به ، وإن آمنوا بكتاب سماوي سابق ، لأنهم لم يقرّوا بأن القرآن من عند الله ، ومن زعم أن القرآن كلام البشر ، فقد أشرك بالله ، وصار ناقضا للعهد . وقالت المعتزلة :
آية كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ تَدَّلَّ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ مِنْ قَبْلِ الْعِبَادِ « ١ » .

والأدلة على قدرة الله ووجوده كثيرة منها ما ذكرته هذه الآية : وهو خلق الأرض وما فيها ، والسموات وما أبدع فيها ، وخلق الإنسان من العدم ، ثم إمامته ، ثم إحيائه ، ثم حسابه على ما قدم في مسيرة الحياة البشرية ، كما قال تعالى : كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ [الأنبياء ٢١ / ١٠٤] ، فإعادتهم كابتنائهم ، فهو رجوع ، فيكافأ المؤمنون بالجنان ، لإيمانهم وعملهم الصالح ، ويعذب الكفار لكفرهم .
والترتيب في قوله تعالى ثُمَّ التي تقتضي التراخي ، ليس مرادا ، وإنما المقصود من كلمة ثُمَّ ترتيب الإخبار وتعدد النعم ، فهي لا تعارض آية :
وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا [النازعات ٧٩ / ٣٠] ، لأن كلمة بَعْدَ فيها بعدية في الذكر وترتيب الإخبار ،

لا في الزمان ولا لترتيب الأمر في نفسه ، مثاله : قول الرجل لغيره : أليس قد أعطيتك النعم العظيمة ، ثم رفعت قدرك ، ثم دفعت الخصوم عنك ؟ وربما يكون بعض ما أخره متقدما حدوثه.

(١١٦/١)

(١) تفسير الرازي : ١٤٩ / ٢

ج ١ ، ص : ١٢٠

و قد يجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء ، ودحيت بعد ذلك ، فلا تعارض ، كما ذكر ابن جزي .
لكن قال ابن كثير : هذه الآية (أي ٢٩ من البقرة) دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء ، كما قال في آية السجدة [فصلت ٤١ / ٩ - ١٠] : قُلْ : أَأَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ... الآية ، فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء ، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعا بين العلماء ، إلا ما نقله ابن جرير الطبري عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض ، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لآية : وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا « ١ » [النازعات ٧٩ / ٣٠] .
ونبهت آية هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ عَلَى القدرة الإلهية المهيمنة للأرض من أجل نفع الإنسان وتحقيق مصلحته ورعاية حاجة الخلق ، وعاتب الله تعالى الكفار على جهالتهم بما في الأرض وتصريف المخلوقات « ٢ » ، كما قال تعالى :

أَأَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ، وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ، ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِي مِّنْ فَوْقِهَا ، وَبَارَكَ فِيهَا ، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ، فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيْنِ [فصلت ٤١ / ٩ - ١٠] ، فالمراد بالآية الاعتبار والاتعاظ بدليل ما قبلها وما بعدها من الإحياء والإماتة والخلق والاستواء إلى السماء وتسويتها .

ولكن وإن كان الهدف الأصلي من إيراد الآية هو ما ذكر ، فقد استدل بها علماء الأصول أيضا على أن « الأصل في الأشياء الإباحة حتى يأتي دليل الحظر » « ٣ » ، أي أن الأصل إباحة الانتفاع بكل ما خلق الله في الأرض ، حتى يأتي

)

(١١٧/١)

(١) انظر تفسير الطبري : ١ / ١٥٢ وما بعدها ، تفسير القرطبي : ١ / ٢٥٥ وما بعدها ، تفسير ابن كثير : ١ / ٦٨

(٢) أحكام القرآن لابن العربي : ١ / ١٤ ، تفسير الرازي : ٢ / ١٥٤

(٣) تفسير القرطبي : ١ / ٢٥١

ج ١ ، ص : ١٢١

دليل المنع ، فليس لمخلوق حق في تحريم شيء أباحه الله إلا بإذنه ، كما قال :
قُلْ : أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ، فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً ، قُلْ : أَلِلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ، أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ [يونس ١٠ / ٥٩].

وعلم الله واسع شامل لكل ما خلق ، وهو خالق كل شيء ، فوجب أن يكون عالماً بكل شيء ، ولا يكون هذا النظام المحكم في السموات والأرض إلا من لدن حكيم عليم بما خلق ، فلا عجب أن يرسل رسولا مؤيدين بكتاب لهداية الناس ، يضرب فيه الأمثال بما شاء من مخلوقاته ، عظم أو صغر. وآية ثُمَّ اسْتَوَىٰ وَآيَةَ الرَّحْمَنِ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ [طه ٢٠ / ٥] من مشكلات التفسير ، وللعلماء ثلاثة آراء فيها « ١ » :

الرأي الأول لكثير من الأئمة : نقرأها ونؤمن بها ولا نفسرها ، روي عن مالك رحمه الله أن رجلا سأله عن قوله تعالى : الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى فَقَالَ : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وأراك رجل سوء.
الرأي الثاني للمشبهة : نقرأها ونفسرها على ما يحتمله ظاهر اللغة وهو أن الاستواء : الارتفاع والعلو على الشيء ، أو الانتصاب.

وهذا باطل ، لأن ذلك من صفات الأجسام ، والله تعالى منزّه عن ذلك.

الرأي الثالث لبعض العلماء : نقرأها ونتأولها ونحيل حملها على ظاهرها.

ف قيل : المعنى استوى ، كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهبraq

(١) تفسير الطبري : ١ / ١٤٩ وما بعدها ، تفسير القرطبي : ١ / ٢٥٤ وما بعدها.

و قيل : استوى بمعنى ارتفع ، والمراد - والله أعلم - ارتفاع أمره.
وقيل : استوى بمعنى عمد أو قصد إليها ، أي بخلقه واختراعه ، واختاره الطبري : على دون تكيف ولا تحديد.

ودل القرآن في هذه الآية وغيرها على وجود سبع سموات وسبع أرضين ، كما قال تعالى : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ، وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ [الطلاق ٦٥ / ١٢] يعني أن السموات بعضها فوق بعض وأن الأرضين بعضها تحت بعض.
ولكن لم يرد خبر في السنة يوضح حقيقة السموات والأرضين ، فلا فائدة في بحث طبيعة السماء ، وما علينا إلا أن نؤمن بظاهر القرآن في هذا التعداد ، ونستدل به على عظمة الخالق الذي رفع السماء ، وبسط الأرض. وقد أورد الرازي في تفسيره نظريات الفلكيين أو أهل الهيئة التي يفهم منها أن السبع السموات هي الكواكب السيارة « ١ » ، غير أن العلم الحديث اكتشف وجود كواكب سياراة أخرى مثل نبتون وبلوتو وأورانوس ، غير المعروفة قديما وهي القمر ، وعطارد ، والزهرة ، والشمس ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل.
استخلاف الإنسان في الأرض وتعليمه اللغات [سورة البقرة (٢) : الآيات ٣٠ الى ٣٣]

(١١٩/١)

وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

(١) تفسير الرازي : ١٥٦ / ٢

ج ١ ، ص : ١٢٣

الإعراب :

وَإِذْ ظرف زمان ماض ، منصوب بإضمار فعل مقدر تقديره : اذكر ، ويجوز أن ينتصب بقالوا. وهو مبني لتضمنه معنى الحرف ، لأن كل ظرف لا بد فيه من تقدير حرف ، وهو « في » أو لأنه يشبه الحرف في أنه لا يفيد مع كلمة واحدة ، وهو مبني على السكون ، لأنه الأصل في البناء. وإذ للماضي ، وإذا للمستقبل ، وقد توضع إحداها موضع الأخرى. جاعِلٌ من جعل الذي له مفعولان ، دخل على المبتدأ

والخير ، وهما قوله : فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً فَكَانَا مَفْعُولِيهِ .
أَتَجْعَلُ تعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية . وَنَحْنُ للحال ، بِحَمْدِكَ الباء هنا
تسمى باء الحال ، والمعنى : نسبحك حامدين لك ، ومتلبسين بحمدك ، لأنه لو لا إنعامك علينا
بالتوفيق واللطف ، لم نتمكن من عبادتك .
عَرَضَهُمْ ولم يقل : عرضها ، لأنه أراد مسميات الأسماء ، وفيهم من يعقل ، وفيهم من لا يعقل ، فغلب
جانب العقلاء .

(١٢٠/١)

سُبْحَانَكَ الصحيح أن سبحانا وكفرانا : اسمان أقيما مقام المصدر ، وليسا بمصدرين .
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ أنت : إما مبتدأ ، والعلیم خبره ، والحكيم صفة له ، أو خبر بعد خبر ،
والجملة خبر إن ، وإما ضمير فصل لا موضع لها من الإعراب ، والعلیم خبر إن ، والحكيم صفة له ،
أو خبر بعد خبر .
البلاغة :

رَبُّكَ إضافته إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتشريف والتكريم لمقامه لِلْمَلَائِكَةِ تقديم الجار
والمجرور على المقول للاهتمام بما قدم .
أَنْبِئُونِي أريد به التعجيز والتبكي .
فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ فيه مجاز بالحذف ، والتقدير : فَأَنْبَأَهُمْ بها ، فلما أَنْبَأَهُمْ .
ثُمَّ عَرَضَهُمْ من باب التغليب للعقلاء على غير العقلاء .
ج ١ ، ص : ١٢٤
وَاعْلَمُ ما تُبْدُونَ تكرار الفعل مع ما قبله : إِنِّي أَعْلَمُ للتنبيه على إحاطة علم الله تعالى بجميع الأشياء ،
وهذا يسمى بالإطناب . تُبْدُونَ وَتَكْتُمُونَ يسمى في علم البديع بالطباق .
المفردات اللغوية :
وَإِذْ : اذكر يا محمد . رَبُّكَ الرب : المالك والسيد والمصلح والجابر .

(١٢١/١)

لِلْمَلَائِكَةِ : أجسام نورانية لا يأكلون ولا يشربون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . وهو
جمع ملك ، وأصله : ملاك وزنه مفعل . خَلِيفَةً : الخليفة : من يخلف غيره ويقوم مقامه في تنفيذ

الأحكام ، والمراد بالخليفة هنا آدم عليه السلام. يُفْسِدُ فِيهَا بِالْمَعَاصِي وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ بِرِيقِهَا بِالْقَتْلِ عدوانا ، كما فعل بنو الجان ، وكانوا فيها ، فلما أفسدوا أرسل الله عليهم الملائكة ، فطردوهم إلى الجبال والجزر. نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ نَزْهَكَ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ ، متلبسين بحمدك ، أي تقول : سبحان الله وبحمده وَتُقَدِّسُ لَكَ نَمَجْدُكَ وَنِعْظُكَ وَنَزْهَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِعِظَمَتِكَ ، فاللام زائدة ، والجملة حال ، أي فنحن أحق بالاستخلاف أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِي اسْتِخْلَافِ آدَمَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ واحداها اسم ، وهو في اللغة : ما به يعلم الشيء ، والمراد به : أسماء المسميات ، فحذف المضاف إليه ، لكونه معلوما مدلولاً عليه ، بذكر الأسماء ، لأن الاسم لا بد له من مسمى.

ثُمَّ عَرَضَهُمْ أَي عَرَضَ الْمَسْمِيَّاتِ ، وفيه تغليب العقلاء. أَنبِئُونِي أَخْبِرُونِي ، وقد يستعمل الإنباء في الإخبار بما فيه فائدة عظيمة ، وهو المراد هنا.

سُبْحَانَكَ تَقْدِيسًا وَتَنْزِيهًا لَكَ عَنِ الْإِعْتِرَاضِ عَلَيْكَ. الْعَلِيمُ الَّذِي لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، الْحَكِيمُ الْمُحْكَمُ لِمَبْتَدَعَاتِهِ ، فلا يفعل إلا ما فيه الحكمة البالغة.

المناسبة :

هذه القصة أو المحاوراة بين الله تعالى وملائكته نوع من التمثيل يبرز المعاني المعقولة بالصور المحسوسة ، تقريبا للأفهام ، وفيها بيان مدى تكريم الله للإنسان باختيار آدم خليفة عن الله في الأرض ، وتعليمه اللغات التي لا تعلمها الملائكة ، مما يوجب على الناس الإيمان بهذا الخالق الكريم ، ولا يليق بأحد الكفر والعناد ، وهو استمرار في توبيخ الكفار ، وتذكيرهم بنعم الله عليهم.

ج ١ ، ص : ١٢٥

التفسير والبيان :

(١٢٢/١)

اذكر يا محمد لقومك قصة خلق أبيهم آدم ، حين قال الله للملائكة : إني متخذ في الأرض خليفة ، يقوم بعمارتها وسكانها ، وينفذ أحكامي فيها بين الناس ، وتتعاقب الأجيال من بعده في مهامه كلها حتى يعمر الكون ، فتساءل الملائكة متعجبين ومستعلمين : كيف تستخلف هذا الخليفة ؟ وفي ذريته من يفسد في الأرض بالمعاصي ويريق الدماء بالبغي والعدوان ، لأن أفعالهم عن إرادة واختيار ، وقد خلقوا من طين ، والمادة جزء منهم ، ومن كان كذلك فهو إلى الخطأ أقرب.

فكيف تجعل - على سبيل التعجب والتعلم ، لا الاعتراض والحسد - مكان أهل الطاعة أهل المعصية ، وأنت الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير ، ولا يريد إلا الخير ؟

فإن قلت : من أين عرفوا ذلك حتى تعجبوا منه ، وإنما هو غيب ؟

قلت : عرفوه بإخبار من الله ، أو من جهة اللوح المحفوظ ، أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم هم الخلق المعصومون ، وكل خلق سواهم ليسوا على صفتهم ، أو قاسوا أحد الثقلين وهم الإنس على الآخر وهم الجن ، حيث أسكنوا الأرض ، فأفسدوا فيها قبل سكنى الملائكة « ١ » . أو أنهم عرفوا طبيعة المادة وفيها الخير والشر ، وهو ما رجحناه أولا ، ويقال : كان هناك نوع من الخلق في الأرض قبل آدم ، أفسد وسفك الدماء ، وسيحل هذا الخليفة محله ، بدليل قوله تعالى :
ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ [يونس ١٠ / ١٤] فقاس الملائكة هذا الخليفة عليه.

(١) الكشف : ٢٠٩ / ١ ، تفسير الطبري : ١٥٧ / ١

ج ١ ، ص : ١٢٦

(١٢٣/١)

و نحن الملائكة أولى بالاستخلاف ، لأن أعمالنا مقصورة على تسيحك وتقديسك وطاعتك ، فأجابهم الله تعالى : إني أعلم من المصلحة في استخلافه ما هو خفي عنكم ، وأعلم كيف تصلح الأرض ، وكيف تعمر ، ومن هو أصلح لعمارتها ، ولي حكمة في خلق الخليقة لا تعلمونها. ولعل التنافس على المصالح بين الناس وتنازع البقاء ، وحب الذات من أقوى الدواعي على تقدم الكون وتحضر العالم ، فبالخير والشر تصلح الدنيا وتعمر ، وبها تظهر حكمة إرسال الرسل ، واختبار البشر ، وجهاد النفس. وفي هذا إرشاد الملائكة أن يعلموا أن أفعاله تعالى في غاية الحكمة والكمال.

ثم عقد الرب سبحانه امتحانا للملائكة ، لإظهار عجزهم ، وإبطال زعمهم أنهم أحق بالخلافة من خليفته ، بعد أن علّم آدم أسماء الأشياء والأجناس المادية من نبات وجماد وإنسان وحيوان ، مما تعمر به الدنيا ، ثم عرض مجموعة المسميات على الملائكة ، أو عرض نماذج منها ، أي عرض الأشخاص ، لقوله تعالى :

عَرَضَهُمْ لِأَنْ الْعَرْض لَا يَصِح فِي الْأَسْمَاء ، وقال لهم : أخبروني بأسماء هؤلاء ، إن كنتم صادقين في ادعائكم أنكم أحق بالخلافة من غيركم ، فعجزوا ، وقالوا :

يا رب سبحانه ، لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم بكل شيء ، الحكيم في كل صنع. وفي هذا إشارة لتفضيل آدم على الملائكة واصطفائه ، بتعليمه ما لم تعلمه الملائكة ، فلا يكون لهم فخر عليه.

ثم قال المولى جل جلاله : أخبرهم يا آدم بأسماء الأشياء التي عجزوا عن علمها ، واعترفوا بقصورهم عن معرفتها ، فلما أخبرهم بكل أسماء تلك الأشياء ، أدركوا السر في خلافة آدم وذريته ، وأنهم لا

يصلحون للاشتغال بالماديات ، والدنيا لا تقوم إلا بها ، إذ هم خلقوا من النور ، وآدم خلق من الطين ، والمادة جزء منه.

ج ١ ، ص : ١٢٧

(١٢٤/١)

و حينئذ قال تعالى للملائكة : ألم أقل لكم : إني أعلم ما غاب في السموات والأرض عنكم ، وما حضر أيضا ، ولا أجعل الخليفة في الأرض عبثا ، وأعلم ما ظهر وما بطن ، وما تظهرون وما تكتُمون من نحو قولكم فيما روي عن ابن عباس : « لن يخلق الله خلقا أكرم عليه منا ، فنحن أحق بالخلافة في الأرض » « ١ » . هذا وجه من التأويل ، وقال الطبري : وأولى الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس : وهو أن معنى قوله : وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ . وأعلم مع علمي غيب السموات والأرض ، ما تظهرون بألسنتكم ، وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وما كنتم تخفونه في أنفسكم ، فلا يخفى علي شيء ، سواء عندي سرائركم وعلايتكم. والذي أظهروه بألسنتهم : ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوه ، وهو قولهم : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ، وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ . والذي كانوا يكتُمونه : ما كان منظوبا عليه إبليس من مخالفة أمر الله ، والتكبر عن طاعته « ٢ » .

فقه الحياة أو الأحكام :

أولا

- دلت هذه الآيات على تكريم الإنسان الذي جعله الله خليفة في هذه الأرض في تنفيذ أوامره بين الناس ، وبأيده قوله تعالى : يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ (ص ٣٨ / ٢٦) والحكمة من جعل آدم خليفة هي الرحمة بالناس ، إذ لا طاقة للعباد على تلقي الأوامر والنواهي من الله بلا واسطة ، فكان من رحمته تعالى إرسال الرسل من البشر. ومع هذا اختلف المفسرون في تأويل كلمة خَلِيفَةً وتحديد المستخلف عنه « ٣ » .

(١) تفسير ابن كثير : ٧١ / ١ ، تفسير الطبري : ١٧٧ / ١

(٢) تفسير الطبري : ١٧٦ / ١

(٣) تفسير الطبري : ١٥٦ / ١ وما بعدها ، تفسير ابن كثير : ٦٩ / ١ ، الكشف : ٢٠٩ / ١ ،

القرطبي :

٢٦٣ / ١ ، تفسير الرازي : ١٦٥ / ٢ وما بعدها. [.....]

ج ١ ، ص : ١٢٨

فقال ابن عباس : أول من سكن الأرض الجن ، فأفسدوا فيها ، وسفكوا فيها الدماء ، وقتل بعضهم بعضا ، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة ، فقتلهم إبليس ومن معه ، حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، ثم خلق آدم ، فأسكنه إياها ، فلذلك قال : إني جاعل في الأرض خليفة . فعلى هذا القول : إني جاعل في الأرض خليفة عن الجن ، يخلفونهم فيها ، فيسكنونها ويعمرونها ، وليس آدم أول أصناف العقلاء في الأرض .

وقال الحسن البصري : في تأويل قوله : إني جاعل في الأرض خليفة أي خلفا يخلف بعضهم بعضا ، وهم ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم ، ويخلف كل قرن منهم القرن الذي سلف قبله ، جيلا بعد جيل ، كما قال تعالى : وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ [الأنعام ٦ / ١٦٥] وقال : وَيَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ [النمل ٢١ / ٦٢] وقال : وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ [الزخرف ٤٣ / ٦٠] وقال : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ [الأعراف ٧ / ١٦٩] .

ومن هو الخليفة ؟ قيل : أريد بالخليفة آدم ، واستغنى بذكره عن ذكر بنيه ، كما يستغنى بذكر أبي القبيلة في قولك : مضر وهاشم .

وقال زيد بن علي : ليس المراد هاهنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط ، كما يقوله طائفة من المفسرين . قال ابن كثير : والظاهر أنه لم يرد آدم عينا ، إذ لو كان ذلك ، لما حسن قول الملائكة : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ فَإِنَّهُمْ أَرَادُوا : أن من هذا الجنس من يفعل ذلك ، وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية المخلوقة من صلصال من حمأ مسنون ، أو فهموا من الخليفة : أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ، ويردعهم عن المحارم والمآثم ، أو أنهم قاسوهم على من سبق .

والخلاصة : هناك قولان في المراد بالخليفة :

ج ١ ، ص : ١٢٩

أحدهما - أنه آدم عليه السلام ، وقوله : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا المراد ذريته لا هو . والثاني - أنه ولد آدم .

ثم إن هذه الآية أصل في نصب إمام حاكم ، وخليفة يسمع له ويطاع ، لتجتمع به الكلمة ، وتنفذ به أحكام الخليفة . ولا خلاف بين العلماء في وجوب ذلك ، إلا ما روي عن أبي بكر الأصم من المعتزلة

أنه قال : الإمامة غير واجبة في الدين ، بل يسوغ ذلك ، وأن الأمة متى أقاموا حجهم وجهادهم ، وتنصفوا فيما بينهم ، وبذلوا الحق من أنفسهم ، وقسموا الغنائم والفبيء والصدقات على أهلها ، وأقاموا الحدود على من وجبت عليه ، أجزأهم ذلك ، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماما يتولى ذلك. وأدلة الجمهور : قول الله تعالى : إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً وقوله تعالى : يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ [ص ٣٨ / ٢٦] وقوله عز وجل : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ [النور ٢٤ / ٥٥] أي يجعل منهم خلفاء.

وأجمعت الصحابة على تقديم أبي بكر الصديق ، بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في تعيين الخليفة « ١ » .

وطرق تعيين الإمام ثلاث « ٢ » :

١- النص على الخليفة : كما نص النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر بالإشارة ، وأبو بكر على عمر.

(١) تفسير القرطبي : ١ / ٢٦٤

(٢) المرجع السابق : ١ / ٢٦٨

ج ١ ، ص : ١٣٠

٢- الانتخاب بواسطة جماعة : كما فعل عمر ، ويكون التخيير إليهم في تعيين واحد منهم ، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في تعيين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٣- إجماع أهل الحل والعقد.

ثانيا

(١٢٧/١)

- الجمهور الأعظم من علماء الدين اتفقوا على عصمة كل الملائكة عن جميع الذنوب « ١ » . وفي إخبار الله الملائكة بخلق آدم واستخلافه في الأرض تعليم لعباده المشاورة في أمورهم. وقول الملائكة : أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْعَارِضِ أَوْ الْحَسَدِ لِبَنِي آدَمَ ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف الحكمة في ذلك.

ثالثا

- استدلل الأشعري والجبائي والكعبي بآية وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا على أن اللغات كلها توقيفية ، بمعنى

أن الله تعالى خلق علما ضروريا بتلك الألفاظ وتلك المعاني ، وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني
« ٢ » .

رابعاً

– آية تعليم آدم الأجناس التي خلقها الله ، وألهمه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها وأسمائها ، إما في
آن واحد أو آنات متعددة ، هذه الآية دالة على فضل العلم ، فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في
خلقه آدم عليه السلام ، إلا بأن أظهر علمه ، فلو كان في الإمكان وجود شيء أشرف من العلم ، لكان
من الواجب إظهار فضله بذلك الشيء ، لا بالعلم « ٣ » .
وكانت الحكمة في التعليم والعرض على الملائكة تشريف آدم واصطفاءه ، كيلا يكون للملائكة مفخرة
عليه بعلومهم ومعارفهم ، وإظهار الأسرار والعلوم

(١) تفسير الرازي : ١٦٦ / ٢

(٢) تفسير الرازي : ١٧٥ / ١

(٣) المصدر السابق : ١٧٨ / ١

ج ١ ، ص : ١٣١

المكنونة في غيب علمه تعالى على لسان من يشاء من عباده « ١ » .

خامساً

– أرشدت آية إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ إلى أن الدعاوي لا يؤبه بها إلا بإثباتها بالدليل ، وأن المدعي لشيء
يطلب بالحجة والبرهان تأييداً لما ادّعى.

سادساً

– في قوله : « هؤلاء » إشارة إلى أنه سمى الأشياء التي وقع عليها الحس ، كالطيور والبهائم وأنواع
الحيوان التي أمامه.

سابعاً

(١٢٨/١)

– دل قول الملائكة : قَالُوا : سُبْحَانَكَ الْآيَةِ ، على قصور علم المخلوقات أمام علم الخالق ، وأن فعل
الخالق لا يخلو من الحكمة والفائدة ، وأن علم الملائكة محدود لا يتناول جميع الأشياء . والواجب
على من سئل عن علم لم يعرفه أن يقول : الله أعلم لا أدري ، اقتداءً بالملائكة والأنبياء وفضلاء
العلماء.

- في آيات إخبار آدم بأسماء المسميات دلالة واضحة على شرف الإنسان وتفضيله على غيره من المخلوقات ، وعلى فضل العلم على العبادة ، فإن الملائكة أكثر عبادة من آدم ، ولم يكونوا أهلا لاستحقاق الخلافة ، وعلى أن شرط الخلافة العلم ، وعلى أفضلية آدم على الملائكة.

تاسعا

- إن استخلاف الملائكة الذين لا يحتاجون إلى شيء من الأرض لا يحقق حكمة استخلاف البشر في التعرف على أسرار الكون ، وعمارة الأرض ، واستخراج ما فيها من خيرات وزروع ومعادن ، ولا يؤدي إلى تقدم العلوم والفنون التي شهدنا تفوقها في القرن العشرين.

(١) تفسير المراغي : ٨٣ / ١

ج ١ ، ص : ١٣٢

التكريم الإلهي السامي لآدم بسجود الملائكة له [سورة البقرة (٢) : آية ٣٤]
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)
الإعراب :

« آدم » ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والعجمة إِلَّا إِبْلِيسَ استثناء متصل عند الجمهور ، لأنه كان جنيا واحدا بين ألوف الملائكة مغمورا بهم ، فغلبوا عليه في قوله : فَسَجَدُوا ثم استثني منهم استثناء واحد. ويجوز أن يجعل استثناء منقطعا لأنه لم يكن من الملائكة.
البلاغة :

(١٢٩/١)

وَإِذْ قُلْنَا لِلْعَظِيمِ بِصِغَةِ الْجَمْعِ ، وهي معطوفة على قوله : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ وفيه التفات من الغائب إلى المتكلم لإظهار المهابة والجلالة. فَسَجَدُوا فيه إيجاز بالحذف أي فسجدوا له. ومثله أبا مفعوله محذوف أي أبا السجود.
المفردات اللغوية :

اسْجُدُوا السجود في اللغة : الخضوع والانحناء لمن يسجد له ، وفي الشرع : وضع الجبهة على الأرض. والسجود لله تعالى على سبيل العبادة ، ولغيره على وجه التكريم والتحية ، كما سجدت الملائكة لآدم ، وأبو يوسف وإخوته له ، فكان تحية للملوك قديما ، ويجوز أن تختلف الأحوال والأوقات فيه. إِبْلِيسَ الشيطان أبو الجن ، كان بين الملائكة. قال تعالى : كَانَ مِنَ الْجِنِّ ، فَفَسَقَ عَنْ

أَمَرَ رَبُّهُ [الكهف ١٨ / ٥٠]. أَمَرُ امْتَنَعَ مِنَ السَّجُودِ. وَاسْتَكْبَرَ تَكَبَّرَ عَنْهُ ، وَقَالَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ [الأعراف ٧ / ١٢]. وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ فِي عِلْمِ اللَّهِ ، مِنْ جِنْسِ كَفَرَةِ الْجِنِّ وَشَيَاطِينِهِمْ ، فَلِذَلِكَ أَمَرُ وَاسْتَكْبَرَ .

المناسبة :

هذا نوع آخر من تكريم الله لأبينا آدم أبي البشر ، حيث أمر الملائكة

ج ١ ، ص : ١٣٣

بالسجود له ، كما أنه خصه بالخلافة في الأرض ، وعلمه أسماء الأشياء والأجناس واللغات ، مما يدل على تكريم النوع الإنساني بتكريم الأصل أو الأب .

التفسير والبيان :

واذكر أيضا يا محمد لقومك حين قلنا للملائكة الأطهار : اسجدوا لآدم سجود خضوع وتحية وتعظيم ، لا سجود عبادة وتألّيه ، كما يفعل الكفار مع أصنامهم ، فسجد الملائكة جميعا له غير إبليس ، فإنه امتنع من السجود واستكبر عنه ، قائلا : أَسْجُدْ لَهُ ، وَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ ، وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ، فَصَارَ بِإِبَائِهِ وَاسْتِكْبَارِهِ وَتَعَالِيهِ وَغُرُورِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ ، فَاسْتَحَقَّ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، لِعَصْيَانِهِ أَمْرَ رَبِّهِ ، وَرَفْضِهِ السَّجُودَ لآدَمَ .

فقه الحياة أو الأحكام :

(١٣٠/١)

تتجلى العبرة من هذه القصة بأن آدم وذريته لا يليق بهم عصيان أوامر الله ، وإنما يجب عليهم عبادته وحده ، دون تلكؤ ولا تقصير ، لأنّ الله سبحانه كرم ابن آدم في قوله : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ [الإسراء ١٧ / ٧٠] وجعل آدم خليفة في الأرض ، وعلمه ما لم يكن يعلم : وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا وَقَالَ الطبري : إن الله تعالى أراد بقصة إبليس تقريع أشباهه من بني آدم ، وهم اليهود الذين كفروا بمحمد عليه السلام مع علمهم بنبوته ، ومع قدم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم « ١ » .

والملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بالناس لا نعرف حقيقته ، بل نؤمن بما ورد فيه ، دون بحث عن الكيفية والحال والمآل .

والسجود نوعان : سجود عبادة وتألّيه وهو لله وحده ، وله مظهران : إما وضع الجبهة على الأرض وهو المعتاد في الصلاة ، وإما الانقياد والخضوع لمقتضى

(١) تفسير الطبري : ١ / ١٨٠ وما بعدها .

ج ١ ، ص : ١٣٤

إرادته ، كما قال : وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ [الرحمن ٥٥ / ٦] وقال : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا [الرعد ١٣ / ١٥] . وهذا بمظهره لا يكون لغير الله إطلاقاً.

والنوع الثاني : سجود تحية وتكريم من غير تأليه ، كسجود الملائكة لآدم ، وسجود يعقوب وأولاده ليوسف . وهذا في رأي أكثر العلماء كان مباحاً إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و أن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أولى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد ، فقال لهم : « لا ينبغي أن يسجد لأحد إلا لله رب العالمين »

و

نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن السجود للبشر ، وأمر بالمصافحة ، في حديث رواه ابن ماجه في سننه والبستي في صحيحة عن أبي واقد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه « ١ » .

(١٣١/١)

و الخلاصة : اتفقت الأمة على أن السجود لآدم لم يكن سجود عبادة ولا تعظيم ، وإنما كان على أحد وجهين : إما الانحناء والتحية وإما اتخاذه قبلة كالاتجاه للكعبة وبيت المقدس وهو الأقوى في رأي ابن العربي ، لقوله تعالى :

فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ « ٢ » .

وأما حقيقة إبليس : فللعلماء فيها رأيان :

الأول : أنه من الجن ، والجن سبط من الملائكة ، خلقوا من نار ، وإبليس منهم . ودليله واضح من قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ، فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ [الكهف ١٨ / ٥٠] .

والثاني - أنه كان من الملائكة : لأن خطاب السجود كان للملائكة ، ولأن

(١) تفسير القرطبي : ٢٩٣ / ١

(٢) أحكام القرآن : ١٦ / ١

ج ١ ، ص : ١٣٥

الظاهر من هذه الآية وأمثالها أنه منهم ، قال ابن عباس : كان إبليس من الملائكة ، فلما عصى الله ، غضب عليه ، فلعله ، فصار شيطانا « ١ » . قال البغوي :

وهو الأصح ، لأن خطاب السجود كان مع الملائكة . وقوله : كَانَ مِنَ الْجِنِّ أي من الملائكة الذين هم

خزنة الجنة. وقال سعيد بن جبير : من الذين يعملون في الجنة. وقال قوم : من الملائكة الذين كانوا يصوغون حلي أهل الجنة « ٢ » .

والراجح لدي هو القول الأول لصريح آية كانَ مِنَ الْجِنَّ لِأَنَّ إبليس قد عصى أمر ربه ، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم.

ويستدل من قصة الإباء عن السجود أن الامتناع عن تنفيذ أوامر الله والاستكبار والغرور مسبب للكفر ، لأنه لما كره إبليس السجود في حقه ، واستعظمه في حق آدم ، فكان ترك السجود لآدم تسفيهاً لأمر الله وحكمته ، فصار من الكافرين.

(١٣٢/١)

و اختلف ، هل كان قبل إبليس كافر أو لا ؟ ف قيل : لا ، وإن إبليس أول من كفر ، وقيل : كان قبله قوم كفار وهم الجن الذين كانوا في الأرض. واختلف أيضا : هل كفر إبليس جهلا أو عنادا ؟ على قولين بين أهل السنة ، ولا خلاف أنه كان عالما بالله تعالى قبل كفره. فمن قال : إنه كفر جهلا قال : إنه سلب العلم عند كفره. ومن قال : كفر عنادا قال : كفر ومعه علمه « ٣ » . واستنبط علماء المالكية من هذه القصة ومن علم الله بكفر إبليس سابقا : أن من أظهر الله تعالى على يديه ممن ليس بنبي كرامات وخوارق للعادات ، ليس

(١) تفسير القرطبي : ٢٩٤ / ١

(٢) معالم التنزيل بهامش تفسير البغوي : ٤١ / ١

(٣) تفسير القرطبي : ٢٩٨ / ١

ج ١ ، ص : ١٣٦

ذلك دالا على ولايته ، لأن العلم بأن الواحد منا وليّ لله تعالى لا يصح إلا بعد العلم بأنه يموت مؤمنا ، وإذا لم يعلم أنه يموت مؤمنا ، لم يمكننا أن نقطع أنه ولي الله تعالى ، لأن الولي لله تعالى : من علم الله تعالى أنه لا يوافي إلا بالإيمان « ١ » .

آدم وحواء في الجنة وموقف الشيطان منهما [سورة البقرة (٢) : الآيات ٣٥ الى ٣٩]

(١٣٣/١)

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ
فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
(٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
(٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)
الإعراب :

أَنْتَ تأكيد للضمير المستتر ليعطف عليه. رَغَدًا منصوب لأنه صفة مصدر محذوف ، تقديره أكلا رغدا
، أو منصوب على الحال. فَتَكُونَا حذف النون إما للنصب بتقدير « أن » لأنه جواب النهي ، أو يكون
حذفها للجزم بالعطف على وَلَا تَقْرَبَا.

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ آدَمُ : فاعل ، وكلمات : مفعول به.
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ : جملة اسمية في موضع نصب على الحال من الضمير في اهْبِطُوا

(١) المصدر السابق : ٢٩٧ / ١

ج ١ ، ص : ١٣٧

على تقدير حذف الواو ، أي قلنا : اهبطوا وبعضكم لبعض عدو. ويجوز أن تكون جملة مستأنفة لا
محل لها من الإعراب.

فِيمَا .. أصلها « إن » الشرطية زيدت عليها « ما » للتأكيد ، وتسمى المسلطة ، لأنها سلطت نون
التوكيد على الفعل بعدها. فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ من : شرطية مبنية لأنها تضمنت معنى الشرط ، في محل رفع
مبتدأ ، وَتَبَعَ خبره ، وهو في موضع جزم « بمن » الشرطية.

(١٣٤/١)

و هُدَايَ مفعول به. وكرر قوله : قُلْنَا اهْبِطُوا للتأكيد ، ولما نيط به من زيادة قوله :
فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى. والأمر بالهبوط من الجنة إلى الأرض موجه لآدم وحواء ، والمراد هما وذريتهما
، لأنهما لما كانا أصل الإنس جعلتا كأنهما الإنس كلهم.
هُم فِيهَا خَالِدُونَ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من « أصحاب أو النار » لعود الضميرين
إليهما. وذهب قوم إلى أنه لا يجوز أن يكون حالا من النار ، لأن الحال لا تقع حالا من المضاف إليه ،
وأجازه الآخرون ، لأن لام الملك مقدرة مع المضاف إليه.
البلاغة :

وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ أَيُّ الْأَكْلِ مِنْ ثَمَارِهَا ، فِيهِ تَعْلِيْقُ النَّهْيِ بِالْقُرْبِ مِنْهَا لِقَصْدِ الْمَبَالِغَةِ فِي النَّهْيِ عَنِ الْأَكْلِ .

مِمَّا كَانَ فِيهِ إِبْهَامٌ يَفِيدُ كَثْرَةَ الْخَيْرَاتِ الَّتِي لَا تُوصَفُ فِي الْجَنَّةِ .
التَّوَابُ الرَّحِيمُ مِنْ صِيغِ الْمَبَالِغَةِ ، أَيُّ قَابِلِ التَّوْبَةِ بِكَثْرَةٍ ، وَاسِعِ الرَّحْمَةِ .
المفردات اللغوية :

رَغَدًا أَكَلًا وَاسِعًا طَبِيبًا هَنِئًا لَا عَنَاءَ فِيهِ وَلَا حَجَرَ عَلَيْهِ . هَذِهِ الشَّجَرَةُ أَيُّ بِالْأَكْلِ مِنْهَا ، وَهِيَ الْحَنْطَةُ أَوْ الْكُرُومُ أَوْ غَيْرُهُمَا فَتَكُونُ فَتَصِيرُ مِنَ الظَّالِمِينَ الْعَاصِينَ .
فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ أَوْقَعَهُمَا فِي الْمَخَالَفَةِ مِنَ الزَّلَّةِ وَهِيَ السَّقُوطُ اهْبِطُوا انْزَلُوا مُسْتَقَرًّا مَوْضِعَ اسْتِقْرَارٍ .
وَمَتَاعٌ مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَاللِّبَاسِ وَنَحْوِهَا .
فَتَلَقَّى أَخَذَ وَقَبْلَ وَأَلْهِمَ فَتَابَ التَّوْبَةَ : الرَّجُوعُ ، فَإِذَا عَدَّيْتُ بَعْنُ كَانَ مَعْنَاهَا الرَّجُوعُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَإِذَا عَدَيْتُ بَعْلَى ، كَانَ مَعْنَاهَا قَبُولُ التَّوْبَةِ .
فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ آمَنَ بِي وَعَمِلَ بِطَاعَتِي وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ فِي الْآخِرَةِ بَأَنٍ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ .

ج ١ ، ص : ١٣٨

بِآيَاتِنَا كَتَبْنَا . أَصْحَابُ النَّارِ أَهْلُهَا . خَالِدُونَ مَلَازِمُونَ لَهَا ، مَا كُنْتُمْ فِيهَا أَبَدًا ، لَا يَفْنَوْنَ وَلَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا .
المناسبة :

(١٣٥/١)

تستمر الآيات في بيان أنواع التكريم الإلهي للإنسان ، وهذا التكريم هنا هو المقام في الجنة في بدء الخليقة ، ولكن اقتضت الحكمة الإلهية إقامته في الأرض ، وتكليفه القيام برسالة مهمة هي تعمير الكون ، وإظهار مزية الإنسان في مجاهدة الشيطان وأهوائه .
وقد سبقت هذه القصة تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم عما يلاقي من الإنكار ، ليعلم أن المعصية من شأن البشر ، وأنهم إذا كلفوا بشيء بالرغم من تكريمهم غاية الإكرام قد لا يمتثلون .
التفسير والبيان :

واذكر يا محمد لقومك أن الله تعالى أمر آدم وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بما فيها حيث شاءا ، والأكل منهما أكلا هنيئا لا عناء فيه ، أو واسعا لا حذله ، ونهاهما عن الأكل من شجرة معينة ، فلاأكل منها ظلم لأنفسهما ، ولكن الشيطان عدوهما أزلهما عنها ، فأخرجهما من ذلك النعيم ، بعد أن أغواهما بالأكل من الشجرة . أو أبعدهما وحولهما من الجنة ، قائلا : مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ [الأعراف ٧ / ٢٠ -

٢١] فتغلبت عليهما وساوس الشيطان ، وخرجا من الجنة إلى الأرض ، وشقاء الدنيا ، وقد نشأت
العداوة بين البشر والشيطان ، فإبليس عدو لآدم وزوجه حواء ولذريتهما ، والبشر أعداء له ، فاحذروا
إغواءه : إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [فاطر
٣٥ / ٦] فألهم الله آدم كلمات ، فعمل بها هو وزوجته وتابا توبة
ج ١ ، ص : ١٣٩

(١٣٦/١)

خالصة ، والكلمات هي قوله تعالى : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا ، لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ
[الأعراف ٧ / ٢٣] وتقبل الله التوبة ، لأنه كثير القبول للتوبة ، واسع الرحمة بالعباد ، وأصبح الناس
في الأرض صنفين : صنف المؤمنين بالله العاملين بطاعته ، فهؤلاء آمنون في جنان الله في الآخرة ،
وصنف الكافرين المكذبين بما أنزل الله في كتبه ، والجاحدين لرسالات الأنبياء ، فهؤلاء مخلدون في
نار جهنم.
فقه الحياة أو الأحكام :

تغير هذه الآيات مشكلات عديدة هي ما يأتي :
أولاً- زوجة آدم في قوله تعالى : اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ : أثار المفسرون كيفية خلق حواء ، فقالوا :
إنها خلقت من ضلع آدم ، أخذا بظاهر قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا [النساء ٤ / ١] وقوله : هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَجَعَلَ مِنْهَا
زَوْجَهَا ، لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا [الأعراف ٧ / ١٨٩] ، وعملا
بحديث أبي هريرة في الصحيحين أن النبي صَلَّى الله عليه وسلم قال : « و استوصوا بالنساء خيرا ،
فإنهن خلقن من ضلع أعوج »

و

في رواية لمسلم : « إن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، لن تستقيم لك
على طريقة واحدة ، فإن استمتعت بها ، استمتعت بها ، وبها عوج ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها ،
وكسرها طلاقها »

قال العلماء : ولهذا كانت المرأة عوجاء ، لأنها خلقت من أعوج ، وهو الضلع « ١ » .
وأجيب عن الآيتين « ٢ » : بأن كثيرا من المفسرين كالرازي قالوا : إن المراد بقوله « منها » أي من
جنسها ، ليوافق قوله في سورة [الروم ٣٠ / ٢١] :

(١) تفسير القرطبي : ٣٠١ / ١ [.....]

(٢) تفسير المراغي : ٩٣ / ١

ج ١ ، ص : ١٤٠

(١٣٧/١)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً والمراد أنه خلق أزواجا من جنسكم ، لا أنه خلق كل زوجة من بدن زوجها.
وأما الحديث فجاء على طريق تمثيل حال المرأة واعوجاج أخلاقها ، باعوجاج الضلوع ، فهو على حدّ قوله تعالى : خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ [الأنبياء ٢١ / ٣٧].
هذا وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة. ونقل عن السدي : إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة.

ثانيا- الجنة : وهي في اللغة البستان. اختلف العلماء في الجنة التي أسكنها آدم ، هي في السماء أم في الأرض « ١ » ؟ قال الأكثرون : إنها التي في السماء ، وهي دار الخلد والثواب التي أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة ، لسبق ذكرها في السورة.

وقالت المعتزلة والقدرية : إنها جنة في الأرض غير جنة الخلد ، خلقها الله تعالى امتحانا لآدم عليه السلام ، في أرض عدن ، أو بفلسطين ، أو بين فارس وكرمان. وهو رأي أبي حنيفة وأبي منصور الماتريدي ومذهب السلف. ودليلهم أنها لو كانت جنة الخلد ، لما وصل إليها إبليس ، فإن الله يقول : لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيُمُ [الطور ٥٢ / ٢٣] ، وقال : لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا [النبا ٧٨ / ٣٥] ، وقال : لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيُمَا إِلَّا قِيَلًا سَلَامًا [الواقعة ٥٦ / ٢٥ - ٢٦] ، وأنه لا يخرج منها أهلها لقوله تعالى : وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ [الحجر ١٥ / ٤٨] ، وأيضا فإن جنة الخلد هي دار القدس ، قدست عن الخطايا والمعاصي تطهيرا لها ، قد لغا فيها إبليس وكذب ، وأخرج منها آدم وحواء

(١) تفسير القرطبي : ٣٠٢ / ١ ، تفسير ابن كثير : ٧٨ / ١ ، تفسير الألوسي : ٢٣٣ / ١ ، البداية

والنهاية لابن كثير : ٧٥ / ١ وما بعدها.

(١٣٨/١)

ج ١ ، ص : ١٤١

بمعصيتهما. وكيف يطلب آدم ، مع مكانه من الله وكمال عقله ، شجرة الخلد ، وهو في دار الخلد والملك الذي لا يبلى. ورجح الألوسي هذا الرأي.

ورد القرطبي على هذه الأدلة : بأن الجنة المعرفة بالألف واللام لا يفهم غيرها في تعارف الناس ، ولا يستحيل في العقل دخول إبليس الجنة لتغير آدم. وأما أوصاف الجنة المذكورة في الآيات التي احتجوا بها ، فهي بعد دخول أهلها فيها يوم القيامة. ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها ، وقد يخرج منها من قضى عليه بالفناء. والملائكة يدخلونها ويخرجون منها ، وقد دخلها النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء ثم خرج منها ، ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصي. وأجمع أهل السنة على أن جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم عليه السلام.

وكيف يجوز على آدم ، وهو في كمال عقله ، أن يطلب شجرة الخلد ، وهو في دار الفناء ؟ ! الأمر جائز تطلعا إلى الأفضل والأكمل ، كما نتطلع الآن في الدنيا إلى الخلود في الجنة. ثالثا- الشجرة : اختلف العلماء في تعيين الشجرة التي نهى عنها آدم فأكل منها « ١ » . فقال جماعة : هي الكرم ، ولذا حرمت علينا الخمر ، وقال آخرون :

هي السنبلة ، وقيل : هي شجرة التين. والصواب كما قال القرطبي : أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة ، فخالف هو إليها ، وعصى في الأكل منها.

واختلفوا أيضا كيف أكل منها مع الوعيد المقترن بالقرب ، وهو قوله تعالى : فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ [البقرة ٢ / ٣٥] ، فقال قوم : أكلا من غير التي أشير إليها ، فلم يتأولا النهي واقعا على جميع جنسها ، كأن إبليس غره بالأخذ بالظاهر ، أي أنهما ظنا أن المراد عين شجرة مخصوصة ، وكان المراد الجنس. وهو

)

(١٣٩/١)

(١) تفسير القرطبي : ١ / ٣٠٥ وما بعدها ، أحكام القرآن لابن العربي : ١ / ١٧ وما بعدها ، تفسير

الطبري : ١ / ١٨٥

ج ١ ، ص : ١٤٢

قول حسن كما قال القرطبي ورجحه الطبري قبله.

ويقال : إن أول من أكل من الشجرة حواء ، ياغواء إبليس إياها .
 رابعا- عصيان آدم ثم توبته : قال جمهور الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي : الأنبياء معصومون من صغائر الذنوب وكبائرها معا ، لأننا أمرنا باتباعهم في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمرا مطلقا من غير التزام قرينة ، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم « ١ » .
 وبناء عليه ، أجيب عن خطيئة آدم التي كانت من الصغائر لا من الكبائر ، بأنها صدرت منه قبل النبوة ، والعصمة عن المخالفة إنما تكون بعد النبوة .
 أو بأن الذي وقع منه كان نسيانا ، فسمي عصيانا تعظيما لأمره ، والنسيان والسهو لا ينافيان العصمة ، أو أن ذلك- على طريقة السلف- من المتشابه كسائر ما ورد في القصة ، مما لا يمكن حمله على ظاهره « ٢ » . والراجح لدي أن هذه المخالفة وقعت نسيانا وسهوا ، كما قال جل وعز : فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً [طه ٢٠ / ١١٥] .

وتوبة آدم كانت بقوله تعالى : رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [الأعراف ٢٣ / ٧] ، وهذا هو المروي عن ابن عباس . وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه : إِنَّ أَحَبَّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَا قَالَهُ أَبُونَا آدَمُ حِينَ اقْتَرَفَ الْخَطِيئَةَ : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ظَلَمْتَ نَفْسِي ، فَاعْفُ رَحْمَةً لِي ، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذَّنْبَ إِلَّا أَنْتَ » .

-
- (١) تفسير القرطبي : ٣٠٨ / ١ ، تفسير الرازي : ٧ / ٣
 (٢) تفسير الكشاف : ٢١٢ / ١ ، تفسير الرازي : ٧ / ٣ ، تفسير المراغي : ٩٤ / ١ ، تفسير المنار : ٢٨١ / ١

(١٤٠/١)

ج ١ ، ص : ١٤٣
 و اكتفى القرآن بذكر توبة آدم دون توبة حواء ، لأنها كانت تبعا له ، كما طوي ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة لذلك . وقد ذكرها في آية أخرى :
 قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا الْآيَةَ السَّابِقَةَ « ١ » .
 ولا تكون التوبة مقبولة من الإنسان إلا بأربعة أمور : الندم على ما كان ، وترك الذنب الآن ، والعزم على ألا يعود إليه في مستأنف الزمان ، وردّ مظالم العباد وإرضاء الخصم بإبصال حقه إليه والاعتذار إليه باللسان « ٢ » .

خامسا- دخول إبليس الجنة : تساءل العلماء : كيف تمكّن إبليس من وسوسة آدم بعد أن طرده الله من الجنة بقوله : فَأَخْرَجَ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ [ص ٣٨ / ٧٧] ، فكان خارج الجنة ، وآدم في الجنة ؟ وأجيب بأجوبة ، منها : أنه يجوز أن يمنع إبليس دخول الجنة على جهة التكريم ، كدخول الملائكة ، ولا يمنع أن يدخل على جهة الوسوسة ، ابتلاء لآدم وحواء. وقالت طائفة : إن إبليس لم يدخل الجنة ولم يصل إلى آدم بعد ما أخرج منها ، وإنما بوسواسه الذي أعطاه الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » .

سادسا- في قوله تعالى : فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى [البقرة ٢ / ٣٥] : إشارة إلى أن أفعال العباد مخلوقة من الله تعالى ، خلافا للقدرية وغيرهم القائلين : إن العبد يخلق أفعال نفسه. ودلت الآية (٣٨) على أن من جاءه الهدى على لسان رسول واتبعه ، فقد فاز بالنجاة في الآخرة ، ودلت الآية (٣٩) على أن الذين لم يتبعوا هدى الله- وهم الذين كفروا بآيات الله اعتقادا وكذبوا بها لسانا- جزاؤهم الخلود في نار جهنم بسبب جحودهم بها ، وإنكارهم إياها ، اتباعا لوسوسة الشيطان. « ٣ »

(١) تفسير الكشاف : ٢١١ / ١

(٢) تفسير الرازي : ٢٠ / ٣ ، تفسير المراغي : ٩٢ / ١

)

(١٤١/١)

(٣) الكشاف : ٢١١ / ١ ، القرطبي : ٣١٣ / ١ ، الرازي : ١٥ / ٣

ج ١ ، ص : ١٤٤

سابعا- الملائكة : الملائكة خلق من خلق الله تعالى ، لا نعلم حقيقتهم ، واعتقاد وجودهم واجب شرعا ، لإخبار القرآن والتبلي صلى الله عليه وسلم بذلك. وهم مجبولون على الطاعة ، منزهون عن المعصية ، وهل هم أفضل من البشر ؟

اختلف العلماء في شأنهم ، فرأى بعضهم أنهم أفضل من البشر ، لقوله تعالى : قَالَ : مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ [الأعراف ٧ / ٢٠] ، وقوله تعالى عن صواحب يوسف : وَقُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ ، مَا هَذَا بَشَرًا ، إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ [يوسف ٣١ / ١٢] .

ورأى بعضهم أن النوع الآدمي أفضل من الملائكة ، لأن الملائكة مجبولون على الطاعة ، والبشر فيهم نزعة الشر والخير ، والآدمي يجاهد شهواته وميوله.

وقال جماعة : إن عموم الملائكة أفضل من عموم البشر ، وخواص البشر وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة.

وفي رأيي : أن التوقف عن الخوض في ذلك أولى ، وإن كنت أرجح تفضيل الملائكة على البشر. قصة آدم عليه السلام

تكرر اسم آدم عليه السلام في القرآن الكريم خمسا وعشرين مرة ، فتحدثت عنه سورة البقرة في الآيات (٣١-٣٧) ، وآل عمران في الآيتين (٣٣ ، ٥٩) ، والمائدة في الآية (٢٧) ، والأعراف في الآيات (١١-١٧) ، والإسراء في الآيتين (٦١ ، ٧٠) ، والكهف في الآية (٥٠) ، ومريم في الآية (٥٨) ، وطه في الآيات (١١٥-١٢٠) ، ويس في الآية (٦٠). وتنوّع التعبير عن القصة ، مرة باسمه وصفته ، كما في السّور : البقرة والأعراف والإسراء والكهف ، ومرة بصفته فقط ، كما في سورتي الحجر ووص ، مما يدل على إعجاز القرآن الكريم.

ج ١ ، ص : ١٤٥

و في هذه القصة موضوعات ستة « ١ » .

(١٤٢/١)

الأول- خلق آدم من طين : أبان القرآن الكريم أن أصل خلق آدم عليه السلام كان من طين ، من حمأ مسنون- متغير- حتى إذا أصبح صلصالا كالفخار ، نفخ الله فيه من روحه ، فإذا هو إنسان متحرك ، ذو قدرات مادية وعقلية ومعنوية- أخلاقية ، وكان آدم وحواء أصل النوع الإنساني كما أخبر القرآن ، وقد أثبت العلماء زيف نظرية « دارون » التي تجعل القرد أصلا وأبا للإنسان.

الثاني- السجود لآدم : أمر الله تعالى إبليس والملائكة بالسجود لآدم سجود تكريم لا سجود عبادة ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس كان من الجنّ ، ففسق عن أمر ربه ، وأبى واستكبر.

الثالث- سبب مخالفة إبليس وعقابه : احتجّ إبليس بأنه أفضل من آدم ، وقال : أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين ، والنار باعتبار ما فيها من الارتفاع والعلو أشرف من الطين الذي هو عنصر ركود وخمود ، فطرده الله من الجنة بسبب الكبر ونسبته الظلم إلى الله ، لكنه طلب الإنظار إلى يوم الدين ، فأنظره الله ، وتوعد آدم بإغواء ذريته ، فردّ الله عليه بأن عباد الله المخلصين لا سلطان له عليهم ، وتوعده ومن تبعه بالنار.

الرابع- استخلاف آدم في الأرض : أخبر الله تعالى ملائكته أنه سيجعل آدم خليفة عنه في الأرض يكون له سلطان في التصرف في موادها ، فتساءلوا على سبيل العلم والحكمة ، كيف تجعل في الأرض المفسدين وسفاكي الدماء ، وهم- أي الملائكة- أهل الطاعة واجتناب المعصية ؟ فأجابهم الحق

سبحانه أنه يعلم في هذا المخلوق من الأسرار ما لا يعلمون ، واختصه بعلم ما لا يعلمون.

(١) قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار : ص ٢ وما بعدها ، ط رابعة.

ج ١ ، ص : ١٤٦

(١٤٣/١)

الخامس- تعليم آدم أسماء الأشياء المحسوسة : مَيَّرَ اللَّهُ آدَمَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ بِتَعْلِيمِهِ أَسْمَاءَ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ الْمَادِيَةِ الَّتِي يَرَاهَا حَوْلَهُ مِنْ زُرُوعٍ ، وَأَشْجَارٍ ، وَثَمَارٍ ، وَأَوْعِيَةٍ ، وَحَيَوَانٍ ، وَجَمَادٍ ، لِحَاجَتِهِ إِلَى الْإِسْتِفَادَةِ مِنْهَا فِي طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ ، بِخِلَافِ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى شَيْءٍ ، ثُمَّ طَالَبَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ بِأَسْمَاءِ الْمَسْمِيَّاتِ الْمُرْتَبَةِ الْحَاضِرَةِ ، بَعْدَ أَنْ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الْمَسْمِيَّاتِ ، فَلَمْ يَعْلَمُوها. وَحَاجَةُ ذَرِيَةِ آدَمَ إِلَى الْأَشْيَاءِ تَدْفَعُهُمْ إِلَى الْعَمَلِ وَالتَّفَكِيرِ ، وَالتَّنْقِيبِ عَنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ ، وَعِمَارَةِ الْكَوْنِ وَتَقْدِمْ وَسَائِلِ الْحَيَاةِ فِي كُلِّ الْمَجَالَاتِ مِنْ زِرَاعَةٍ وَصِنَاعَةٍ وَتِجَارَةٍ.

السادس- سكنى آدم وزوجته الجنة وخروجهما منها : أَسْكَنَ اللَّهُ آدَمَ الْجَنَّةَ ، وَخَلَقَ لَهُ حَوَاءَ ، وَأَبَاحَ لَهُمَا الْإِسْتِمْتَاعَ بِثَمَارِ الْجَنَّةِ إِلَّا شَجَرَةَ عَيْنِهَا لَهُمَا ، فَوَسَّسَ لَهُمَا إِبْلِيسُ بِالْأَكْلِ مِنْهَا وَأَغْرَاهُمَا ، وَقَالَ لَهُمَا : مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ الْأَكْلِ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا لِأَنَّ الْأَكْلَ مِنْهَا يَجْعَلُكُمَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، أَوْ تَكُونَا خَالِدِينَ دُونَ مَوْتٍ وَلَا فَنَاءٍ ، فَرَفُضَ آدَمُ فِي مَبْدَأِ الْأَمْرِ ، وَقَاوَمَ إِغْرَاءَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَلَكِنْ إِبْلِيسُ اسْتَمَرَّ فِي إِلْقَاءِ وَسَاوِسِهِ : وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ [الأعراف ٧ / ٢١] ، حَتَّى نَسِيَ آدَمُ أَنَّهُ عَدُوهُ الَّذِي أَبَى السُّجُودَ لَهُ ، فَأَكَلَ آدَمُ وَحَوَاءُ مِنَ الشَّجَرَةِ : فَبَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ [طه ٢٠ / ١٢١] لِيَسْتَرَا عَوْرَاتَهُمَا ، فَعَاتَبَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى مَخَالَفَةِ أَمْرِهِ وَالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ ، فَندَمَ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ وَتَابَ ، فَقَبِلَ تَوْبَتَهُ ، وَلَكِنَّهُ أَمْرُهُ وَحَوَاءُ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةِ ، وَالْإِسْتِقْرَارَ فِي الْأَرْضِ.

العظة من قصة آدم :

١- تفرد الله تعالى بأسرار وعلوم وحكم ، ولم يطلع عليها أحدا من الخلق ، حتى الملائكة ، فإنهم جهلوا الحكمة من استخلاف آدم ، وتساءلوا عن السبب في هذا الاختيار.

ج ١ ، ص : ١٤٧

(١٤٤/١)

٢- إذا توجهت عناية الله تعالى إلى شيء جعلته جليلاً عظيماً ، كما توجهت عنايته إلى التراب فخلق منه بشراً سوياً ، وأفاض عليه من العلم والمعرفة وغيرهما مما عجز الملائكة عن إدراكه.

٣- الإنسان وإن كرمه الله ، لكنه ضعيف ، عرضة للنسيان ، كما نسي آدم أوامر الله ونواهيه ، فأطاع إبليس عدوه ، وأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها.

٤- إن التوبة والإنابة إلى الله سبيل الظفر برحمة الله الواسعة ، فإن آدم الذي عصى ربه تاب وقبل الله توبته ، فعلى العاصي أو المقصر المبادرة إلى التوبة والاستغفار دون قنوط ولا يأس من رحمة الله ورضوانه ومغفرته.

٥- الكبر والعناد والإصرار على الإفساد أسباب لاستحقاق السخط الإلهي ، واللعة والغضب والطرده من رحمة الله ، فإن إبليس الذي أبى السجود ، وأصرّ على موقفه ، وعاند الله ، وتحدى سلطانه بإغراء الإنسان وصرفه عن إطاعة الله ، غضب الله عليه وطرده من الجنة إلى الأبد ، وأوعده بنار جهنم.

ما طلب من بني إسرائيل [سورة البقرة (٢) : الآيات ٤٠ إلى ٤٣]

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)
وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ
(٤١) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

ج ١ ، ص : ١٤٨

الإعراب

إِيَّايَ ضمير منصوب بفعل مقدر ، وتقديره : إياي ارهبوا فارهبون ، وإنما وجب تقدير « ارهبوا » لأن فعل فَاَرْهَبُونِ مشغول بالضمير المحذوف وهو الياء.

(١٤٥/١)

وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا « ما » بمعنى الذي ، والعائد هو الضمير المحذوف تخفيفاً في فعل أَنْزَلْتُ.

مُصَدِّقًا حال من الهاء المحذوفة ، وتقديره : أنزلته. أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ أول :

خبر تكونوا ، كافر : صفة موصوف محذوف ، تقديره : أول فريق كافر ، ولهذا جاء بلفظ الواحد ، والخطاب لجماعة.

تَكْتُمُوا إما منصوب بتقدير « أن » أو مجزوم بالعطف على تَلْبِسُوا وعلامة النصب والحزم في الوجهين حذف النون. وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من الضمير في تَكْتُمُوا.

البلاغة :

نِعْمَتِي الإِضافة للتشريف وبيان عظم قدر النعمة وسعة يسرها وحسن موقعها. وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي لَيْسَ الشراء هنا حقيقيا ، بل هو على سبيل الاستعارة التصريحية ، كما في الآية السابقة اشْتَرُوا الضَّالَّةَ بِالْهَدَى والمراد استبدلوا بآياتي ثمنا ، والمراد بالثمن في الأصل هو المشتري به ، أي استبدلوا بآيات الله وبالحق الكثير بدلا قليلا ومتاعا يسيرا ، فكانت مبادلة خاسرة ، لأن كل كثير أو كبير بالنسبة للحق المتروك قليل وحقير.

وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ يفيد الاختصاص ، وهو أؤكد في إفادة الاختصاص من إياي نعبد. تكرار الحق في قوله : تَلِسُوا الْحَقَّ وقوله وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ لزيادة تقبيح المنهي عنه ، لأن التصريح للتأكيد.

إطلاق الركوع على الصلاة في قوله : وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ مجاز مرسل ، من أنواع تسمية الكل باسم الجزء.

المفردات اللغوية :

إِسْرَائِيلُ هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام ، وبنوه : أولاده ، وهم اليهود. ومعنى إِسْرَائِيلُ صفي الله ، وقيل : الأمير المجاهد. بَعْهْدِي عهد الله : ما عاهدهم ج ١ ، ص : ١٤٩

(١٤٦/١)

عليه في التوراة من الإيمان بالله وبرسله وبخاصة محمد خاتم الأنبياء من ولد إسماعيل بَعْهْدِكُمْ ما عاهدتكم عليه من الثواب على الإيمان ، والتمكين من بيت المقدس ، وسعة العيش في الدنيا. وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا قد يطلق كل من البيع والشراء على الآخر ، والمعنى : لا تبيعوا آياتي بثمن قليل وعوض يسير من الدنيا ، أو لا تكتمونها خوف فوات ما تأخذونه من الناس. فَارْهَبُونِ فخافون في نقضكم العهد وترك الوفاء به دون غيري. وَآمِنُوا بِمَا أُنْزِلْتُ مِنَ الْقُرْآنِ. مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنَ التَّوْرَةِ بموافقته في التوحيد والنبوة. وَلَا تَلِسُوا لا تخلطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تخترعونه ، ولا تحرفوا ما في التوراة بالبهتان الذي تفترونه.

المناسبة :

اختصت هذه الآيات من (٤٠ - ١٤٢) بالكلام عن بني إسرائيل فيما يقارب جزءا كاملا ، لكشف حقائقهم وبيان مثالبهم ، وكانت الآيات السابقة من أول السورة إلى هنا حول إثبات وجود الله ووحدانيته ، والأمر بعبادته ، وأن القرآن كلام الله المعجز ، وبيان مظاهر قدرة الله بخلق الإنسان

وتكريمه وخلق السموات والأرض ، وموقف الناس من كل ذلك وانقسامهم إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين. ثم بدأ سبحانه بمخاطبة الشعوب التي ظهرت فيها النبوة ، فبدأ باليهود ، لأنهم أقدم الشعوب ذات الكتب السماوية ، ولأنهم كانوا أشد الناس عداوة للمؤمنين بالقرآن ، مع أنهم أولى الناس بالإيمان بخاتم الرسل ، لذا ذكرهم الله تعالى بنعمه الكثيرة التي أنعم بها عليهم ، وذكرهم بالعهد المؤكد معهم على التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتنوع أسلوب القرآن في خطابهم ، تارة بالملاينة والملاطفة ، وتارة بالتخويف والشدة ، وأحيانا بالتذكير بالنعم ، وطورا بتعداد جرائمهم وقبائحهم وتوبيخهم على أعمالهم وإقامة الحجة عليهم.

التفسير والبيان :

(١٤٧/١)

يا أولاد النبي الصالح يعقوب ، كونوا مثل أبيكم في اتباع الحق ، وتفكروا

ج ١ ، ص : ١٥٠

بالنعم التي أنعم الله بها على آبائكم من الإنجاء من فرعون ، وتظليل الغمام ، واشكروا الله على نعمه بامثال أوامره وإطاعته ، وأوفوا بما عاهدتكم عليه من الإيمان بالله ورسله دون تفريق ، وبخاصة محمد خاتم النبيين ، أوفّ بعهدي لكم في الدنيا والآخرة ، بالتمكين لكم في الأرض المقدسة- في زمنهم- ورفع شأنكم ، وتوسيع معيشتكم ، ونصركم على أعدائكم ، وتوفير السعادة لكم في الآخرة.

وآمنوا- ضمن مشتملات العهد- بالقرآن إيمانا صادقا ، وأنه من عند الله ، وأنه نزل مؤيدا ومصدقا وموافقا للتوراة وكتب الأنبياء السابقة ، في الدعوة إلى توحيد الله ، وترك الفواحش ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي التوراة وصف للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلا تكونوا يا أهل الكتاب أول الناس في الكفر به ، فأنتم أحق الناس بالإيمان به ، لوجود دليل صدقه في التوراة. ولا تبيعوا آيات الله الدالة على صدق محمد في نبوته ودعوته بضمن دنيوي حقير ، من رئاسة أو زعامة أو مال أو موروثة وعادات قديمة ، فإنه ثمن قليل بخس ، وتجارة خاسرة غير رابحة. ولا تخافوا أحدا سوى الله فهو بيده الخير كله. ولا تخلطوا الحق الموجود في التوراة بالباطل الذي تخترعونه وتكتبونه ، ولا تكتموا وصف النبي وبشارته التي هي حق وأنتم تعلمون ضرر الكتمان ، فليس جزاء العالم في الآخرة كالجاهل. وأدوا ما افترض الله عليكم من الصلاة والزكاة وأدوها جماعة مع النبي محمد عليه السلام.

وعبر بالركوع عن الصلاة ليعدهم عن صلاتهم القديمة التي لا ركوع فيها.

فقه الحياة أو الأحكام :

(١٤٨/١)

أرشدت الآيات إلى أحكام كثيرة في العقيدة والأخلاق والعبادة والحياة الخاصة والعامة ، فأوجبت على اليهود ألا يغفلوا عن نعم الله التي أنعم بها عليهم وألا يتناسوها ، والنعمة هنا : اسم جنس ، مفردة بمعنى الجمع ، قال الله تعالى :

وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا [إبراهيم ١٤ / ٣٤] ، ومن نعمه عليهم : أن

ج ١ ، ص : ١٥١

أنجاهم من آل فرعون ، وجعل منهم أنبياء ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وفجر لهم من الحجر الماء ، واستودعهم التوراة التي فيها صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ورسالته « ١ » ، والنعم على الآباء نعم على الأبناء ، لأنهم يشرفون بشرف آبائهم وكانت النعم سببا في بقائهم. والتذكير بكثرة النعم يوجب الحياء عن إظهار المخالفة ، ويوجب عظم المعصية ، ويستدعي الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن.

وألزمهم الوفاء بالعهد : وهو عام في جميع أوامره تعالى ونواهيه ووصاياه ، ويدخل في ذلك الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم الذي ذكر في التوراة وغيرها ، فإذا وقوا بعهودهم ، وفي الله لهم عهده : وهو أن يدخلهم الجنة ، على سبيل التفضل والإنعام.

وما طلب من اليهود من الوفاء بالعهد هو مطلوب منا ، قال الله تعالى :

أَوْفُوا بِالْعُقُودِ [المائدة ١ / ٥] وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ [النحل ١٦ / ٩١].

وأمرهم بخشية الله وحده والإيمان (التصديق) بما أنزل الله وهو القرآن ، ونهاهم عن أن يكونوا أول من كفر ، وألا يأخذوا على آيات الله ثمنا ، أي على تغيير صفة محمد صلى الله عليه وسلم رشى ، وكان الأحرار يفعلون ذلك ، فنهوا عنه.

(١٤٩/١)

و قد أثار العلماء في هذه الآية (١٤) ونحوها مسألة أخذ الأجرة على تعليم القرآن « ٢ » ، فمنع ذلك الزهري وأصحاب الرأي ، وقالوا : لا يجوز أخذ الأجرة على تعليم القرآن ، لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج فيها إلى نية التقرب

(١) تفسير الرازي : ٣ / ٣٣ وما بعدها ، قال بعض العارفين : عبيد النعم كثيرون ، وعبيد المنعم قليلون ، فالله تعالى ذكر بني إسرائيل بنعمه عليهم ، ولما آل الأمر إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ذكرهم بالمنعم فقال : فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ [البقرة ٢ / ١٥٢] فدل ذلك على فضل أمة محمد صلى الله عليه

وسلّم على سائر الأمم.

(٢) تفسير القرطبي : ٣٣٥ / ١

ج ١ ، ص : ١٥٢

و الإخلاص ، فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام ، وقد قال تعالى : وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا .
وأجاز جمهور العلماء غير الحنفية أخذ الأجرة على تعليم القرآن ،
لقوله عليه السلام في حديث ابن عباس - حديث الرقية الذي أخرجه البخاري : « إن أحق ما أخذتم
عليه أجرا كتاب الله »

والقياس على الصلاة والصيام فاسد ، لأنه في مقابلة النص ، ولأن تعليم القرآن يتعدى أثره لغير المعلم
، فيختلف عن العبادات المختصة بالفاعل .

وهذا الخلاف جار أيضا في أداء الصلاة وغيرها من الشعائر الدينية بأجر .

ونهى الله اليهود - ومثلهم غيرهم - عن أن يخلطوا ما عندهم من الحق في الكتاب بالباطل ، وهو
التغيير والتبديل ، وعن كتمان ما علموا ، ومنه أن محمدا عليه السلام حق ، فكفرهم كان كفر عناد ،
ولم يشهد تعالى لهم بعلم في ذلك .

(١٥٠/١)

و في نهاية الآيات أمرهم الله تعالى - والأمر للوجوب - بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وعبر عن الصلاة
بالركوع ، لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع ، ليرشداهم إلى الصلاة بالصفة الإسلامية ، والمراد
بالزكاة على الأصح الزكاة المفروضة ، لمقارنتها بالصلاة ، وليس المراد هو صدقة الفطر . وفي الصلاة
تطهير النفوس ، وفي الزكاة تطهير المال ، وكلاهما مظهر شكر الله على نعمه ، والزكاة تنفرد بأنها
تحقق مبدأ التكافل الاجتماعي بين الناس ، فالغني بحاجة إلى الفقير ، والفقير بحاجة إلى الغني . قال
الجنصاص : أريد بالصلاة والزكاة ما خوطبنا به من هذه الصلوات المفروضة والزكوات الواجبة « ١ » .

(١) أحكام القرآن : ٣٤ / ١

ج ١ ، ص : ١٥٣

نماذج من سوء أخلاق اليهود [سورة البقرة (٢) : الآيات ٤٤ الى ٤٨]

أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤) (٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ
وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا

تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٨)
الإعراب :

وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من الضمير في تَنْسَوْنَ.

(١٥١/١)

وَ إِنَّهَا الهاء تعود على الصلاة ، وإنما قال : وَإِنَّهَا ولم يقل : وإنهما أي الصبر والصلاة ، لأن العرب ربما تذكر اسمين ، وتكتفي عن أحدهما ، مثل : وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَلَا يُنْفِقُونَهَا ولم ينفقونها ، ومثل : وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً أَنْفَضُوا إِلَيْهَا [الجمعة ٦٢ / ١١] ولم يقل : إليهما. إِلَيْهِ الضمير يعود إلى الله تعالى.

يَوْمًا مفعول فيه ظرف زمان لفعل اتَّقُوا. وَلَا تَجْزِي وما بعدها من الجمل المنفية صفات ليوم ، وفي كل جملة ضمير مقدر يعود على يوم ، تقديره : فيه ، أي لا تجزي فيه .. وهكذا. وتذكير فعل وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ مع أن الفاعل مؤنث لوجود الفاصل ، وإذا وجد الفصل بين للفعل والفاعل ، قوي التذكير.

البلاغة :

أَتَأْمُرُونَ الاسْتِفْهَامَ للتوبيخ. وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ فيه تقييد وتبكيث. أَفَلَا تَعْقِلُونَ استفهام إنكاري وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ مبالغة في الترك.

ج ١ ، ص : ١٥٤

ثم إن عطف وَأَنْتِي فَضَّلْتُكُمْ .. على اذْكُرُوا نِعْمَتِي من عطف الخاص على العام.
وَاتَّقُوا يَوْمًا تنكير اليوم للتهويل ، وتنكير النفس في نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ لإفادة العموم.
المفردات اللغوية :

« البر » الطاعة والخير والعمل الصالح وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ تركونها فلا تأمرونها به الْكِتَابَ التوراة ، وفيها الوعيد على مخالفة القول بالعمل. أَفَلَا تَعْقِلُونَ سوء فعلكم فترجعوا.
وَأَسْتَعِينُوا اطلبوا المعونة على أموركم بِالصَّبْرِ حبس النفس على ما تكره وَالصَّلَاةَ قال القرطبي وغيره :
خص الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات تنويها بذكرها ، وكان عليه السلام إذا حزبه أمر فرع إلى الصلاة « ١ » وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ أي وإن الصلاة لشاقة ثقيلة الخاشعين الساكنين إلى الطاعة.

(١٥٢/١)

يَظُنُّونَ يَعْتَقِدُونَ أَوْ يَوْقِنُونَ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ بِالْبَعَثِ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فِي الْآخِرَةِ فَيَجَازِيهِمْ.
أَذْكُرُوا نِعْمَتِي بِالشَّكْرِ عَلَيْهَا بِطَاعَتِي فَضَّلْتُكُمْ أَيَّ آبَاءِكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ عَالَمِي زَمَانِهِمْ. وَاتَّقُوا خَافُوا يَوْمًا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ. لَا تَجْزِي تَقْضِي وَتُؤْذِي نَفْسٍ. عَذْلٌ فِدَاءٍ. وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ يَمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ.
سبب النزول :

أخرج الواحدي والثعلبي عن ابن عباس ، قال : نزلت هذه الآية (٤) (٤) في يهود المدينة ، كان الرجل
منهم يقول لصهره ولذوي قرابته وللمن بينهم وبينه رضاع من المسلمين : اثبت على الدين الذي أنت
عليه ، وما يأمرُك به ، وهذا الرجل ، يعنون محمدا صلى الله عليه وسلم ، فإن أمره حق ، فكانوا يأمرُون
الناس بذلك ولا يفعلونه « ٢ » .

(١) تفسير القرطبي : ١ / ٣٧١ ، وحزبه : نزل به مهم أو أصابه غم.

(٢) أسباب النزول للواحدي : ص ١٣ [.....]

ج ١ ، ص : ١٥٥

و قال السدي : كان بنو إسرائيل يأمرُون الناس بطاعة الله ويتقواه وبالبر ، ويخالفون ، فعيرهم الله عز
وجل « ١ » .

التفسير والبيان :

بان مما سبق في سبب النزول أن الآيات نزلت في أهل الكتاب وعلى التخصيص الأحرار والرهبان ،
كانوا يأمرُون الناس بالخير والثبات على الإسلام ويتركون أنفسهم ، فهذا مدعاة العجب والاستغراب ،
فإن الأمر بالشيء هو القدوة ، فعليه المبادرة إلى فعل ما أمر به غيره ، وإلا كان كمثّل السراج يضيء
للناس ويحرق نفسه. وفي هذا توبيخ وتأنيب شديد ، فكيف يليق بكم يا أهل الكتاب ، وأنتم تأمرُون
الناس بالبر ، وهو جماع الخير ، أن تنسوا أنفسكم ، فلا تأتمرون بما تأمرُون به ، وأنتم مع ذلك تتلون
الكتاب ، وتعلمون ما فيه من وعيد على من قصر في أوامر الله ، أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم
؟ فتنبهوا من رقدتكم ، وتبصروا من عمايتكم.

(١٥٣/١)

و هذا الخطاب ، وإن كان لليهود من أهل الكتاب ، فهو موجه أيضا لغيرهم ، لأن العبرة بعموم اللفظ ،
لا بخصوص السبب.

وطريق العلاج لهذا المرض أن تؤمنوا حقا ، وتستعينوا على أنفسكم الأمانة بالسوء ، على مرضاة الله
بالصبر الحقيقي وهو إنما يكون بتذكر وعد الله بحسن الجزاء لمن صبر عن الشهوات المحرمة ،

وتستعينوا بالصلاة لترويض النفس على التزام جادة الاستقامة ، فمن صبر على احتمال التكليف ، وصرف نفسه عن المعاصي ، وناجى ربه في صلاته ، وعقد الصلة مع الله فيها خمس مرات في اليوم ، كان جديرا بنصح الآخرين ، مدركا بعقله الواعي مخاطر الانحراف ، ضامنا لنفسه النجاة ، لأن الأمر بالمعروف واضح ، وهو واجب على العالم ، وأوجب منه أن

(١) تفسير ابن كثير : ٨٥ / ١

ج ١ ، ص : ١٥٦

يبدأ الواعظ بفعله بنفسه ، ولا يتخلف بشيء عن أمرهم به ، قال شعيب عليه السلام- فيما حكاه القرآن : وَمَا أُريدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ [هود ٨٨ / ١١].
والتزام الصلاة أمر شاق إلا على من خشعت نفوسهم لله ، وخافوا من شديد عقابه ، وعمرت قلوبهم بالإيمان وصدقوا بلقاء الله وحسابه ، فبادروا إلى الصلاة ، لإراحة أنفسهم ، وتطمين قلوبهم ، وإراحة بالهم ، وإزالة قلقهم ، وهو
ما عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « و جعلت قرة عيني في الصلاة » « ١ » .
والأصح أن المراد بالصلاة التي أمر بها اليهود وغيرهم هي الصلاة الإسلامية ، بناء على أنهم مخاطبون بفروع الشريعة ومكلفون بها ، ولأن الصلاة التي أمروا بها هي المشتملة على الركوع ، كما في الآية السابقة ، وصلاتهم لا ركوع فيها ، كما بينا .

(١٥٤/١)

و عبر بالظن في قوله : الَّذِينَ يَظُنُّونَ للإشارة إلى أن من ظن اللقاء لا يشق عليه الصلاة ، فكيف بمن يتيقنه ؟ ! فهذا سبب آخر بعد نسيان أنفسهم وتلاوة الكتاب للتقريع والتوبيخ.
وفي مجالات الأوامر والترغيب في المأمورات يحسن التذكير بالنعم الإلهية ، لذا كرر تعالى تذكير الكتابيين بالنعم التي أنعم بها على آبائهم وعليهم ، وأنه فضلهم على غيرهم من العالم في زمانهم ، وأنه جعل فيهم الأنبياء ، والخطاب ليس موجها إلى الجماعة فقط ، وإنما إلى كل فرد أيضا ، لأن كل امرئ مسئول عن نفسه ، فليخش كل إنسان يوما مليئا بالأهوال ، لا منجاة فيه إلا بتقوى الله في السر والعلن ، ولا فائدة فيه إلا لمن عمل لنفسه ، فلا تقبل هناك شفاعاة الشفعاء والوسطاء ، ولا ينفع دفع البدل أو الفداء ، ولا يمنع المقصرون من العذاب.

(١)

نص الحديث بكامله : « حَبَّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ : النساء ، والطيب ، وجعلت قرّة عيني في الصلاة »
أخرجه الإمام أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

ج ١ ، ص : ١٥٧

فقه الحياة أو الأحكام :

يستحق كل مقصر في واجبه العقاب واللوم ، فقد كان التوبيخ في الآية بسبب ترك فعل البر ، لا بسبب الأمر بالبر ، وكان ذم اليهود لأنهم كانوا يأمرّون بأعمال البر والطاعة ولا يعملون بها ، ويزداد التقرّيع للعالم الذي لا يعمل بما علم ، فليس من يعلم كمن لا يعلم ، ولا يتقبل العقل السليم هذه الحال من أحد.

(١٥٥/١)

و إطاعة الأوامر الإلهية وعدم مخالفتها تتطلب الصبر ، ومن صبر عن المعاصي فقد صبر على الطاعة ، ومن أخص حالات الصبر : الصلاة ، فالصلاة فيها سجن النفوس ، وجوارح الإنسان فيها مقيدة بها عن جميع الشهوات ، فكانت الصلاة أصعب على النفس ، وكانت مكابدتها أشق. وتهون المصاعب كلها أمام الخاشعين المتواضعين المختبين إلى الله ، الموقنين بقاء الله ، المصدقين بالبعث والجزاء والعرض على الملك الأعلى الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

وليست أمور الآخرة مقيسة على أمور الدنيا ، كما كان يتوهم اليهود وغيرهم من الأمم الوثنية ، فليس في ميزان الإسلام وعدله طريق لتخليص المجرمين من العذاب بفداء أو بدل يدفع ، أو بشفاعة تشفع ، ولا ينفع في اليوم الآخر إلا مرضاة الله تعالى بالعمل الصالح ، والإيمان المستقر في النفوس ، المتجلي في أعمال الإنسان ، والحكم إلى الله العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء ، فيجزى بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها ، كما قال تعالى : وَقَفُّوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ، مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ، بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ [الصفات ٣٧ / ٢٤ - ٢٦].

والشفاعة المرفوضة هي شفاعة الكافرين ، فقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى : وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ : النفس الكافرة ، لا كل نفس. أما المؤمنون فتنتفعهم الشفاعة بإذن الله ، لقوله تعالى : وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى [الأنبياء ٢١ / ٢٨] والفاسق

ج ١ ، ص : ١٥٨

(١٥٦/١)

غير مرتضى ، وقوله : وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ [سبأ ٣٤ / ٢٣] وليس في الشفاعة رجوع المولى عن إرادته لأجل الشافع ، وإنما هي إظهار كرامة للشافع بتنفيذ ما أَرَادَهُ اللَّهُ أَزْلاً عقب دعاء الشافع ، والشفاعة دعاء. وليس في إثبات شفاعة مسوخ لمغتر يتهاون بأوامر الدين ونواهيه اعتمادا على الشفاعة ، فلا ينفع أحدا في الآخرة إلا طاعة الله ورضاه.

وأما تفضيل بني إسرائيل فهو ليس دائما ولا عاما ، وإنما هو مقصور على عالمي زمانهم ، ومرتبب بمدى تنفيذهم أوامر الله ، فالتمييز هو مناط الأخذ بالفضائل وترك الرذائل ، والفضل إن كان بكثرة الأنبياء فيهم فهو صحيح لا شك فيه ، ولا تقضي هذه الفضيلة بأن يكون كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم ، ويزول الفضل إذا هم انحرفوا عن هدي أنبيائهم وتركوا سنتهم. وإن كان المراد من التفضيل هو القرب من الله بمرضاته ، فهو مختص بالأنبياء والمهتدين من أهل زمانهم والتابعين لهم فيه ، ومقيد بمدة الاستقامة على العمل الذي استحقوا به التفضيل « ١ » .

نعم الله تعالى العشر على اليهود [سورة البقرة (٢) : الآيات ٤٩ الى ٥٤]
وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣)

(١٥٧/١)

وَ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)

(١) تفسير المنار : ١ / ٣٠٤ وما بعدها.

ج ١ ، ص : ١٥٩

الإعراب :

إِذْ معطوف على نِعْمَتِي ومنصوب بفعل محذوف تقديره : واذكروا إذ نجيناكم.

وكذلك قوله تعالى : وَإِذْ فَرَقْنَا ، وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَى ، وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى.

فِرْعَوْنَ ممنوع من الصرف للتعريف والعجمة ، ومعناه في القبطية : التمساح. يَسُومُونَكُمْ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من آل فرعون. وكذلك يُدَبِّحُونَ وَيَسْتَحْيُونَ حال منهم أيضا.

وَاَعَدْنَا بمعنى وعدنا ، لأن الأصل في « فاعلنا » أن تكون مشاركة من اثنين ، ولا يحسن هاهنا ، لأن

اللّٰه تعالى وعد موسى ، ولم يكن من موسى وعد اللّٰه تعالى . اتَّخَذْتُمْ فعل يتعدى إلى مفعولين ، ويجوز الاختصار على أحدهما ، الأول منهما (العجل) والثاني مقدر وتقديره : إلها . وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ جملة اسمية في موضع الحال من ضمير اتَّخَذْتُمْ . ذَلِكُمْ أراد المذكور ، وهو يشمل القتل والتوبة .
البلاغة :

يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ استعارة من السُّوم في البيع . بَلَاءٌ وَعَظِيمٌ التنكير فيهما للتفخيم والتهويل .
وَأَعَدْنَا ليست على أصلها وهو المشاركة من اثنين ، وإنما هي بمعنى « وعدنا » كما بينا في الإعراب .
هذا وعطف الفرقان على الكتاب في آية (٣٥) من باب عطف الصفات بعضها على بعض ، لأن الكتاب هو التوراة ، والفرقان هو التوراة أيضا ، فهو كتاب منزل وفارق بين الحق والباطل .
المفردات اللغوية :

(١٥٨/١)

وَ إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ أَيَّ آبَاءِكُمْ ، تذكيرا لهم بنعمة اللّٰه تعالى ليؤمنوا . وفرعون : لقب لمن ملك مصر قبل البطالسة يَسْؤُمُونَكُمْ يذيقونكم سُوءَ الْعَذَابِ أشده أي العذاب الشديد .
يَسْتَحْيُونَ ييقون نساءكم أحياء ، ويقتلون الرجال ، لقول بعض الكهنة لفرعون : إن مولودا
ج ١ ، ص : ١٦٠

يولد في بني إسرائيل ، يكون سببا لذهاب ملكك وفي ذَلِكُمْ العذاب أو الإنجاء بَلَاءٌ ابتلاء واختبار .
فَرَقْنَا فلقنا ، والمراد جعلنا فيه جسرا تعبرون عليه ، هاربين من عدوكم .
الْكِتَابِ التوراة . وَالْفُرْقَانِ الشرع الفارق بين الحق والباطل والحلال والحرام .
فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ليقتل البريء منكم المجرم ذَلِكُمْ القتل ، وقتل منهم نحو سبعين ألفا بَارِئُكُمْ مبدعكم
ومحدثكم فَتَابَ قبل توبتكم .
المناسبة :

هذه الآيات في تفصيل النعم العشرة التي أنعم اللّٰه بها على بني إسرائيل ، بعد الإشارة إليها إجمالا في قوله : اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ تذكيرا لهم بضرورة شكرها .
التفسير والبيان :

اذكروا أيها اليهود الذين تعاصرون التنزيل ونبوة محمد صلى اللّٰه عليه وسلّم النعم التي أنعم اللّٰه بها على آبائكم ، وهي نعم عليكم أيضا بالتبع ، كانت سببا لبقائكم ، ولأن الإنعام على أمة إنعام يشمل كل أفرادها ، وهي نعم عشرة ، ذكر منها هنا خمسة وهي :

١ - النجاة من فرعون ، فإنه كان يذبح الأبناء الذكور ، ويترك البنات أحياء ، ويذيقهم العذاب الشديد ، لأن فرعون كان قد رأى نارا هالته ، خرجت من بيت المقدس ، فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر ، إلا بيوت بني إسرائيل.

وفسرت له بأن زوال ملكه يكون على يد رجل من بني إسرائيل « ١ » . فأخذ يقتل الذكور ويترك النساء ، ومع هذا نجاهم الله من هذا العذاب المهين . وفي النجاة من الهلاك اختبار من الله ، حتى يظهر شكر الناجي وصبر الهالك . والاختبار

(١٥٩/١)

(١) تفسير ابن كثير : ٩٠ / ١

ج ١ ، ص : ١٦١

قد يكون بالخير أو بالشر ، كما قال تعالى : وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً [الأنبياء ٣٥ / ٢١] وقال : وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الأعراف ١٦٨ / ٧].

وأما أنواع العذاب غير القتل ، فقال ابن إسحاق : كان فرعون يعذب بني إسرائيل ، فيجعلهم خدما وخولا ، وصنفهم في أعماله ، فصنف يبنون ، وصنف يزرعون له ، فهم في أعماله ، ومن لم يكن منهم في صنعة من عمله ، فعليه الجزية ، فسامهم العذاب.

وفرعون : لقب لكل من ملك مصر قبل البطالسة ، مثل قيصر لملك الروم ، وكسرى لملك الفرس ، وتبع لملك اليمن ، والنجاشي لملك الحبشة ، وخاقان لملك الترك ، وبطليموس لمن ملك الهند . ونسب الله تعالى إلى آل فرعون - وهم إنما كانوا يفعلون بأمره وسلطانهم - لتوليهم ذلك بأنفسهم ، وليعلم أن المباشر مأخوذ بفعله « ١ » . قال الطبري : فكذلك كل قاتل نفسا بأمر غيره ظلما ، فهو مقتول عندنا به قصاصا ، وإن كان قتله إياه بإكراه غيره له على قتله « ٢ » .

٢ - عبور بني إسرائيل في البحر الأحمر سالمين بعد تهيئة طريق يابس سلكوه ، وإغراق فرعون وجنوده . وقد كان فرق البحر من معجزات موسى عليه السلام كمعجزات سائر الأنبياء التي يظهرها الله تعالى على أيديهم ، لتصديق الناس إياهم ، وهي سنة في الكون يخلقها الله متى شاء على يد من يصطفيه من عباده.

(١) تفسير القرطبي : ٣٨٥ / ١

(٢) تفسير الطبري : ٢١٤ / ١

ج ١ ، ص : ١٦٢

و أما فرعون وجنوده فتبعوهم ، حتى إذا كانوا في وسط البحر ، أطبق الله عليهم الماء ، فغرقوا.

(١٦٠/١)

٣- قبول توبة الاسرائيلين وعفو الله عنهم ، لأن الله تعالى كثير القبول لتوبة العصاة ، ورحيم بمن ينيب إليه ويرجع ، وهذا يستدعي شكر الله تعالى ، وشكره : الإيمان به وبرسله واتباعهم فيما جاؤوا به ، وبخاصة خاتم النبيين محمدا صلى الله عليه وسلم.

٤- إنزال التوراة الفارقة بين الحق والباطل والحلال والحرام على موسى عليه السلام ، كي يهتدوا بها ، ويتدبروا ما فيها ، ويسيروا على منهجها وشرعها.

٥- التخلص الجماعي من المجرمين بأمر الله نبيه موسى عليه السلام بعد أن اتخذ بنو إسرائيل العجل إلها ، فعبدوه من دون الله ، وظلموا أنفسهم بعد الإشراك بالله ، في وقت غيبة موسى عنهم لميقات ربه ، وصومه أربعين يوما ، فاذكر يا محمد قول موسى لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجي ربه : يا قوم إنكم باتخاذكم العجل إلها قد أضللتكم بأنفسكم ، فتوبوا إلى خالقكم ، وتخلصوا من جهلكم ، إذ تركتم عبادة الباري ، وعبدتم أغبي الحيوان وهو البقر.

وطريق التوبة التي كانت في شريعتهم : أن يقتل البريء منكم المجرم ، فأرسل الله عليهم سحابة سوداء ، لئلا يبصر بعضهم بعضا عند القتل ، فيرحمه ، فتقاتل عبدة العجل مع المؤمنين بالسيوف ، وتطاعنوا بالخناجر من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى ، حتى قتل منهم سبعون ألفا ، وبعدها تضرع موسى وهارون إلى الله ، فتاب عليهم ، من قتل ومن لم يقتل ، أما المقتول فهو حي يرزق عند الله ، وأما من بقي فقد قبلت توبته ، وانتهى القتال ، وألقوا السلاح ، وساد السلم والأمن ، ولا عجب في هذا ، فالله هو التواب الرحيم بعباده.

والأربعون يوما في قول أكثر المفسرين : ذو القعدة وعشر من ذي الحجة.

ج ١ ، ص : ١٦٣

(١٦١/١)

و الخلاصة : ربما كانت هذه النعمة أجل النعم ، فالله تعالى يقول : اذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم ، لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة ، وكانت أربعين يوما ، وهي المذكورة في الأعراف (١٤) (٢) في قوله تعالى : وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ، وَاتَّمَمْنَاهَا بِعَشْرِ

وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر.

فقه الحياة أو الأحكام :

لكل ظالم عات باغ نهاية حتمية ، كنهاية فرعون بالإغراق في البحر ، وللمظلوم فرج قريب ونصر محقق ، كإنجاء بني إسرائيل المظلومين على يد فرعون وآله. وكان الإنجاء عيداً ، مستوجبا شكر الإله ، وصار يوم عاشوراء وهو اليوم العاشر من شهر المحرم يوم صيام الشكر ،

روى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ فقالوا : هذا يوم عظيم ، أنجى الله فيه موسى وقومه ، وغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكرا ، فنحن نصومه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنحن أحق وأولى بموسى منكم ، فصامه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بصيامه.

قال الترمذي : وروي عن ابن عباس أنه قال :

صوموا التاسع والعاشر ، وخالفوا اليهود. واحتج بهذا الحديث الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق. والشكر لله - كما قال سهل بن عبد الله : الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السر والعلانية.

والمبادرة إلى التوبة سبيل التخلص من المعصية ، والله سبحانه واسع الرحمة ، كثير القبول للتوبة. والصبر مفتاح الفرج ، قال القشيري : من صبر في الله على قضاء الله ، عوضه

ج ١ ، ص : ١٦٤

(١٦٢/١)

الله صحبة أوليائه ، هؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه ، فجعل منهم أنبياء ، وجعل منهم ملوكا ، وآتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين » ١ .

تتمة التعم العشر على بني إسرائيل [سورة البقرة (٢) : الآيات ٥٥ الى ٦٠]

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩) وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ

مَشَرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠)
الإعراب :

جَهْرَةً منصوب على المصدر في موضع حال من ضمير قُلْتُمْ وتقديره : قلتم ذلك مجاهرين ، وهذا هو
الأوجه. وقيل : صفة محذوف تقديره : أرنا الله رؤية جهرة.

(١) البحر المحيط : ١٩٤ / ١

ج ١ ، ص : ١٦٥

(١٦٣/١)

سَجْدًا جمع ساجد ، منصوب على الحال من ضمير ادْخُلُوا. حِطَّةٌ خبر مبتدأ محذوف تقديره : مسألتنا
حطة ، أي حطّ عنا ذنوبنا. ومن نصب حِطَّةً أعمل الفعل.
فَانْفَجَرَتْ معطوف على فعل مقدر ، تقديره : فاضرب فانفجرت ، لأن الانفجار إنما يحصل عن الضرب
، لا عن الأمر بإيجاده ، مثل : فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ [البقرة ٢ / ١٨٥] أي فأفطر فعدة. ومثل : فَمَنْ
اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ [البقرة ٢ / ١٧٣] أي فأكل فلا إثم عليه.
مُفْسِدِينَ حال مؤكدة لعاملها : تَعَثُّوا.
البلاغة :

مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لزيادة التأكيد على أنه موت حقيقي.
كُلُوا إيجاز بالحذف ، أي قلنا لهم : كلوا.
وَمَا ظَلَمْنَا إيجاز بالحذف أيضا تقديره : فظلموا أنفسهم بأن كفروا. والجمع بين ظَلَمْنَا وَيُظْلَمُونَ
الماضي والمضارع للدلالة على تماديهم في الظلم.
فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ولم يقل : فَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ ، لزيادة التوبيخ والمبالغة في الذم والتقريع ، بوضع
الظاهر موضع الضمير. رَجَزًا نَكْرَهُ للتهويل والتفخيم.
مِنْ رِزْقِ اللَّهِ تعظيم للنعمة والمنة ، وإيماء إلى أنه رزق حاصل من غير تعب ولا مشقة.
المفردات اللغوية :

جَهْرَةً عيانا واضحا بالبصر. الصَّاعِقَةُ الصيحة بالعذاب ، أو نار من السماء.
وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ما حلّ بكم.
ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ أَحْيَانًاكُمْ. تَشْكُرُونَ نعمتنا بذلك.
وَوَضَعْنَا عَلَى كُفْرِكُمْ الْغَمَامَ سترناكم بالسحاب الرقيق من حرّ الشمس في التيه. الْمَنْ شَاءَ حلو لرج كالعسل.

السُّلوى الطائر المعروف بالسَّمانى ويسمى في بلاد الشام بالفري ، وكلّ من السَّمانى والسُّلوى جمع لا واحد له من لفظه.

هذه القَرْيَةُ بيت المقدس أو أريحا. رَغَدًا أَكَلَا واسعا هنيئًا لا عناء فيه ولا حجر

ج ١ ، ص : ١٦٦

(١٦٤/١)

عليه. البابَ بابها. سُجِّدًا منحنين متواضعين متذلّلين لله. حِطَّةً أي سؤلنا أن تحطّ عنا ذنوبنا أو خطايانا ، والمراد : اسألوا الله المغفرة.

رَجَزًا عذابا من السماء ، ومن المعلوم أن العذاب نوعان : نوع يمكن دفعه : وهو عذاب المخلوقات كالحدم والغرق ، ونوع لا يمكن دفعه : كالطاعون والصاعقة والموت ، والمراد به هذا النوع الثاني. الْحَجَرَ أي حجر ، كان إذا ضربه تفجر منه الماء بقدرة الله. فَأَنْفَجَرَتْ انشقت وسالت. أناس جماعة منهم ، وكانوا اثني عشر سبطا. مَشْرَبُهُمْ موضع شربهم ، فلا يشاركهم فيه غيرهم. وَلَا تَعْتَوُوا من عثي : أفسد ، أي لا تفسدوا إفسادا شديدا ، والعثو أو العثي : أشد الفساد ، وتكرر المعنى تأكيدا ، لاختلاف اللفظ.

التفسير والبيان :

اذكروا يا بني إسرائيل قول السبعين من أسلافكم الذين اختارهم موسى عليه السلام حين ذهبوا معه إلى الطّور ، للاعتذار عن عبادة العجل : لن نصدق بالله وكتابته ، علما بأنك سمعت كلامه ، حتى نرى الله عيانا بالعين المجردة بلا حاجز ، فأخذهم الله بعذابه وهو إرسال نار من السماء وهي الصاعقة فأحرقتهم وماتوا ، ومكثوا يوما وليلة ، والحي ينظر إلى الميت.

وهكذا كان حال بني إسرائيل مع موسى ، يتمردون ويعاندون ، فيعذبهم الله في الأرض ، بالأوبئة والأمراض وتسليط هوامّ الأرض وحشراتهما ، حتى فتكت بالعدد الكثير منهم ، ثم ينعم الله عليهم ، وها هي بقية النعم العشر التي يذكرهم تعالى بها :

٦- ثم أحييناهم بعد الموت الحقيقي ، ليستوفوا آجالهم المقدرة لهم ، فقاموا وعاشوا ينظرون إلى بعضهم « ١ » ، وذلك كله لتشكروا الله أيها اليهود المعاصرون على

)

(١٦٥/١)

(١) ورأى الشيخ محمد عبده أن المراد بالبعث هو كثرة النسل ، أي إنه بعد ما وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها ، بارك الله في نسلهم ليعدّ الشعب بالبلاء السابق للقيام بحقّ الشكر على النعم التي تمتع بها الآباء الذين حلّ بهم العذاب بكفرهم لها (تفسير المنار : ١ / ٣٢٢).

ج ١ ، ص : ١٦٧

إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت ، وتعتقدوا أن الله قادر على كل شيء . والشكر المطلوب : هو الإيمان بالله وكتبه وبمحمد صلى الله عليه وسلم.

وقال بعض المفسرين في تفسير بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ : علمناكم من بعد جهلكم. قال القرطبي : والأول أصح ، لأن الأصل في الكلام الحقيقة ، وكان موت عقوبة ، ومنه قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ، وَهُمْ أُلُوفٌ ، حَذَرَ الْمَوْتِ ، فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ : مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ [البقرة ٢ / ٢٤٣] » ١ .

٧- ثم سترناكم بالسحاب الأبيض الرقيق من حرّ الشمس ، أثناء وجودكم في وادي التيه بين الشام ومصر مدة أربعين سنة ، حيارى تائهين ، بعد أن خرج آباؤكم من مصر ، وجاوزوا البحر.

٨- ثم أنعمنا عليكم بأنواع من الطعام والشراب كالمنّ الذي هو مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه ، والسلوى الذي هو طير يشبه السّماني لذيذ الطعم ، وكان المنّ ينزل عليهم نزول الضباب من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وتأتيهم السّماني ، فيأخذ كل واحد ما يكفيه إلى الغد. وقلنا لكم : كلوا من ذلك الرزق الطيب ، واشكروا الله ، فلم يفعلوا ، وكفروا تلك النعم الجزيلة ، ولم يضرّوا إلا أنفسهم ، حيث قطع الله عنهم هذه النعم ، وجازاهم على مخالفتهم ، فكان. وبال عصيان عائدا عليهم.

(١٦٦/١)

٩- واذكروا أيضا نعمتي عليكم حين قلنا لكم بعد خروجكم من التيه : ادخلوا القرية ، قال الجمهور : هي بيت المقدس ، وقيل : أريحاء من بيت المقدس ، واسكنوا فيها ، وكلوا واشربوا منها أكلا واسعا هنيئا لا حرج فيه ، وادخلوا باب القرية ساجدين لله خاضعين مبتهلين إلى الله وحده ، شكرا لله تعالى على خلاصكم

(١) تفسير القرطبي : ١ / ٤٠٥

ج ١ ، ص : ١٦٨

من التيه ، وقولوا : يا ربنا ، حطّ عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا ، وسنزيد المحسنين ثوابا من فضلنا وأجرا

جزيلًا. والمحسن : من صحح أساس توحيده ، وأحسن سياسة نفسه ، وأقبل على أداء فرائضه ، وكفى المسلمين شرّه.

فخالف الظالمون الأمر ولم يتبعوه ، معبرا عن المخالفة بالتبديل ، إشارة إلى أن المخالف كأنه أنكر الأمر وادعى أنه أمر بغيره ، ودخلوا زاحفين على أستاذهم ، أي أديبارهم ، غير خاضعين لله ، فكان جزاؤهم إنزال العذاب الشديد من السماء وهو الرجز ، وهو في رأي جماعة من المفسرين ، الطاعون ، بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله ، قيل : هلك منهم سبعون ألفا بالطاعون.

١٠- واذكروا يا بني إسرائيل نعمة أخرى حين عطش آبائكم من شدة الحر في التيه ، وطلبوا من موسى عليه السلام السقيا ، فأمره الله أن يضرب بعصاه أي حجر ، فضرب فانفجرت منه المياه المتدفقة بقوة ، وخرجت منه اثنتا عشرة عينا ، لكل جماعة منهم عين يشربون منها حتى لا تقع بينهم الشحناء ، وكانوا اثني عشر سبطا ، وهم ذرية أبناء يعقوب الاثني عشر ، وقال الله لهم : كلوا من المن والسلوى ، واشربوا من هذا الماء ، من غير تعب ، ولا تفسدوا في الأرض بأن تنشروا الفساد في الأرض ، وتكونوا قدوة لغيركم فيه ، أو لا تتمادوا في الفساد في حالة إفسادكم.

(١٦٧/١)

وكان تفجير الماء بعضا موسى معجزة ظاهرة له ، وهي لا تكون لغير نبي ، والمراد بالحجر الجنس ، أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر ، قال الحسن البصري : لم يأمره أن يضرب حجرا بعينه ، وهذا أظهر في الحجة ، وأبين في القدرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن مخاطبة بني إسرائيل المعاصرين لنزول القرآن وتذكيرهم بالتعم التي أنعم

ج ١ ، ص : ١٦٩

الله بها على أصولهم ، دليل واضح على وحدة الأمة ، وتكافل أفرادها ، وأن السعادة والشقاوة تعم الجميع من أصول وفروع ، وإن لم يسأل الفرع عما فعل أصله ، لكنه يتضرر بسوء أصله ، وينتفع باستقامة أصله ، كما قال تعالى في تعميم العذاب : **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** [الأنفال ٨ / ٢٥] ، وقال سبحانه في كنز الغلامين اليتيمين تحت الجدار : **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** [الكهف ١٨ / ٨٢] ، فكان صلاح الأب أو الجد سببا في صلاح الابن أو الحفيد نفسه ، وفي حفظ المال لذريته ، أي أن الصلاح يفيد في النفس والمال.

وفي قوله تعالى : **وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** [البقرة ٢ / ٥٧] ، إيماء إلى أن كل ما يأمر به الله من عبادة فإنما نفعه لهم ، وما ينهاهم عنه ، فإنما ذلك لدفع ضرر يقع بهم ، وهو بمعنى قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا**

النَّاسُ ، إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ [يونس ١٠ / ٢٣] ، وقوله : لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ [البقرة ٢ / ٢٨٦].

(١٦٨/١)

أما تفجير الماء من الحجر فكان معجزة لموسى عليه السّلام ، والمعجزات كلها من صنع الله ، وهي سنة جديدة غير ما نشاهد من العادات كل يوم ، أما المخترعات العلمية فهي مبنية على السنن العلمية باستخدام طاقات الكون من الأثير والهواء والنفط والكهرباء وغير ذلك. وكان الله قادرا على تفجير الماء وفلق البحر بلا ضرب عصا ، ولكنه جلّت قدرته أراد أن يعلم عباده ربط المسببات بأسبابها ، ليسعوا في الحصول على تلك الأسباب بقدر الطاقة. ومثل ذلك أيضا معجزات عيسى عليه السّلام ، كان الله قديرا على أن يخلق الطير من الطين ومن غير الطين ، ولم يكن هناك داع لنفخ الملك في مريم ، لأن طريق القدرة كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران ٣ / ٤٧] ، ولكن شاء الله أن تظهر قدرته بطريق التدرّج ، ليتبين الفرق بين الطين والطير بالحياة ، وكان خلق عيسى عليه السّلام من نطفة الأم فقط ، ونفخ الروح كان بإذن الله وقدرته : كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران ٣ / ٤٧] وكل ذلك تقريب لفهم المعجزة.

ج ١ ، ص : ١٧٠

وكان إمداد اليهود بالنعم من أجل شدهم إلى منهج الاستقامة ، وتخليصهم بالتوبة من الخطايا التي كانوا يرتكبونها ، وذلك كله على سبيل العظة والعبرة.

وكان إبقاء اليهود في التّيه أربعين سنة من أجل خروج جيل جديد يتربى على العقائد الحقّة وفضائل الأخلاق ، وانقراض ذلك الجيل الذي تأصلت فيه جذور الوثنية وعبادة العجل.

(١٦٩/١)

و حينما أمر الله اليهود بالدخول في باب القرية سجّدا قائلين : حطّوا ، بدّلوا ودخلوا الباب ، يزحفون على أستاههم ، وقالوا : حبة في شعرة ، وكان قصدهم خلاف ما أمرهم الله به ، فعصوا وتمردوا واستهزّوا ، فعاقبهم الله بالرجز وهو العذاب. وفي هذا دليل على أن تبديل الأقوال المنصوص عليها في الشريعة لا يجوز إن كان التّعبد بلفظها ، لذمّ الله تعالى من بدّل ما أمر به بقوله. أما إن كان التّعبد بمعناها فيجوز تبديلها بما يؤدّي ذلك المعنى ، ولا يجوز تبديلها بما يخرج عنه. وبناء عليه أجاز جمهور العلماء للعالم بمواقع الخطاب البصير بآحاد كلماته رواية الحديث النبوي بالمعنى ، لكن بشرط المطابقة للمعنى بكماله. واتفق العلماء على جواز نقل الشرع للأعاجم غير العرب بلسانهم وترجمته

لهم ، وذلك هو النقل بالمعنى. وقد فعل الله ذلك في كتابه فيما قصّ من أنباء ما قد سلف ، فقصّ قصصا ذكر بعضها في مواضع بألفاظ مختلفة والمعنى واحد ، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربي ، وهو مخالف لها في التقديم والتأخير ، والحذف والإلغاء ، والزيادة والنقصان. وإذا جاز إبدال العربية بالعجمية ، فلأن يجوز بالعربية أولى. وأما

حديث « نَصَرَ اللَّهُ وَجْهَ امرئ سمع مقالتي ، فبلغها كما سمعها »

فالمراد حكمها ، لا لفظها ، لأن اللفظ غير معتدّ به « ١ » .

وأما تعذيب بني إسرائيل بإنزال الرجز (أي العذاب) من السماء ، فكان

(١) تفسير القرطبي : ١ / ٤١١ - ٤١٣

ج ١ ، ص : ١٧١

(١٧٠/١)

بسبب فسقهم كما قال تعالى : بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ، وفي سورة الأعراف : بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦) (٢) ، والفسق في الشرع : عبارة عن الخروج من طاعة الله إلى معصيته. وهذا الفسق هو الظلم المذكور في قوله تعالى : عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا وَفَانِدَةُ التَّكْرَارِ : التأكيد ، والحق كما قال الرازي « ١ » : أنه غير مكرر لوجهين : الأول : أن الظلم قد يكون من الصغائر ، وقد يكون من الكبائر.

الثاني : يحتمل أنهم استحقوا اسم الظالم بسبب ذلك التبديل ، فنزل الرجز عليهم من السماء ، بسبب ذلك التبديل ، بل للفسق الذي كانوا فعلوه قبل ذلك التبديل ، وعلى هذا الوجه يزول التكرار.

وأفادت آية وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ تَقْرِيرَ سَنَةِ الْاسْتِسْقَاءِ ، بإظهار العبودية والفقر والمسكنة والدّلة مع التوبة النصوح. وقد أقرت شريعتنا سنة الاستسقاء بالخروج إلى المصلى والخطبة والصلاة في رأي جمهور العلماء ، لأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم استسقى ، فخرج إلى المصلى متواضعا متذللًا مترسلا متضرعا. وذهب أبو حنيفة إلى أنه ليس من سنة الاستسقاء صلاة ولا خروج ، وإنما هو دعاء لا غير ، واحتج بحديث أنس في صحيح البخاري ومسلم. قال القرطبي :

ولا حجة له فيه ، فإن ذلك كان دعاء عَجَلَتْ إجابته ، فاكتمى به عما سواه ، ولم يقصد بذلك بيان

سنته ، ولما قصد البيان بين بفعله ، حسبما

رواه مسلم عن عبد الله بن زيد المازني ، قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المصلى ، فاستسقى ، وحول رداءه ، ثم صلى ركعتين » « ٢ » .

ودلّ قوله تعالى : كُلُّوا وَاشْرَبُوا ، وَوَلَا تَعْنُوا ، على إباحة النعم وتعدادها ، والنهي عن المعاصي

والإنذار بعقوبتها وأضرارها.

(١) تفسير الرازي : ٩١ - ٩٢ / ٣

(٢) تفسير القرطبي : ١٨ / ٤

ج ١ ، ص : ١٧٢

(١٧١/١)

مطامع اليهود وبعض جرائمهم وعقوباتهم [سورة البقرة (٢) : آية ٦١]
وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا
وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
النَّبِيَّ بَغْيَ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)
الإعراب :

يُخْرِجُ فعل متعد إلى مفعول واحد ، وهو محذوف ، وتقديره : يخرج لنا ما كولا .
مِنْ للبيان بدل من مِمَّا . مِصْرًا صرفه إما لأنه أراد به مصرًا من الأمصار ، لا مصر بعينها ، أو لأنه اسم
البلد وهو مذكر ، أو لأنه - وإن كان مؤنثا معرفة - على ثلاثة أحرف أوسطها ساكن ، فجاز أن تصرف
كهند ودعد وجمل ونوح ولوط .
البلاغة :

طَعَامٍ وَاحِدٍ أراد بالواحد : ما لا يختلف ولا يتبدل . مِمَّا تُنْبِتُ أضاف الإنبات إلى الأرض على سبيل
المجاز العقلي ، وعلاقته السببية ، لأن الأرض سبب للنبات . وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ استعارة
بالكناية عن إحاطتهما بهم ، كما تحيط القبة بمن تحتها . بَغْيَ الْحَقِّ زيادة في التشنيع على قبح
العدوان .

والقائل في قوله تعالى : قَالَ : أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى هُوَ موسى نفسه ، والاستفهام للإنكار ،
والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : فما ذا قال لهم ؟ فقيل : قال .
المفردات اللغوية :

بَقْلِهَا البقل : كل ما اخضرت به الأرض من البقول والخضروات . القثاء هو الخيار

ج ١ ، ص : ١٧٣

(١٧٢/١)

المعروف. الفوم الثوم ، بدليل قراءة ابن مسعود : « و ثومها » ، ولاقتران البصل بعده.
أدنى أقل مرتبة ، إما من الدنو : وهو القرب ، أو من الدون ، كما تقول : هذا دون ذاك ، أي أقل
مقدارا ، والدنو والقرب يعبر بهما عن قلة المقدار. مِصْراً بلدا من البلدان الزراعية.
ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ جعلت ووضعت عليهم. الذَّلَّةُ الدَّلُّ والهوان. الْمَسْكَنَةُ الفقر والحاجة. وَبَاؤُ بِغَضَبٍ رجعوا
متلبسين به. ذَلِكَ أي الضرب والغضب. بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم فالباء سببية. وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ كَرْبَا ويحيى
عليهما السلام. يَغْيِرُ الْحَقُّ أي ظلما. يَعْتَدُونَ يتجاوزون الحدَّ في المعاصي. وكرر ذَلِكَ للتأكيد ، وقصد
بال تكرار التعليل ، وهو ردُّ إلى علة الجزاء وتأكيد للإشارة إليه ، والباء في بِمَا باء السبب ، أي
بعضيائهم ، والعصيان : خلاف الطاعة ، والاعتداء : تجاوز الحدَّ في كل شيء.
التفسير والبيان :

واذكروا أيها اليهود إذ قال أسلافكم من قبل : يا موسى ، لا يمكن أن نستمر على طعام واحد ، وهو
المنّ والسلوى- ومخاطبة اليهود المعاصرين مع أن الجناية من آبائهم دليل على مبدأ تكافل الأمة
الواحدة- فاطلب لنا من ربك أن يطعمنا مما تنبت الأرض من أطيب البقول التي يأكلها الناس كالنعناع
والكرفس والكراث وأشباهاها ، وإنما سألوه الدعاء ، لعلمهم أن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من
دعاء غيرهم.

فقال موسى متعجبا ومويخا مستنكرا : أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وأهنا ، وهو
المنّ والسلوى ، الأول فيه الحلاوة المألوفة ، والثاني أطيب لحوم الطير ، وهما غذاء كامل لذيد ؟ وإذ
طلبتم الأدون نفعا وخيرا ، فاهبطوا وانزلوا من التّيه « ١ » واسكنوا في أي بلد زراعي ، فإن لكم فيه ما
طلبتم.

(١٧٣/١)

و قد كنّا عن المنّ والسلوى بطعام واحد ، وهما اثنان : لتكرارهما في كل يوم غذاء ، كما تقول لمن
يдаوم على الصوم والصلاة والقراءة : هو على أمر واحد ، لملازمته ذلك.

(١) بلاد التّيه : ما بين بيت المقدس إلى قنسرين ، وهي اثنا عشر فرسخا في ثمانية فراسخ.

ج ١ ، ص : ١٧٤

لكن الله تعالى عاقبهم على كفران تلك النعم ، وعلى الاستهزاء بآيات الله التي آتاها موسى وهي
معجزاته الباهرة ، وعلى قتلهم الأنبياء ظلما ، فهم قتلوا أشعيا وزكريا ويحيى وغيرهم بغير مسوغ للقتل ،

وكانت عقوبتهم إلحاق الدّل والهوان بهم في الدنيا ، ذلًا وهوانًا ملازمًا لهم ومحيطًا بهم ، كما تحيط الخيمة بمن فيها ، والدليل عادة يستخذي ويستهن ، ثم استحقاق غضب الله وبلائه ونقمته في الدنيا وعذابه الأليم في الآخرة.

وكان ذلك العقاب بسبب عصيانهم أوامر ربهم عصيانًا متكررًا ، وتعديهم حدود دينهم ، واعتدائهم على الناس ومنهم الأنبياء ، فعلة جزائهم أمران : أنهم كانوا يعصون ويعتدون ، والعصيان : فعل المناهي ، والاعتداء : المجاوزة في حدّ المأذون فيه والمأمور به.

وضرب الدّلة والمسكنة أي الدّل والفقر والحاجة على اليهود ، وإن كانوا ذوي مال ، أمر قائم على أساس الشعور الذاتي النابع من أعماق النفس ، فهم في فقر دائم وذلّ مستمر ، وقد ورثوا صفات الدّل وضعف النفس وامتھانها وحقارة التصرفات ودناءة الأخلاق ، فلا يكادون يحسون بغنى النفس وعزتها ، ولا تشبع نفوسهم ، ولا ترتوي من شيء ، وتظل أطماعهم وأحقادهم مسيطرّة عليهم ، حتى إنهم يعبدون المادة ، ويؤلهون المال ، وذلك كله بسبب إحساسهم الداخلي بالاستزادة من الأموال.

(١٧٤/١)

و قيام دولة لليهود أيضا لا يصادم هذه الآية التي تقرر إلحاق الدّل والهوان بهم ، لأن مقومات الدولة الحقيقية غير متوافرة لهم ، وهم في أمسّ الحاجة دائما إلى الشعور بالطمأنينة والاستقرار ، مما أحوجهم إلى الدعم المستمر غير المتناهي اقتصاديا وسياسيا وعسكريا ، من الدول الكبرى ، وعلى رأسها أمريكا.

ج ١ ، ص : ١٧٥

فقه الحياة أو الأحكام :

إن ترك الأفضل من المطعومات وهو المنّ والسلوى ، وطلب الأدنى مرتبة منه من بصل وثوم وعدس وخيار ونحوها ، دليل على أن النفس البشرية قد تبدل الطيب بالخبيث ، والأرقى بالأدنى. قال الحسن البصري : كان اليهود نتاني أهل كراث وأبصال وأعداس ، فنزعوا إلى عكرهم « ١ » عكر السوء ، واشتافت طباعهم إلى ما جرت عليهم عادتهم ، فقالوا : لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ « ٢ » . وقولهم : لَنْ نَصْبِرَ يَدْلَ عَلَى كَرَاهَتِهِمْ ذَلِكَ الطَّعَامَ . وعدم الشكر على النعمة دليل الزوال ، فكأنهم طلبوا زوالها ومجيء غيرها.

أما أكل البصل والثوم وماله رائحة كريهة من سائر البقول ، فهو مباح في رأي جمهور العلماء ، للأحاديث الثابتة فيه ، لكن ينبغي على الآكل أن يتجنب حضور أماكن التجمع في المساجد ونحوها ، لئلا يتأذى الناس بالروائح الكريهة.

روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم حين أكلوا الثوم زمن خيبر وفتحها : « أيها الناس ، إنه ليس لي تحريم ما أحلّ الله ولكنها شجرة أكره ريحها » .
ودلت الآية على جواز أكل الطيبات والمطاعم المستلذات ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الحلوى والعسل ، ويشرب الماء البارد العذب.

(١٧٥/١)

و إن الجزاء الذي أنزله الله باليهود من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم ، حق وعدل ومطابق لجرائهم ، وهي الاستكبار عن اتباع الحق ، وكفرهم بآيات الله ، وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم ، حتى إنهم قتلوهم ظلما وعدوانا بغير حق ، لأن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يقتلون به ، فلم يأت نبي

(١) العكر : الأصل ، وقيل : العادة والديدن. والعكر (بالتحريك) : دردي كل شي ء. [.....]

(٢) تفسير القرطبي : ١ / ٤٢٢

ج ١ ، ص : ١٧٦

قط بشيء يوجب قتله ، فصرح تعالى بقوله : يَغْيِرِ الْحَقُّ عَلَى شناعة الذنب ووضوحه.
روى الإمام أحمد عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة : رجل قتله نبي ، أو قتل نبيا ، وإمام ضلالة ، وممثل من الممثلين »
أي بالتمثيل بالقتلى.

فإن قيل : كيف جاز أن يخلى بين الكافرين وقتل الأنبياء ؟ أجيب ذلك كرامة لهم ، وزيادة في منازلهم ، كمثل من يقتل في سبيل الله من المؤمنين ، وليس ذلك بخذلان لهم. قال ابن عباس والحسن البصري : لم يقتل نبي قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال ، وكل من أمر بقتال نصر.

عاقبة المؤمنين بنحو عام [سورة البقرة (٢) : آية ٦٢]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

الإعراب :

مَنْ إما مرفوعة أو منصوبة ، فالرفع على أن مَنْ شرطية مبتدأ ، وَلَهُمْ جواب الشرط ، وخبر المبتدأ ،
والجملة خبر إنَّ والنصب على أنها بدل من الَّذِينَ فيبطل معنى الشرط ، وتكون الفاء في فَلَهُمْ داخلة

لجواب الإبهام ، ويقصد بها التأكيد ، مثل قولك :

»

(١٧٦/١)

الذي يأتيني فله درهم » وتأكيد الشيء لا يغير معناه.

وروعي في ضمير « آمن ، وعمل » لفظ مَنْ وفيما بعده : عِنْدَ رَبِّهِمْ .. معناها ، وهي تقع على الواحد والتثنية والجمع ، فجاز رجوع الضمير إليها.

ج ١ ، ص : ١٧٧

المفردات اللغوية :

هاؤوا تهودوا ، من هاد : إذ دخل في اليهودية. وَالَّذِينَ هَادُوا هم اليهود وَالنَّصَارَى أتباع عيسى عليه السلام « ١ » وَالصَّابِئِينَ طائفة من اليهود أو النصارى عبدوا الملائكة أو الكواكب « ٢ » . مَنْ آمَنَ منهم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ في زمن نبينا وَعَمِلَ صَالِحاً بشريعته فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ ثواب أعمالهم. سبب النزول :

نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسي ، وكان من أهل جندسابور من أشرافهم « ٣ » . و أخرج ابن أبي حاتم والعدني في مسنده عن مجاهد قال : سألت النبي صَلَّى الله عليه وسلّم عن أهل دين كنت معهم ، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت : إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا الآية « ٤ » . و

أخرج الواحدي عن مجاهد قال : لما قص سلمان على رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم قصة أصحابه قال : هم في النار. قال سلمان : فأظلمت عليّ الأرض ، فنزلت إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا إلى قوله :

يَحْزَنُونَ قال : فكأنما كشف عني جبل « ٥ » .

المناسبة :

اتبع الأسلوب القرآني منهج التذكير في ثنايا بيان القصة القرآنية ، وفتح باب الأمل لدفع اليأس والقنوط أثناء توضيح الأسباب الموجبة للعقاب ، للفت النظر وجذب الانتباه ، وهكذا كان الأمر هنا ، فبعد أن ذكر الله اليهود بأفعال أسلافهم قديما ، وأوضح مصيرهم وجزاءهم ، ليعتبر المعاصرون ، أورد مبدأ عاما

(١) سموا بالنصارى نسبة إلى قرية في فلسطين يقال لها : ناصرة ، وكان عيسى بن مريم ينزلها.

)

(٢) قال الطبري : والصابئون جمع صابئ ، وهو المستحدث سوى دينه دينا كالمترد من أهل الإسلام عن دينه ، وكل من خرج من دين إلى آخر يسمى صابئا.

(٣) تفسير الطبري : ١ / ٢٥٤ ، وهذا ما أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي.

(٤) أسباب النزول للسيوطي بهامش الجلالين : ص ١٤

(٥) أسباب النزول للواحدي : ص ١٣ وما بعدها.

ج ١ ، ص : ١٧٨

لكل المؤمنين : وهو أن كل مؤمن بالله واليوم الآخر تمسك بحبل الدين المتين ، وعمل صالحا ، فهو من الفائزين ، سواء أكان من المسلمين أم من اليهود ، أم من النصارى أم من الذين تركوا دينهم مطلقا وأسلموا ، قال تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ [الأنفال ٨ / ٣٨].

التفسير والبيان :

إن المصدقين رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أتى به من عند الله ، والذين تهودوا أو تنصروا ، أو بدلوا دينهم ، وآمنوا بالله وحده لا شريك له ، وبالبعث والنشور ، وعملوا صالح الأعمال ، فلهم ثواب عملهم الصالح عند ربهم ، ولا خوف عليهم من أهوال القيامة ، ولا هم يحزنون على ما تركوا من الدنيا وزينتها ، إذا عاينوا النعيم الدائم في الجنة.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن مدار الفوز والنجاة هو الإيمان الصحيح المقترن بالعمل الصالح.

ولست هذه الآية منسوخة ، وإنما هي فيمن ثبت على إيمانه من المؤمنين بالنبي عليه السلام.

ولا خلاف في أن اليهود والنصارى أهل الكتاب ، ولأجل كتابهم جاز نكاح نسائهم وأكل طعامهم ، كما تقرر في سورة المائدة (الآية : ٥) وفرض الجزية عليهم ، كما أوضحت سورة براءة (الآية ٢٩) واختلف في الصائبين :

فقال جماعة (السدي وإسحاق بن راهويه وأبو حنيفة) : لا بأس بذبائهم ومناكحة نسائهم.

و قال آخرون (مجاهد والحسن البصري وابن أبي نجيح) : لا تؤكل ذبائهم ولا تنكح نسائهم.

ج ١ ، ص : ١٧٩

و الحاصل : أن الصابئة قوم موحدون معتقدون تأثير النجوم ، وأنها فعالة « ١ » .

بعض جرائم اليهود وعقابهم [سورة البقرة (٢) : الآيات ٦٣ الى ٦٦]

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)

الإعراب :

خُذُوا ما آتَيْنَاكُمْ فيه محذوف ، تقديره : قلنا لهم : خذوا ما آتيناكم ، وحذف القول كثير في كلامهم .
ميثاقكم ولم يقل « موثيقكم » لأنه أراد ميثاق كل واحد منكم مثل ثم يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً [غافر ٤٠ / ٦٧] أي يخرج كل واحد منكم طفلاً .

فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ .. لو لا : حرف يمتنع له الشيء لوجود غيره ، تقول : لو لا زيد لأكرمتك ، فيكون امتناع الإكرام وجود زيد . فضل : مبتدأ مرفوع ، وخبره محذوف تقديره : موجود أو كائن .

كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ أمر تكوين ، لا أمر تكليف ، والمراد به تكونهم قردة . وقردة : خبر كان . وخاسئين : إما صفة لقردة ، أو خبر بعد خبر ، أو حال من الضمير في : كونوا .

(١) تفسير القرطبي : ١ / ٤٣٤ - ٤٣٥

ج ١ ، ص : ١٨٠

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا الضمير في الفعل يعود إما على المسخة أو يعود على القردة .

(١٧٩/١)

وكذلك « ها » في قوله لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا . ونكالا : مفعول به ثان .
أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا أي ذوي هزاء ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، ويجوز أن يكون التقدير :
أَتَتَّخِذُنَا مهزوءا بهم .

البلاغة :

خُذُوا فيه إيجاز بالحذف كما بينا ، أي قلنا لهم : خذوا .
كُونُوا قِرَدَةً ليس الأمر على حقيقته ، وإنما أريد به معنى الإهانة والتحقير لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا كناية
عمن أتى قبلها أو بعدها من الخلائق .
المفردات اللغوية :

مِثَاقُكُمْ المِثَاق : العهد المؤكد ، ويراد به هنا : العهد بالعمل. بما في التوراة الطُّورَ الجبل المعروف في شمال فلسطين بِقُوَّةٍ بجد ونشاط وَادُّكُرُوا ما فِيهِ بالعمل به تَتَّقُونَ النار أو المعاصي تَوَلَّيْتُمْ أعرضتم. اعتَدُوا تجاوزوا الحد السَّبَّتِ اليوم المعروف ، وقد نهاهم الله عن صيد السمك فيه ، وهم أهل أيلة وهي القرية التي كانت حاضرة البحر. خَاسِئِينَ بعيدين عن رحمة الله ، وقد هلكوا بعد ثلاثة أيام. فجعلناها نكالا أي تلك العقوبة عبرة تنكل من اعتبر بها ، أي تمنعه من ارتكاب مثل ما عملوا. لِمَا يَبَيِّنْ يَدِيهَا وَمَا خَلَفَهَا أي الأمم التي في زمانها أو بعدها وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ خص المتقون بالذكر ، لأنهم المنتفعون بها بخلاف غيرهم. والمتقون : الذين اتقوا بأداء فرائض الله واجتناب معاصيه. المناسبة :

كانت الآيات السابقة تذكيرا لبني إسرائيل بالنعم الجليلة ، وأما هذه الآيات فهي تنديد بالمخالفات والمعاصي التي ارتكبوها ، فإنهم نقضوا الميثاق أو العهد مع الله ، وتجاوزوا النهي الإلهي في السبت ، فأصبحوا كالقردة مبعدين عن رحمة الله والناس. وإذا كان هذا في بني إسرائيل الذين كانوا في عهد موسى عليه السلام ، ج ١ ، ص : ١٨١

(١٨٠/١)

فأجدر بسلاثلهم الذين كانوا في عصر تنزيل القرآن ألا يجحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، خوفا من أن يحل بهم ما حل بأسلافهم. التفسير والبيان :

واذكروا يا بني إسرائيل وقت أخذنا العهد على أسلافكم بالعمل بما في التوراة ، فرفضوا حتى رفع الله فوقهم الطور تخويفا وإرهابا ، وأمرهم أن يأخذوا بما فيها بجد ونشاط ومواظبة على العمل ، واذكروا ما في التوراة واعملوا بما فيها من الأحكام ، وتدبروا معانيها حتى تكونوا من المتقين ، لأن العلم يرشد إلى العمل ، والعمل يرسخ العلم في النفس ، ويطبع فيها سجية المراقبة لله ، وبها تصير تقية تنقي المعاصي ، نقية من الرذائل ، مرضية عند ربها ، كما قال تعالى : وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى [طه ٢٠ / ١٣٢].

فقبلتم إلى حين ، ثم أعرضتم بعد ذلك عن الطاعة ، فلو لا رحمة الله ولطفه بكم وإمهاله إياكم ، إذ لم يجعل عقوبتكم بما تستحقون ، لكنتم من الهالكين الخاسرين سعادي الدنيا والآخرة. ولقد علمتم شأن آبائكم الذين تجاوزوا الحد بصيد السمك يوم السبت ، وكان محرما فيه لقصره على العبادة ، فإن موسى عليه السلام حظر عليهم العمل في هذا اليوم ، وفرض عليهم فيه طاعة ربهم ،

وأباح لهم العمل في بقية أيام الأسبوع.

وكان جزاؤهم أنهم أصبحوا في مرتبة الحيوان ، يعيشون من دون عقل ووعي وتفكير ، ويتخبطون في أهوائهم ، كالقردة في نزواتها ، والخنازير في شهواتها ، يأتون المنكرات علانية ، بعيدين عن الفضائل الإنسانية ، حتى احتقرهم الناس ، ولم يروهم أهلاً للمعاشرة والمعاملة.

فمعنى صيورتهم قردة خاسئين : تصييرهم مبعدين عن الخير أذلاء صاغرين.

ج ١ ، ص : ١٨٢

(١٨١/١)

قال مجاهد : لم يمسخوا قردة ، ولم تمسخ صورهم ، وإنما مسخت قلوبهم ، فلا تقبل وعظا ، ولا تعي زجرا . وهو مثل ضربه الله لهم ، كما مثلوا بالحمار يحمل أسفارا ، في قوله تعالى : مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ، ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ، كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً [الجمعة ٦٢ / ٥] « ١ » .

ورأى جمهور المفسرين : أن صورهم مسخت بمعصيتهم ، فصارت صور القردة ، قال قتادة : صار الشبان قردة ، والشيخ خنازير ، فما نجا إلا الذين نهوا ، وهلك سائرهم.

والممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام.

وكذلك يفعل الله بمن شاء كما يشاء ، ويحوله كما يشاء « ٢ » .

وللآية نظير آخر ، هو قوله تعالى : وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أَي الشيطان [المائدة ٦٠ / ٥] .

قال ابن كثير : والصحيح أن المسخ معنوي صوري ، والله تعالى أعلم « ٣ » .

وعلى أي حال فإن الله تعالى عاقب بني إسرائيل بعقوبة المسخ ، أي كان نوعه وهو عقاب لكل فاسق خارج عن طاعة الله ، وعبرة لينكل من يعلم بها ، أي يمتنع من الاعتداء على حدود الله ، وهو أيضا عظة للمتقين ، لأن المتقي الحقيقي يتعظ بها ويتعد عن حدود الله : تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا [البقرة ٢ / ١٨٧] فأولى بكم أيها اليهود المعاصرون أن تتعظوا بما حل بأسلافكم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت هذه الآيات على أمور ثلاثة : رفع الطور ، والمسوخ ، وعظة العصاة.

(١) تفسير الطبري : ٢٦٣ / ١

(٢) المصدر السابق : ٢٦١ / ١ ، تفسير القرطبي : ٤٤٠ - ٤٤٣

(٣) تفسير ابن كثير : ١٠٦ - ١٠٧

ج ١ ، ص : ١٨٣
المخالفين أوامر الله ونواهيه.

(١٨٢/١)

أما رفع جبل الطور فوق اليهود كالمظلة : فكان إنذارا وإرهابا وتخويفا ، وهذه الآية تفسر معنى قوله تعالى : وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ [الأعراف ٧ / ١٧١] قال أبو عبيدة : المعنى زعزعناه فاستخرجناه من مكانه.

واختلف في الطور : ف قيل عن ابن عباس : الطور : اسم للجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ، وأنزل عليه فيه التوراة دون غيره. وقال مجاهد وقتادة : أي جبل كان. وسبب رفع الطور : أن موسى عليه السلام لما جاء بني إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة ، قال لهم : خذوها والتزموها ، فقالوا : لا! إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك ، فصعقوا ثم أحيوا ، فقال لهم : خذوها ، فقالوا : لا. فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا من جبال فلسطين طوله فرسخ « ١ » في مثله ، وكذلك كان عسكرهم ، فجعل عليهم مثل الظلة ، وأتوا ببحر من خلفهم ، ونار من قبل وجوههم ، وقيل لهم : خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها ، وإلا سقط عليكم الجبل. فسجدوا توبة لله ، وأخذوا التوراة بالميثاق. قال الطبري عن بعض العلماء : لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق « ٢ » . وكان سجودهم على شق ، لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفا ، فلما رحمهم الله قالوا : لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها عباده ، فجعلوا سجودهم على شق واحد. قال ابن عطية : والذي لا يصح سواه أن الله تعالى اخترع وقت سجودهم الإيمان في قلوبهم ، لا أنهم آمنوا كرها ، وقلوبهم غير مطمئنة بذلك.

(١) الفرسخ : ٣ أميال أو ٥٥٤٤ م أو ١٢٠٠٠ خطوة.

(٢) تفسير الطبري : ٢٥٧ / ١

ج ١ ، ص : ١٨٤

و روي عن مجاهد سبب آخر لرفع الطور قال : أمر موسى قومه أن يدخلوا الباب سجدا ، ويقولوا : حطة ، وطوطئ لهم الباب ليسجدوا ، فلم يسجدوا ، ودخلوا على أدبارهم ، وقالوا : حنطة ، فتق فوقعهم الجبل « ١ » .

(١٨٣/١)

و أما المسخ : فرأى الجمهور أن الله تعالى مسخ المعتدين من اليهود بصيد السمك يوم السبت ، وكان العمل فيه محرما من قبل موسى عليه السلام ، قال قتادة : صار الشبان قردة ، والشيخ خنازير ، فما نجا إلا الذين نهوا- وهي الفرقة التي نهت اليهود عن المخالفة وجاهرت بالنهي واعتزلت- وهلك سائرهم.

وروي عن مجاهد في تفسير هذه الآية : أنه إنما مسخت قلوبهم فقط ، وردت أفهامهم كأفهام القردة. وأما عظة المخالفين : فإن الله تعالى جعل عقوبة المسخ للعصاة الذين اعتدوا في السبت وصادوا السمك فيه بحيلة ، وقد ذكرها الله تعالى في سورة [الأعراف ١٦٣ / ٧] وهي قوله سبحانه : وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ، إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ، إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا ، وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ أي إنهم اتخذوا حواجز أو أحواضا أمام مد مياه البحر ، فإذا رجعت المياه بالجزر ، بقيت الأسماك محجوزة في الأحواض ، فيأتون في صبيحة يوم الأحد ويأخذونها.

كذلك كانت عقوبة اليهود الذين امتنعوا من العمل بالتوراة ، ففسوها وضيعوها ، ولم يتدبروها ولم يحفظوا أوامرها ووعيدها ، كانت عقوبتهم رفع جبل الطور فوقهم كالمظلة. وهذا يدل على أن المقصود بالكتب السماوية العمل بمقتضاها ، لا تلاوتها باللسان وترثيلها ، فإن ذلك نبذ لها.

(١) المرجع والمكان السابق.

ج ١ ، ص : ١٨٥

و هذا يعني أن مجرد التغني بألفاظ القرآن ، دون الاعتبار بعظاته ، والعمل بأحكامه ، لا يفيد شيئا. روى النسائي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من شر الناس رجلا فاسقا يقرأ القرآن ، لا يرعوي إلى شيء منه »

(١٨٤/١)

فبين صلى الله عليه وسلم أن المقصود بالكتب الإلهية العمل بها ، كما بينا.

قصة ذبح البقرة [سورة البقرة (٢) : الآيات ٦٧ الى ٧٣]

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ

لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاطِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١)
وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) (٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣)

ج ١ ، ص : ١٨٦

الإعراب :

لا فَارِضٌ إما خبر مبتدأ محذوف ، وتقديره : لاهي فارض ، أو صفة بقرة.
وَبَكَّرَ عطف عليه في الوجهين ، وهذان الوجهان في قوله : عَوَانٌ وقال : بَيَّنَ ذَلِكَ ولم يقل : بين ذينك ، لأنه أراد بين هذا المذكور . ما تُؤْمَرُونَ أي تؤمرون به ، مثل فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ [الحجر ١٥ / ٩٤] أي بالذي تؤمر به.

(١٨٥/١)

ما لَوْنُهَا ما : مبتدأ و « لونها » خبره ، ويجوز العكس. صَفْرَاءُ صفة لبقرة لَوْنُهَا مرفوع بفاع ، ارتفاع الفاعل بفعله. ويجوز كونه مستأنفا مبتدأ ، وخبره : تَسُرُّ النَّاطِرِينَ وجاز جعل الخبر تَسُرُّ بلفظ التأنيث ، إما لأن اللون بمعنى الصفرة أي صفرتها تسر ، والحمل على المعنى كثير في كلامهم ، وإما لأنه أضيف اللون إلى مؤنث ، والمضاف يكتسب من المضاف إليه التأنيث ، كقراءة « تلتقطه بعض السيارة » وقد قالوا : ذهب بعض أصابعه.

لا ذَلُولٌ إما صفة بقرة ، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره : لا هي ذلول ، وهذان الوجهان في قوله : مُسَلَّمَةٌ وكذلك في قوله : لا شِئَةَ فِيهَا إلا أنه يكون خبرا ثانيا ل « هي » المقدرة ، والهاء في « شية » عوض عن الواو ، وأصله : وشي.

الآن ظرف زمان للوقت الحاضر ، وهو مبني.

كَذَلِكَ

الكاف الأولى كاف تشبيه في موضع نصب ، لأنها صفة مصدر محذوف ، وتقديره : يحيي الله الموتى إحياء مثل ذلك.

بِغَائِلٍ في موضع نصب على لغة الحجازيين ، وفي موضع رفع على لغة تميم.

البلاغة :

فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ فيه إيجاز بالحذف ، والتقدير : فطلبوا البقرة الجامعة للأوصاف المطلوبة

ووجدوها ، فلما اهتمدوا إليها ذبحوها.

وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ جملة اعتراضية بين قوله : فَأَدَارَأْتُمْ وقوله فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ

. وفائدة الاعتراض إشعار المخاطبين بأن الحقيقة ستنجلي حتما.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ استعارة تصريحية ، وصف القلوب بالصلابة والغلظ ، وأريد منه : نبوها

ج ١ ، ص : ١٨٧

عن الاعتبار وعدم الاتعاض فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ تشبيه مرسل مجمل ، لأن أداة الشبه مذكورة ، ووجه الشبه محذوف.

لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ مجاز مرسل أي ماء الأنهار من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال فيه.

المفردات اللغوية :

(١٨٦/١)

هُزُواً : مهزوءا بنا أو سخرية ، حيث تطلب منا ذبح بقرة. أَعُوذُ أَمْتَنُعَ الْجَاهِلِينَ المستهزئين في موضع الجدل.

لَا فَارِضٌ مَسْنَةٌ. وَلَا يَكْرُ فِتِيَةً صَغِيرَةً عَوَانٌ نصف بين الصغيرة والكبيرة بَيْنَ ذَلِكَ المذكور من السنين ما تُؤْمَرُونَ به من ذبحها.

فَاقِعٌ لَوْنُهَا شَدِيدَةٌ الصَفْرَةُ تَسْرُ النَّاطِرِينَ إِلَيْهَا بحسنها ، أي تعجبهم.

مَا هِيَ أَسَاءَةٌ أَمْ عَامِلَةٌ إِنَّ الْبَقَرَ جِنْسَهُ الْمَنْعُوتَ بما ذكر تَشَابَهُ عَلَيْنَا لكثرتة ، فلم نهتد إلى المقصود إِنَّ شَاءَ اللَّهُ لَمْهُتَدُونَ إِلَيْهَا ،

ورد في الحديث النبوي : « لو لم يستثنوا - أي يقولوا : إن شاء الله - لما بينت لهم آخر الأبد » .

لَا ذُلُولٌ لَيْسَتْ مَذْلَلَةٌ بِالْعَمَلِ. تُثِيرُ الْأَرْضَ تَقْلِبُهَا لِلزَّرْعَةِ أي تحرث الأرض والجملة صفة ذلول ، داخلة في النفي وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ الْأَرْضُ المهيأة للزراعة مُسَلَّمَةٌ سليمة من العيوب وآثار العمل لَا شَيْءَ لَا لَوْنَ غير لونها ، ولا لمعة فيها من لون آخر ، سوى الصفرة ، فهي صفراء كلها ، حتى قرننها وظلفها ، وهي في الأصل مصدر : وشى وشيا : إذا خلط بلونه لونا آخر. قَالُوا : الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ نطقت بالبيان التام ، فطلبوها فوجدوها عند الفتى البار بأمه ، فاشتروها بملء جلدتها ذهباً فَدَبَّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ لغلاء ثمنها ،

ورد في الحديث النبوي : « لو ذبحوا أي بقرة كانت ، لأجزأتهم ، ولكن شددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليهم » .

فَأَدَارَأْتُمْ تدارأتم بمعنى تخاصمتم وتدافعتم وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَظْهَرِ تَكْتُمُونَ من أمرها.

اضْرِبُوهُ

القتيل. بَعْضُهَا

فَضْرِبْ بِلِسَانِهَا أَوْ عَجِبْ ذَنْبَهَا ، فَحْيِي وَقَالَ : قَتَلَنِي فُلَانٌ وَفُلَانٌ وَكَانَا ابْنِي عَمِّهِ ، فَحَرَمَا الْمِيرَاثَ وَقَتَلَا. تَعْقِلُونَ

تتدبرون فتعلمون أن القادر على إحياء نفس واحدة ، قادر على إحياء نفوس كثيرة فتؤمنون.

ج ١ ، ص : ١٨٨

المناسبة :

(١٨٧/١)

ترتبط هذه الآيات بما قبلها التي ذكر فيها بعض جرائم اليهود ، من نقض الميثاق ، والاعتداء في السبت ، والتمرد في تطبيق التوراة ، فهي استمرار في تعداد مساوئهم ، وهي مخالفتهم الأنبياء ومعاندة الرسل عليهم السلام ، والتلكؤ في امتثال أوامر الله تعالى.

سبب القصة :

روى ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال : « كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ، ثم احتمله ليلاً ، فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض .

فقال ذوو الرأي منهم والنهي : علام يقتل بعضكم بعضاً ، وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام ، فذكروا ذلك له ، فقال : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً .. قال : فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أذن بقره ، ولكنهم شددوا ، فشدد عليهم ، حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها.

فقال : والله ، لا أنقصها من ملء جلدتها ذهاباً ، فأخذوها بملء جلدتها ذهاباً ، فذبحوها ، فضربوه ببعضها ، فقام ، فقالوا : من قتلك ؟ فقال : هذا - لابن أخيه ، ثم مال ميتاً ، فلم يعط من ماله شيئاً ، فلم يورث قاتل بعد « ١ » ، و

في رواية : « فأخذوا الغلام فقتلوه » .

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ١٠٨ [.....]

ج ١ ، ص : ١٨٩

التفسير والبيان :

واذكروا أيها اليهود وقت قول موسى لقومه أسلافكم : إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً أي بقرة كانت ، فلم يمتثلوا ، وشدّدوا ، فشدد الله عليهم . وقالوا :
أ تهزأ بنا يا موسى ، نسألك عن أمر القتل ، فتأمرنا بذبح بقرة! قال : ألتجئ إلى الله من الهزء والسخرية بالناس في موضع الجد ، إذ هو في مقام تبليغ أحكام الله دليل السفه والجهل .

(١٨٨/١)

فلما رأوه جادا ، سألوهم عن صفاتها المميزة لها ، وأكثروا من الأسئلة ، فسألوهم عن سننها ، فقال لهم : إنها ليست صغيرة ولا كبيرة ، بل وسط بين الأمرين ، فامثلوا الأمر ، ولا تشدّدوا فيشدّد الله عليكم . ولكنهم تعنتوا ، فسألوهم عن لونها ، فقال : إنها صفراء شديدة الصفرة تسر الناظر إليها ، فلم يكتفوا بذلك ، بل طالبوا بأوصاف مميزة أخرى ، وقالوا معتردين : إن البقر كثير متشابه علينا ، وإنا إن شاء الله لمهتدون إلى المطلوب ،
روي أنه صلى الله عليه وسلّم قال : « لو لم يستشئوا ويقولوا : إن شاء الله ، لما تبينت لهم آخر الأبد . »

قال : إن الله يقول : إنها بقرة لم تذلل بالعمل في الحراثة والسقي ، وهي سالمة من العيوب ، ولا لون فيها غير الصفرة الفاقعة .
قالوا : إنك الآن جئت بإظهار الحقيقة الواضحة . فطلبوها ، فلم يجدوها إلا عند يتييم صغير بار بأمه ، فساوموه ، فتغالى ، حتى اشتروها بملء جلد لها ذهباً .
وما كان امثالهم قريب الحصول . قال ابن عباس : « لو ذبحوا أي بقرة أرادوا لأجزأتهم ، ولكن شددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليهم » .

واذكروا أيها اليهود المعاصرون حين قتلتم نفساً ، وهذا من قبيل التأخير لفظاً والتقديم معنى للتشويق في معرفة سبب ذبح البقرة ، وأسند القتل إلى

ج ١ ، ص : ١٩٠

المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلّم ، لأنهم من سلالة السابقين ، وهم معزون بنسبهم ، راضون بفعلهم . وكذلك أسند القتل إلى الأمة والقاتل واحد ، لأن الأمة متضامنة ، وهي في مجموعها كالشخص الواحد ، فيؤخذ المجموع بجريرة الواحد ، وفيه توبيخ وتقريع للغابرين والحاضرين ، والجماعة والأفراد .

(١٨٩/١)

و اذكروا حادثة القتل في تاريخكم ، وتخاصمكم وتدافعكم في شأنه ، فكل واحد يدرك القتل عن نفسه ويدعي البراءة ويتهم سواه ، والله أنكر فعلهم وكتمانهم ، وأنتم اليوم تكتُمون ما عندكم من أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم ، والله مظهر لا محالة ما تكتُمونه وتسترونه من أمر القتل ، فقلنا : اضربوا القتل ببعض أجزاء البقرة المذبوحة ، فضربوه ، فأحياء الله ، وأخبر عن القتل. ومثل ذلك الإحياء العجيب ، يحيي الله الموتى يوم القيامة ، فيجازي كل إنسان بعمله ، وكذلك يريكم الله آياته الواضحة الدالة على صدق القرآن والنبي ، حيث يخبر بالمغيبات ، كي تعقلوا وتؤمنوا بالنبي والقرآن ، لعلكم تفقهون أسرار الشريعة وفائدة الخضوع لها ، وتمنعون أنفسكم من اتباع أهوائها ، وتطيعون الله فيما يأمركم به.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه القصة فيها العبرة والعظة ببيان بعض مساوئ اليهود ومواقفهم المتشددة والمعاندة ، وأهم العظات ما يلي :

١- ليس التشدد في الدين محمودا ، وليس الإلحاف في كثرة السؤال مرغوبا فيه ، لذا نهانا الله تعالى عن ذلك وقت نزول القرآن ، بقوله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ [المائدة ٥ / ١٠١] و

قوله صلى الله عليه وسلم- فيما رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص : « إن أعظم المسلمين في المسلمين جرما : من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين ، فحرم عليهم من أجل مسألته » و

قوله عليه السلام فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما ج ١ ، ص : ١٩١

أمرتكم به ، فاتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم » و

قوله أيضا فيما رواه البخاري ومسلم : « ... وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »

(١٩٠/١)

و السؤال المنهي عنه : مثل السؤال عما أخفاه الله تعالى عن عباده ولم يطلعهم عليه ، كالسؤال عن قيام الساعة ، وعن حقيقة الروح ، وعن سر القضاء والقدر ، والسؤال على سبيل التعت والتعنت والعبث والاستهزاء ، وسؤال المعجزات ، وطلب خوارق العادات عنادا وتعنتا ، والسؤال عن الأغاليط ،

والسؤال عما لا يحتاج إليه ، وليس في الجواب عنه فائدة عملية ، والسؤال عما سكت عنه الشرع من الحلال والحرام.

وقد سجل الله على اليهود ذنب الوقوف في السؤال موقف المستهزئ المعاند المجادل المتشدد المنكر الحق الصريح.

٢- كان الأمر بذبح بقرة دون غيرها من الحيوان ، لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل ، ليهون عندهم أمر تعظيمه.

٣- استهزأهم بأوامر الأنبياء عرضهم للوم والتوبيخ والعقاب.

٤- إحياء القتل بقتل حي أظهر لقدرته تعالى في اختراع الأشياء من أضدادها. وقد ذكر الله تعالى إحياء الموتى في سورة البقرة في خمسة مواضع : في قوله تعالى : ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ، وفي هذه القصة : فَقُلْنَا : اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا

و في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهو ألو ف : فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ : مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ [البقرة ٢ / ٢٤٣]. وفي قصة عزيز : فَأَمَّا تِلْكَ الْمَائَةُ عَامٍ ، ثُمَّ بَعَثَهُ [البقرة ٢ / ٢٥٩] وفي قصة إبراهيم : رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى [البقرة ٢ / ٢٦٠].

٥- الإنكار الشديد على قتل النفس البريئة ، وإنما أخره بالذكر عن ذكر موقفهم الاستهزائي العنادي ، اهتماما واستهجانا وتقريبا لموقف العناد ، وتشويقا

ج ١ ، ص : ١٩٢

إلى معرفة سبب ذبح البقرة ، وهذا الموقف ديدن اليهود وطبيعتهم التي لا تفارقهم. والكتاب الكريم لا يراعي ترتيب المؤرخين في سرد الأحداث والوقائع ، وإنما يذكر الكلام بما يتفق مع هدفه : وهي العظة والعبرة ، واجتذاب الأنظار وإثارة الانتباه.

(١٩١/١)

٦- ليس هناك أشد استهجانا وغرابة من جعل الحجارة أنفع من قلوب اليهود ، لخروج الماء منها ، قال مجاهد : ما تردى حجر من رأس جبل ، ولا تفجر نهر من حجر ، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله ، نزل بذلك القرآن الكريم.

وهذا يعني أن خشية الحجارة هنا حقيقية ، كقوله تعالى : وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ [الإسراء ١٧ / ٤٤]. وحكى الطبري عن بعض المفسرين : أن خشية الحجارة من باب المجاز والاستعارة ، كما استعيرت الإرادة للجدار ، في قوله تعالى :

يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ [الكهف ١٨ / ٧٧] « ١ » .

٧- في قصة البقرة هذه دليل على أن شرع من قبلنا شرع لنا ، وبه قال جمهور الأصوليين غير الإمام الشافعي.

٨- استدل الإمام مالك على صحة القول بالقسامة « ٢ » بقول المقتول : دمي عند فلان ، أو فلان قتلني. ومنعه الشافعي وجمهور العلماء ، لأن قول المقتول : دمي عند فلان ، أو فلان قتلني ، خبر يحتمل الصدق والكذب.

(١) تفسير الطبري : ٢٨٩ / ١ ، وانظر تفسير القرطبي أيضا : ٤٦٥ / ١

(٢) القسامة : هي خمسون يمينا من خمسين رجلا ، يقسمها في رأي الحنفية أهل المحلة التي وجد فيها القتل ويتخيرهم ولي الدم ، لنفي تهمة القتل عن المتهم. وعند الجمهور : يحلفها أولياء القتل لإثبات تهمة القتل على الجاني.

ج ١ ، ص : ١٩٣

قسوة قلوب اليهود [سورة البقرة (٢) : آية ٧٤]

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

الإعراب :

أَشَدُّ قَسْوَةً معطوف على قوله : كَالْحِجَارَةِ وهو في موضع رفع لأنه خبر :

(١٩٢/١)

فَهِيَ. وَقَسْوَةً تمييز منصوب ، وَأَوْ بمعنى « بل » .

لَمَّا اللام للتوكيد وما : اسم إنَّ منصوب ، والجار والمجرور : مِنْهَا والضمير يعود إلى الحجارة في موضع رفع خبر إنَّ.

البلاغة :

ثُمَّ قَسَتْ

ثم للترتيب مع التراخي ، والتعبير بحرف ثُمَّ يدل على أن قسوة قلوب اليهود بلغت مرتبة بعيدة جدا عن الوضع السليم أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً أَوْ : بمعنى بل ، أي بل أشد قسوة ، كقوله تعالى : وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ [الصافات ٣٨ / ١٤٧].

قال الزمخشري في الكشاف ٢٢٣ / ١ : أشد : معطوفة على الكاف في كَالْحِجَارَةِ إما على معنى : أو

مثل أشد قسوة ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وإما على : أو هي في أنفسها أشد قسوة. والمعنى : إن من عرف حالها شبهها بالحجارة أو بجوهر أقسى منها وهو الحديد مثلا ، أو من عرفها شبهها بالحجارة أو قال : هي أقسى من الحجارة.

المفردات اللغوية :

قَسَتْ صلبت عن قبول الحق مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ المذكور من إحياء القتيل وما قبله من الآيات كَالْحِجَارَةِ في القسوة يَتَفَجَّرُ يخرج وينبع بكثرة يَشَقُّ أصله : يتشقق ، فأدغم التاء في الشين ، أي يتفتح شقوقا طولا أو عرضا يَهْبِطُ ينزل من علو إلى أسفل وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ وإنما يؤخركم لوقتكم.

ج ١ ، ص : ١٩٤

التفسير والبيان :

(١٩٣/١)

بالرغم مما رأى اليهود من الآيات والمواعظ السابقة ، كانفجار الماء ورفع الجبل ، والمسح قردة وخنازير ، وإحياء القتيل ، فإن قلوبهم قست وامتنعت عن قبول الحق ، فهي تشبه في الصلابة الحجارة ، بل أشد قسوة منها ، وأصبحت بفقد تأثيرها بالآيات وتفاعلها بالمواعظ والعبر ، كأنها جمادات ، بل إنها تدنت عن درجة الجماد أيضا ، لأن الحجارة قد ينفجر منها الماء ، ويسيل أنهارا تحيي الأرض وتنفع النبات ، وقد تتشقق فيسيل منها ماء بسيط فيكون عينا لا نهرا ، وفي هذا منفعة للناس ، وقد تتأثر بالرياح العاتية ، ونحوها من الزلازل ، فتسقط من أعالي الجبال ، فتكسر الصخور وتدمر الحصون ، وليس في هذا منفعة للناس.

بالرغم من كل تلك المؤثرات والعظات والعبر ، لم يزدد اليهود إلا عنادا وفسادا ، ولكن الله تعالى حافظ لأعمالهم ومحصيا لهم ، ثم يجازيهم بها. وفي هذا غاية التهديد والوعيد ، لأن قوله تعالى : عَمَّا تَعْمَلُونَ يشمل كل عمل صغير أو كبير ، ويؤكد قوله تعالى : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلال ٩٩ / ٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

لم يخلق الله تعالى شيئا في هذا الوجود عبثا ، وإنما لفائدة ، ففي الآية دلالة على بعض فوائد الأحجار ونحوها من الجمادات ، وأنها تنصاع لأمر الله ، فإن تمردت فئة من المخلوقات عن الصبغة الإلهية ، وأصبحت عديمة النفع ، لعدم تأثيرها بالعظات وعدم قبولها الحق ، فالله يجازيها جزاء وفاقا ، في الدنيا والآخرة ، فيسلط عليها في الدنيا بعض النقم ، إن لم تحركها النعم ، ويعذبها في نار جهنم في الآخرة ، لإبائها الحق ولعدم طاعتها وأوامر الله تعالى.

(١٩٤/١)

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٍّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨)

الإعراب :

أَنْ يُؤْمِنُوا في موضع نصب ، لأن التقدير فيه : في أن يؤمنوا لكم. فلما حذف حرف الجر ، اتصل الفعل به ، فنصبه. مِنْهُمْ إما في موضع رفع صفة لفريق ، وجملة يَسْمَعُونَ خبر كان ، وإما في موضع نصب خبر كان ، ويسمعون : صفة لفريق. وَهُمْ يَعْلَمُونَ مبتدأ وخبر ، في موضع نصب حال من ضمير « يحرفون » .

لِيُحَاجُّوكُمْ لام كي ، تنصب الفعل بتقدير « أن » .

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم. لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ مرفوع وصف لأُمِّيِينَ. إِلَّا أَمَانِيٍّ منصوب ، لأنه استثناء منقطع من غير الجنس ، لأن الأمانى ليست من العلم. وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ أي : وما هم إلا يظنون ومنهم مبتدأ ، وما بعده خبره. وَإِلَّا أَبْطَلَتْ عمل إن.

البلاغة :

أَفَتَطْمَعُونَ الهمزة للاستفهام الإنكاري. وَهُمْ يَعْلَمُونَ تفيد الجملة الكمال في تقييح صنيعهم ، وهو تحريف التوراة عن قصد ، لا عن جهل.

مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ طباق بين لفظي يُسِرُّونَ وَيُعْلِنُونَ.

(١٩٥/١)

فَرِيقٌ طائفة من أحبارهم كَلَامَ اللَّهِ التوراة يُحَرِّفُونَهُ يغيرونه ويبدلونه ، أو يؤولونه بالباطل عَقَلُوهُ فهموه وعرفوه وَهُمْ يَعْلَمُونَ أنهم مفترون.

وَإِذَا لَقُوا أَيَّ مَنَافِقُوا الْيَهُودَ وَإِذَا خَلَا رَجَعَ وَمَضَى إِلَيْهِ ، أَوْ انْفَرَدَ مَعَهُ . فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكْمَ بِهِ أَوْ قِصَهُ عَلَيْكُمْ أَوْ عَرَفَكُمْ فِي التَّوْرَةِ مِنْ نِعَتِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . لِيَحَاجُّوكُمْ لِيَخَاصِمُوكُمْ وَيَجَادِلُوكُمْ ، وَاللَّامَ لِلصَّيْرُورَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فِي الْآخِرَةِ ، أَيَّ يَقِيمُوا عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ فِي تَرْكِ اتِّبَاعِهِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِصَدَقِهِ . أَوْ لَا يَعْلَمُونَ الْاسْتِفْهَامَ لِلتَّقْرِيرِ ، وَالْوَاوَ الدَّخَالَ عَلَيْهَا لِلْعَطْفِ ، وَيَرَادُ بِالْاسْتِفْهَامِ التَّوْبِيخَ أَوْ التَّقْرِيعَ . أُمِّيُونَ عَوَامَ جَهْلَةٍ بِكُتَابِهِمْ أَمَانِيَّ أَكَاذِبَ تَلْقَوُهَا مِنْ رُؤَسَائِهِمْ ، فَاعْتَمَدُوهَا ، وَهِيَ لَا تَسْتَدِلُّ إِلَى دَلِيلٍ عَقْلِيٍّ أَوْ نَقْلِيٍّ . يَظُنُّونَ أَيَّ مَا هُمْ فِي جُحُودِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ وَغَيْرِهِ مِمَّا يَخْتَلِقُونَهُ إِلَّا يَظُنُّونَ ظَنًّا وَلَا عِلْمَ لَهُمْ . سَبَبُ النُّزُولِ :

قال ابن عباس ومقاتل : نزل قوله تعالى : أَفَتَطْمَعُونَ فِي السَّبْعِينَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمُ مُوسَى ، لِيَذْهَبُوا مَعَهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَمَّا ذَهَبُوا مَعَهُ ، سَمِعُوا كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ يَأْمُرُ وَيَنْهَى ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ ، فَأَمَّا الصَّادِقُونَ فَأَدَّوْا مَا سَمِعُوا . وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ : سَمِعْنَا اللَّهَ مِنْ لَفْظِ كَلَامِهِ يَقُولُ : إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْعَلُوا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ فَافْعَلُوا ، وَإِنْ شِئْتُمْ فَلَا تَفْعَلُوا ، وَلَا بَأْسَ . وَعِنْدَ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ : نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي الَّذِينَ غَيَّرُوا آيَةَ الرِّجْمِ وَصَفَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « ١ » .

واختلف العلماء بماذا عرف موسى كلام الله ، ولم يكن سمع قبل ذلك خطابه .

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ١٥

ج ١ ، ص : ١٩٧

فَقِيلَ : إِنَّهُ سَمِعَ كَلَامًا لَيْسَ بِحُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ ، وَلَيْسَ فِيهِ تَقْطِيعٌ وَلَا نَفْسٌ ، فَحِينَئِذٍ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ هُوَ كَلَامُ الْبَشَرِ ، وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(١٩٦/١)

وَقِيلَ : إِنَّهُ لَمَّا سَمِعَ كَلَامًا لَا مِنْ جِهَةٍ ، وَكَلَامَ الْبَشَرِ يَسْمَعُ مِنْ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ السَّتِّ ، عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ .

وَقِيلَ : إِنَّهُ صَارَ جَسَدُهُ كُلَّهُ مَسَامِعَ حَتَّى سَمِعَ بِهَا ذَلِكَ الْكَلَامَ ، فَعَلِمَ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ .

وَقِيلَ فِيهِ : إِنَّ الْمَعْجِزَةَ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ مَا سَمِعَهُ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ : أَلْقِ عَصَاكَ ، فَأَلْقَاهَا فَصَارَتْ ثَعْبَانًا ، فَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى صَدَقِ الْحَالِ ، وَأَنَّ الَّذِي يَقُولُ لَهُ : إِنِّي أَنَا رَبُّكَ [طه ٢٠ / ١٢] هُوَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ « ١ » .

وسبب نزول الآية (٧٦) :

هو ما قاله مجاهد : قام النَّبي صَلَّى الله عليه وسلّم يوم قريظة تحت حصونهم ، فقال : يا إخوان القردة ، ويا إخوان الخنازير ، ويا عبدة الطاغوت ، فقالوا : من أخبر بهذا محمدا ، ما خرج هذا إلا منكم ، أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ، ليكون لهم حجة عليكم ، فنزلت الآية.

وقال ابن عباس : كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا أن صاحبكم رسول الله ، ولكنه إليكم خاصة. وَإِذَا خَلَا بِعُضْهُمُ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا : أَيْحَدَّثَ الْعَرَبُ بِهَذَا ، فَإِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ مِنْهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : وَإِذَا لَقُوا الْآيَةَ.

وقال السدي : نزلت في ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ، وكانوا يأتون المؤمنين من العرب ، بما تحدثوا به ، فقال بعضهم : أَتَحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ

(١) تفسير القرطبي : ٢ / ٢

ج ١ ، ص : ١٩٨

من العذاب ، ليقولوا : نحن أحب إلى الله منكم ، وأكرم على الله منكم « ١ » .
التفسير والبيان :

(١٩٧/١)

حرص النبي صَلَّى الله عليه وسلم وصحابته على انضمام أهل الكتاب (اليهود والنصارى) إلى دعوته والإيمان برسالته في مواجهة المشركين ، لوجود جسور التقاء معهم من الإيمان بوجود الإله والتصديق بالأنبياء وبالبعث واليوم الآخر. وقد روي أنها نزلت في الأنصار الذين كانوا حلفاء لليهود ، وبينهم جوار ورضاعة ، وكانوا يودون لو أسلموا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ.

فجاءت هذه الآيات ، في أثناء بيان قبائح اليهود ، توضح خطابا للنبي صَلَّى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ما بدد الآمال والأطماع في إيمان اليهود ، لأن منهم جماعة- وهم فئة من الأحرار والرؤساء- كانوا يسمعون كلام الله ، ثم يبدلونه أو يؤولونه بحسب أهوائهم وميولهم ، وليس الحاضرون أحسن حالا من الغابرين ، لأنهم ورثوا الاستكبار من أسلافهم ، وهم يعلمون أن هذا العمل يتنافى مع الحقيقة والواقع ، فكيف تطمعون إذن في إيمان من له سابقة في الضلال ؟ ! وسبب آخر يدعو إلى عدم إيمانهم هو أن منافقيهم إذا قابلوا المؤمنين قالوا :

نحن مؤمنون بالله وبالنبي كإيمانكم ، إذ هذا النبي هو المبشر به عندنا ، فنحن معكم ، وإذا انفردوا مع بعضهم قالوا : كيف تحدثون أتباع محمد بما أنزل الله عليكم في التوراة ؟ كيف تفعلون هذا ، وهم يحتجون عليكم بكلامكم ، ويخاصمونكم به عند ربكم يوم القيامة ؟ أتذيعون أسراركم التي تضركم ؟

فيرد الله عليهم :

ألا يعلمون أن الله تعالى يعلم السر والعلن ، ويعلم الغيب والشهادة ، فسواء أعلنتم سرا أم أضمرتموه ، فإن الله سيجازيكم على أعمالكم.

(١) أسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين : ص ١٦

ج ١ ، ص : ١٩٩

(١٩٨/١)

ثم ذكر الله تعالى هذا شأن علماء اليهود وأخبارهم ، أما الأميون منهم ، فإنهم لا يعرفون عن دينهم إلا أكاذيب سمعوها ولم يعقلوها ، مثل القول بأنهم شعب الله المختار ، وأن الأنبياء منهم فيشفعون لهم ، وأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة ، وما هم في كل ذلك إلا واهمون طانون ظنا لا صحة له . فلا أمل في إيمانهم ، ولا أسف على أمثالهم ، فمن كانت هذه صفاته وقبائحه ، فلا خير فيه ، ولا أسف عليه .

والمراد بما فتح الله على اليهود : الإنعام بالشرعية والأحكام ، والبشارة بالنبي عليه الصلاة والسلام ، شبه الذي يعطى الشريعة بالمحصور في الصلاة يفتح عليه ، فيخرج من الضيق . أو أن معنى بما فتح الله عليكم : بما حكم به وأخذ به الميثاق عليكم من الإيمان بالنبي الذي يجيئكم مصدقا لما معكم ، ونصره . والمقصود بقوله عِنْدَ رَبِّكُمْ أن المحاجة في الآخرة ، كما قال السيوطي ، ورأى المحققون أنه بمعنى : في كتاب الله وحكمه أي أن ما تحدثونهم به من التوراة موافق لما في القرآن ، فالمحاجة في الدنيا ، فهو كقوله تعالى في أهل الإفك : فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ ، فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ [النور ٢٤ / ١٣] أي في حكمه المبين في كتابه « ١ » .

وأما الأمانى : فهي الأكاذيب ، وفسرها بعضهم بالقراءات ، أي أنهم لا حظ لهم من الكتاب إلا قراءة ألفاظه من غير فهم ولا اعتبار يظهر أثرهما في العمل ، فهو على حد : مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ، كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً [الجمعة ٦٢ / ٥] .

فقه الحياة أو الأحكام :

التحريف والتبديل لكلام الله أشد الحرام ، سواء أكان بالتأويل الفاسد ، أم

(١) تفسير المنار : ١ / ٣٥٧ وما بعدها .

ج ١ ، ص : ٢٠٠

بالتغيير والتبديل ، وقد وقع النوعان من أحبار اليهود ، وقد نعتهم الله تعالى بأنهم يبدلون ويحرفون ، فقال : فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ [البقرة ٢ / ٧٩] وكان للتحريف مظاهر متعددة ، ففي عهد موسى عليه السلام :

روي أن قوما من السبعين المختارين ، سمعوا كلام الله حين كلم موسى بالطور ، وما أمر به موسى وما نهى عنه ، ثم قالوا : سمعنا الله يقول في آخره : إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا ، وإن شئتم ألا تفعلوا فلا بأس .

وفي قوله تعالى : ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ قَالَ مجاهد والسدي : هم علماء اليهود الذين يحرفون التوراة ، فيجعلون الحرام حلالا والحلال حراما ، أتباعا لأهوائهم .

وفي عهد محمد صلى الله عليه وسلم حرفوا نعت الرسول وصفته ، وحرفوا آية الرجم ، وقالوا : لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ [آل عمران ٣ / ٧٥] وهم العرب ، أي ما أخذنا من أموالهم فهو حل لنا ، وقالوا أيضا : لا يضرنا ذنب فنحن أحباء الله وأبنائه ، تعالى الله عن ذلك « ١ » .

ووقع التحريف بنوعيه أيضا في الإنجيل ، كما وقع في التوراة ، والدليل واضح وهو ضياع أصل كلا هذين الكتابين ، وكتابتهما بأيدي العلماء بعد عشرات السنين ، كما قال تعالى : يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ [النساء ٤ / ٤٦] .

وحدث التحريف في القرآن بمعنى التأويل الباطل ، من الجهلة أو الملاحدة ، أما التحريف بإسقاط آية من القرآن ، فلم يقع ، لتعهد الله حفظ كتابه المبين في قوله سبحانه : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [الحجر ١٥ / ٩] .

وأرشدت الآية (٧٨) من سورة البقرة إلى بطلان التقليد في العقائد وأصول الأحكام ، وعدم الاعتداد بإيمان صاحبه ، لأن معنى قوله تعالى : وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ :

(١) تفسير الرازي : ٣ / ١٣٥ ، تفسير القرطبي : ٢ / ٦ وما بعدها .

أجمع السلف في صدر الإسلام وأهل القرون الثلاثة على بطلان التقليد في العقائد. وإنما كان الجاهل في تلك القرون يأخذ عن العالم العقيدة ببرهانها ، والأحكام بروايتها ، ولا يتقلد رأيه كيفما كان ، من غير بينة ولا برهان « ١ » .

وأوماً الخطاب في هذه الآيات لليهود المعاصرين للنبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى أنه لا أمل في إيمان اليهود بالقرآن وبدعوة الرسول محمد ، فالمعاصرون توارثوا طبائع الآباء وأخلاقهم ، وتأصلت فيهم روح التمرد والإعراض عن كلام الله ، وكان آباؤهم أكثر الناس مراء وجدالا في الحق ، وإن كان بينا باهرا ، وأشد الناس كذبا وغرورا وأكلا لأموال الناس بالباطل كالربا الفاحش ، وغشا وتدليسا وتلبيسا ، وكانوا مع ذلك يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ، وأفضل الناس ، كما يعتقد أشباههم في هذا الزمان. فهذه هي الأماني التي صدّتهم عن قبول الإسلام « ٢ » .

تحريف أحبار اليهود وافتراءاتهم [سورة البقرة (٢) : الآيات ٧٩ الى ٨٢]

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩) وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)

(٢٠١/١)

(١) تفسير المنار : ٣٥٩ / ١

(٢) المصدر السابق : ٣٦٠ / ١

ج ١ ، ص : ٢٠٢

الإعراب :

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ مبتدأ وخبر ، وجاز أن يكون « ويل » مبتدأ وإن كان نكرة ، لأن في الكلام معنى الدعاء ، كقولهم : سلام عليكم.

بلى حرف يأتي في جواب الاستفهام في النفي ، و « نعم » يأتي في جواب الاستفهام في الإيجاب .
إذا قال : ألسنت فعلت كذا ؟ فجوابه : بلى ، أي إني قد فعلت ، كقوله تعالى : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قالوا : بلى [الأعراف ٧ / ١٧٢] أي بلى أنت ربنا ، ولو قالوا : نعم ، لكفروا ، لأنه يصير المعنى : نعم لست ربنا. وإذا قال في الإيجاب : هل فعلت ؟ فجوابه : نعم ، كقوله تعالى : فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا

؟ قالوا : نَعَمْ [الأعراف ٧ / ٤٤]. مَنْ كَسَبَ من شرطية مبتدأ ، والفاء في « أولئك » جواب الشرط ، وفأولئك مبتدأ ثان ، وأصحاب النار خبره ، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول وهو مَنْ. وهُمْ فيها خالِدُونَ جملة اسمية حال من أصحاب أو من النار. وفيها في موضع نصب ، وتقديره : خالِدُونَ فيها.

البلاغة :

تكرار فَوَيْلٌ ثلاث مرات في الآية (٧٩) للتوبيخ والتقريع وتقبيح جريمتهم وهي التحريف. وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ استعار لفظ الإحاطة لغلبة السيئات على الحسنات ، حيث شبه الخطايا بجيش من الأعداء نزل بقوم من كل جانب.

المفردات اللغوية :

فَوَيْلٌ الويل : شدة العذاب والهلاك ، أو واد في جهنم بأيديهم أي مختلقا من عندهم لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا من الدنيا ، وهم اليهود غيروا صفة النبي في التوراة ، وآية الرجم ، وغيرهما ، وكتبوها على خلاف ما أنزل. مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ من المختلق ، مِمَّا يَكْسِبُونَ من الرشا : جمع رشوة.

(٢٠٢/١)

لَنْ تَمَسَّنَا تَصِيْبِنَا إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قليلة أربعين يوما مدة عبادة آبائهم العجل. أَتَّخَذْتُمْ حذف منه همزة الوصل ، استغناء بهمزة الاستفهام عَهْدًا ميثاقا منه بذلك. أَمْ تَقُولُونَ .. بل. كَسَبَ سَيِّئَةً المراد بها هنا الكفر أو الشرك. وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ بالإفراد ج ١ ، ص : ٢٠٣ و الجمع ، أي استولت عليه وأحدقت به من كل جانب ، بأن مات مشركا فأولئك روعي فيه معنى : من.

سبب النزول :

نزلت الآية (٧٩)

في أهل الكتاب كما قال ابن عباس ، أو في أحبار اليهود كما قال العباس : « الذين غيروا صفة النبي صلى الله عليه وسلم وبدلوا نعته » ، وكانت صفته في التوراة : أكحل ، أعين ، ربعة ، جعد الشعر ، حسن الوجه ، فمحوه حسدا وبغيا ، وقالوا : نجده طويلا أزرق ، سبط الشعر.

ونزلت الآية (٨٠)

كما

قال ابن عباس : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، ويهود تقول : إنما مدة الدنيا سبعة

آلاف سنة ، وإنما يعذب الناس في النار ، لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحد في النار من أيام الآخرة ، فإنما هي سبعة أيام ، ثم ينقطع العذاب ، فأنزل الله في ذلك : وَقَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا قَوْلُهُ خَالِدُونَ.

وروى الطبري عن ابن عباس : أن اليهود قالوا : لن ندخل النار ، إلا تحلة القسم ، الأيام التي عبدنا فيها العجل أربعين ليلة ، فإذا انقضت ، انقطع عنا العذاب ، فنزلت الآية « ١ » التفسير والبيان :

(٢٠٣/١)

الهلاك والعذاب الشديد أو العقوبة العظيمة لمن حرفوا التوراة ، وكتبوا الآيات المحرفة بأيديهم ، وغيروا صفة النبي صلى الله عليه وسلم التي كانت مكتوبة عندهم في التوراة ، والعذاب أيضا لهم لأخذ الرشوة وفعلهم المعاصي ، ونسبتهم الافتراءات إلى الله تعالى ، ليأخذوا بهذا الكذب أو الافتراء ثمنا دنيويا حقيرا من مال أو رياسة أو جاه ، فويل لهم مما كسبوا ، لأنه كانت لليهود جنایات ثلاث : تغيير

(١) أسباب النزول للواحدي : ص ١٤ ، للسيوطي بهامش الجلالين : ص ١٧ - ١٨ ، تفسير الطبري : ٣٠٢ / ١ وما بعدها ، تفسير القرطبي : ١٠ / ٢

ج ١ ، ص : ٢٠٤

صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، والافتراء على الله ، وأخذ الرشوة ، فهددوا على كل جنایة بالويل والهلاك.

ومن مزاعم اليهود : ادعائهم أن النار لا تمسهم إلا في أيام قليلة معدودة ، هي أربعون يوما مدة عبادتهم العجل ، وأكثر اليهود على أن النار تمسهم سبعة أيام فقط ، لأن عمر الدنيا في زعمهم سبعة آلاف سنة ، فمن عذب في النار ولم يحظ بالنجاة ، يمكث في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة يوم. فرد الله عليهم : هل عهد بذلك ربكم إليكم ، ووعدكم به وعدا حقا ، فلن يخلف الله وعده ، أم أنتم تقولون على الله شيئا لا علم لكم به ؟ أي أن مثل ذلك القول لا يصدر إلا عن عهد من الله ، أو افتراء وتقوّل عليه ، وبما أنه لم يحدث العهد من الله وهو الوحي والخبر الصادق ، فأنتم كاذبون في دعوكم ، مفترون حين تدعون أنكم أبناء الله وأحباؤه. وقد أكدت السنّة دعواهم في النجاة من النار بعد أيام قليلة.

(٢٠٤/١)

روى الإمام أحمد والبخاري والنسائي عن الليث بن سعد ، والحافظ بن مردويه والبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لما فتحت خيبر ، أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجمعوا لي من كان من اليهود هنا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أبوكم ؟ قالوا : فلان ، قال : كذبتكم ، بل أبوكم فلان ، فقالوا : صدقت وبررت. ثم قال لهم : هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم ، يا أبا القاسم ، وإن كذبتك عرفت كذبتنا ، كما عرفته في أبينا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أهل النار ؟ فقالوا : نكون فيها يسيرا ، ثم تخلفونا فيها ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : احسبوا ، والله لا نخلفكم فيها أبدا. ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم يا أبا القاسم ، قال : هل جعلتم في هذه الشاة سما ؟ فقالوا : نعم ، قال : فما حملكم على ذلك ؟ فقالوا : أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك ، وإن كنت نبيا لم يضرّك . »

ج ١ ، ص : ٢٠٥

ليس الأمر أيها اليهود كما زعمتم أو تمنيتم واشتهيتم ، بل أو بلى ستخلدون في نار جهنم بسبب ارتكاب المعاصي التي أحاطت بكم ، كالكفر ، وقتل الأنبياء بغير حق ، وعصيان أوامر الله ، والاسترسال في الأهواء والافتراءات. وقد علمنا أن بلى : لفظ يجاب به بعد كلام منفي سابق ، ومعناه إبطاله وإنكاره. والكسب : جلب النفع ، واستعماله هنا في السيئة من باب التهكم. والسيئة : الفاحشة الموجبة للنار ، والمراد بها هنا : الشرك بالله. وسبب الخلود في النار : هو ما تضمنه القانون العام لكل الخلائق في شرع الله : أن من اقترف خطيئة غمرت جميع جوانبه من قلبه ولسانه وأعضائه ، وليست له حسنة ، بل جميع أعماله سيئات ، فهو من أهل النار.

(٢٠٥/١)

و أما من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فأدى الواجب ، وترك الحرام ، فهو من أهل الجنة. قال ابن عباس : « من آمن بما كفرتم ، وعمل بما تركتم من دينه ، فلهم الجنة ، خالدون فيها » يخبرهم أن الثواب بالخير ، والشر مقيم على أهله أبدا ، لا انقطاع له. وكل من الجزاءين المذكورين : وعد للمؤمنين ، ووعد للكافرين ، شبهه بقوله تعالى : لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ ، وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ، وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا [النساء ٤ /

[١٢٣ - ١٢٤].

لكن من تاب من العصاة توبة نصوحا ، فأقلع عن الذنب ، وندم عليه ، وعزم على ألا يعود لمثله في المستقبل ، تبدل حاله من أهل النار إلى أهل الجنة.

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا أذنب ذنبا ، نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر ، صقل

ج ١ ، ص : ٢٠٦

قلبه. وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي ذكر الله في القرآن :

كَلَّا ، بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [المطففين ٨٣ / ١٤] .

و

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه »

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهم مثلا ، كمثّل قوم نزلوا بأرض فلاة ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق ، فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ، حتى جمعوا سوادا ، وأججوا نارا ،

فأنضجوا ما قذفوا فيها.

فقه الحياة أو الأحكام :

(٢٠٦/١)

تضمنت الآية (٧٩) والتي قبلها التحذير من التبديل والتغيير والزيادة في شرع الله ، فكل من بدل وغير أو ابتدع في دين الله ما ليس منه ، فهو داخل تحت هذا الوعيد الشديد ، والعذاب الأليم ، و قد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته ، لما قد علم ما يكون في آخر الزمان ، فقال : « ألا ، إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة »

الحديث. فحذروهم أن يحدثوا من تلقاء أنفسهم في الدين خلاف كتاب الله أو سنته أو سنة أصحابه ، فيضلّوا به الناس.

وأبانت الآية (٧٩) أن كل عوض - وإن كثر - عن تحريف كتاب الله ، لا بركة فيه ولا خير ، فقد وصف الله تعالى ما يأخذه أحبار اليهود بالقلّة إما لفنائه وعدم ثباته ، وإما لكونه حراما ، لأن الحرام لا بركة فيه ، ولا يربو عند الله. قال ابن إسحاق والكلبي : كانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابهم : ربعة أسمر ، فجعلوه : آدم سبطا طويلا ، وقالوا لأصحابهم وأتباعهم : انظروا إلى صفة النبي الذي

يبحث في آخر الزمان ، ليس يشبهه نعت هذا.

ودلت الآية (٨) (١) : بلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ عَلَى أَنْ

ج ١ ، ص : ٢٠٧

المعلق على شرطين لا يتم بأقلهما ، ومثله قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا : رَبُّنَا اللَّهُ ، ثُمَّ اسْتَقَامُوا [فَصَلَتْ ٤١ / ٣٠] . والخلود في النار : سببه الشرك بالله.

وأرشدت الآية (٨) (٢) إلى أن دخول الجنة منوط بالإيمان والعمل الصالح معا ، كما ر

وى مسلم « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لسفيان بن عبد الله الثقفي ، وقد قال له :

يا رسول الله ، قل لي في الإسلام قولاً ، لا أسأل عنه أحدا بعدك ، قال : قل :

آمنت بالله ، ثم استقم » .

(٢٠٧/١)

و الجمع بين الآيتين المذكورتين (٨١ ، ٨) (٢) هو منهج القرآن الكريم في البيان ، فإن الله سبحانه يقرن عادة بين الوعد والوعيد ، ويذكر أهل الخير وأهل الشر ، وأصحاب الجنة وأصحاب النار ، لما تقتضيه الحكمة ، وإرشاد العباد ، بالترغيب مرة والترهيب أخرى ، والتبشير طورا والإنذار طورا آخر : إذ باللطف والقهر يرقى الإنسان إلى درجة الكمال.

مخالفة اليهود الموثيق [سورة البقرة (٢) : آية ٨٣]

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ (٨٣) الإعراب :

لا تَعْبُدُونَ مرفوع لأنه جواب لقوله تعالى : وَإِذْ أَخَذْنَا ... لأنه في معنى القسم ، بمنزلة والله ، فكأنه قال : استحللناهم لا يعبدون ، كما يقال : حلف فلان لا يقوم ، أو لأنه في موضع الحال ، أي أخذنا ميثاقهم غير عابدين إلا الله ، ومثل ذلك لا تَسْفِكُونَ. وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إما معطوف على الباء المحذوفة وأن في قوله تعالى : لا تَعْبُدُونَ أو في موضع نصب

ج ١ ، ص : ٢٠٨

بفعل مقدر ، وتقديره : وأحسنوا بالوالدين إحسانا. وقوله : (إِحْسَانًا إما منصوب على المصدر بالفعل المقدر الذي تعلق به الجار والمجرور في قوله : بِالْوَالِدَيْنِ وتقديره : وأحسنوا بالوالدين إحسانا ، أو منصوب ، لأنه مفعول فعل مقدر ، وتقديره : واستوصوا بالوالدين إحسانا. حُسْنًا مفعول به منصوب لفعل : قولوا ، وتقديره : قولوا قولاً ذا حسن ، أو صفة لمصدر محذوف ، وتقديره : قولوا حسناً إلا

قَلِيلًا منصوب على الاستثناء الموجب من ضمير تَوَلَّيْتُمْ.
البلاغة :

(٢٠٨/١)

لا تَعْبُدُونَ خبر في معنى النهي ، وهو أبلغ من صريح النهي ، لأن حق المنهي عنه المبادرة إلى تركه ، فكأنه انتهى عنه ، وجاء بصيغة الخبر. وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وقع المصدر موقع الصفة ، أي قولاً حسناً أو ذا حسن للمبالغة ، فإن العرب تضع المصدر مكان اسم الفاعل أو الصفة بقصد المبالغة ، فيقولون : هو عدل.

المفردات اللغوية :

وَإِذْ واذكر إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل في التوراة ميثاق الميثاق : العهد المؤكد الذي أخذ عليهم في التوراة ، علماً بأن العهد نوعان : عهد خلقة وفطرة ، وعهد نبوة ورسالة ، وهذا هو المراد هنا. لا تَعْبُدُونَ خبر بمعنى النهي. إِحْسَانًا تحسنون إلى الوالدين إحساناً ، أي برا. وَذِي الْقُرْبَى صاحب القربى من جهة الرحم أو العصب. حُسْنًا أي وقولوا للناس قولاً حسناً من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصدق في شأن محمد ، والرفق بهم. تَوَلَّيْتُمْ أعرضتم عن الوفاء به ، فيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب ، والمراد : آبائهم وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ عنه كآبائكم. المناسبة :

تنوع الأسلوب القرآني في معالجة مساوي اليهود وقبائحهم ، وترويضهم ، ونقلهم إلى حال أفضل من حالهم في الماضي والحاضر ، ففي الآيات السابقة عدّد الله النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل ، كتفضيلهم على العالمين ، وإنجائهم من الغرق ، وإنزال المن والسلوى عليهم ، ثم ما يحدث إثر كل نعمة من مخالفة ، فعقوبة ، فتوبة.

ج ١ ، ص : ٢٠٩

ثم تذكّرهم هذه الآية بالعهد الذي أخذه الله على آبائهم بالعمل بما أمروا به من عبادات ومعاملات ، ثم إهمالهم له ، وتركهم اتباعه. وهذا كله ليبين الله لرسوله انقطاع الأمل في إيمان اليهود المعاصرين له ، لأنهم يتوارثون عادة التطبع بقبائح أسلافهم ، فهي تمنعهم من الهدى والرشاد التفسير والبيان :

(٢٠٩/١)

أذكر أيها النبي حين أخذنا الميثاق على بني إسرائيل ، أنهم لا يعبدون إلا الله سبحانه ، فلا يشركون به سواه من ملك أو صنم أو بشر بدعاء أو غيره من أنواع العبادات ، وأنهم يحسنون إلى الوالدين إحسانا كاملا ، بأن يرعوهما حق الرعاية ، ويعطفوا عليهما ، ويطيعوهما فيما لا يخالف أوامر الله ، وقد جاء في التوراة : أن من يسب والديه يقتل ، وأن يحسنوا بالمال إلى ذي القرابة والأيتام والمساكين بسبب ضعفهم وعجزهم وحاجتهم ، وأن يقولوا قولاً حسناً لا إثم فيه ولا شر ، بالقول الجميل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، مع حفظ الجناح ولين الجانب ، وأن يؤدوا صلاتهم أداء تاما ، لأن الصلاة تصلح النفوس ، وتهذب الطباع وتحليها بأنواع الفضائل ، وتمنعها عن الرذائل ، وأن يؤتوا الزكاة للفقراء ، لما فيها من تحقيق التكافل الاجتماعي بين الناس ، وإسعاد الفرد والجماعة ، وإشاعة الرفاه والهناء للجميع.

ولكن اليهود الذين اعتادوا الغدر ، واستماتوا في حب المادة ، أعرضوا قصدا وعمدا عن تنفيذ الأوامر الإلهية ، وعن العمل بالميثاق ، والخلف منهم معرض عن التوراة مثل السلف ، ما عدا نفرا قليلا منهم مثل عبد الله بن سلام وأشباهه من المخلصين العقلاء ، المحافظين على الحق بقدر الطاقة ، لكن وجود القلائل من الصالحين في الأمة لا يمنع عنها العقاب إذا فشا فيها الفساد وعم البلاء ، كما قال الله تعالى : **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً [الأنفال ٨ / ٢٥]**.

ج ١ ، ص : ٢١٠

فقه الحياة أو الأحكام :

(٢١٠/١)

إن الأمور التي ذكر الله بها بني إسرائيل في هذه الآية ، أمر بها جميع الخلق ، ولذلك خلقهم ، وهي تكون النظام الديني والأخلاقي والاجتماعي ، وجاء الترتيب في الآية بتقديم الأهم فالأهم ، فقدم حق الله تعالى لأنه المنعم في الحقيقة على حق العباد ، ثم ذكر الوالدين لحقهما في تربية الولد ، ثم القرابة ، لأن فيهم صلة الرحم ، ثم اليتامى لقصورهم ، ثم المساكين لضعفهم ، وهي تشمل ما يلي :

١ - عبادة الله وحده لا شريك له : فهي برهان الاعتقاد الصحيح ودليل الإيمان من جميع الناس ، كما قال تعالى : **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء ٢١ / ٢٥]**. وقال تعالى : **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل ١٦ / ٣٦]**.

قال ابن كثير : وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها ، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له. والمراد بقوله تعالى : **لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ** كما قال الزمخشري الطلب ، فهو خبر بمعنى الطلب ، وهو

أكد.

٢- الإحسان إلى الوالدين : هذا يأتي بعد حق الله ، فإن أكد حقوق المخلوقين ، وأولاهم بذلك حق الوالدين ، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه بالتوحيد وحق الوالدين ، لأن النشأة الأولى من عند الله ، والنشء الثاني- وهو التربية- من جهة الوالدين ، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره ، فقال : أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ، إِلَيَّ الْمَصِيرُ [لقمان ٣١ / ١٤] وقال : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا [الإسراء ١٧ / ٢٣].

والإحسان إلى الوالدين : معاشرتهما بالمعروف ، والتواضع لهما ، وامتنال أمرهما ، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما ، وصلة أهل ودهما.

و

(٢١١/١)

في الصحيحين عن ابن مسعود : « قلت : يا رسول الله ، أي العمل

ج ١ ، ص : ٢١١

أفضل ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين ، قلت : ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله » .

و

جاء في الحديث الصحيح : « أن رجلا قال : يا رسول الله ؟ من أبر ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال :

ثم من ؟ قال : أباك ، ثم أدناك أدناك » .

والحكمة في بر الوالدين واضحة : وهي المعاملة بالمثل ومقابلة المعروف بمثله ، والوفاء للمحسن ، كما قال تعالى : هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ [الرحمن ٥٥ / ٦٠] فهما بذلا للولد وهو صغير كل عناية وعطف بتربيته والقيام بشؤونه ، فيجب على الولد مكافأتهما على صنعتهما.

٣- الإحسان إلى ذي القربى : أي القرابة ، عطف ذي القربى على الوالدين ، وهو يدل على أن الله تعالى أمر بالإحسان إلى القرابات بصلة الأرحام ، لأن الإحسان إليهم مما يقوم الروابط بينهم ، فما الأمة إلا مجموعة الأسر ، فصلاحتها بصلاحها ، وفسادها بفسادها. ولا يعرف فضل الأسرة إلا في وقت الشدة والكوارث ، فعندها يظهر التعاطف والتعاون وترميم الأضرار ، وإزالة العثرات.

٤- الإحسان إلى اليتامى : وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء.

والإحسان إلى اليتيم : بحسن تربيته وحفظ حقوقه من الضياع ، وقد ملئ الكتاب والسنة بالوصية به

والرأفة به والحض على كفالاته وحفظ ماله ، من ذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كافل اليتيم له أو لغيره ، أنا وهو كهاتين في الجنة » وأشار مالك بالسبابة والوسطى.

٥- الإحسان إلى المساكين : وهم الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم ، وقد أمر الله بالإحسان إلى المساكين ، وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلتهم ، وذلك يكون بالصدقة عليهم ، ومواساتهم حين البأساء والضراء ،

روى مسلم عن

ج ١ ، ص : ٢١٢

(٢١٢/١)

أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله - وأحسبه قال - وكالقائم لا يفتر ، وكالصائم لا يفطر »

قال ابن المنذر : وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله.

٦- الكلام الطيب ، ولين الجانب ، وإظهار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك مما هو نافع في الدين والدنيا كالحلم والصفح والعفو والبشاشة.

وذلك لأن إحسان القول له تأثير فعال في النفوس ، وبه يتم التكافل الأدبي أو الأخلاقي بين الناس ، فإنه سبحانه عبر بقوله وَقُولُوا لِلنَّاسِ لَمْ يُقَلْ لِإِخْوَانِكُمْ ، ليدل على أن الأمر بالإحسان عام لجميع الناس.

روى الإمام أحمد عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تحقرن من المعروف شيئا ، وإن لم تجد ، فالق أخاك بوجه منطلق » .

وبهذه الفضيلة وهي القول الحسن بعد الأمر بالإحسان الفعلي إلى الناس ، يجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي.

٧- إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : الصلاة عماد الدين ، وطريق التقوى ، وهمزة الصلة بالله ، وسبيل التحلي بالفضائل والبعد عن الرذائل ، ولكن بشرط الإخلاص والخشوع التام لعظمة الله وسلطانه. وأما إيتاء الزكاة فضروري لإصلاح شؤون المجتمع. لكن كلا من الصلاة والزكاة لم يثبت فيهما عن أهل الكتاب نقل صحيح يدل على كفيتهما ونوعهما ، روي عن ابن عباس أنه قال :

الزكاة التي أمروا بها طاعة الله والإخلاص.

(٢١٣/١)

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ
(٨) (٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ
وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا
جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ
(٨٦)

الإعراب :

ثُمَّ أَنْتُمْ ... أَنْتُمْ مبتدأ ، وهؤلاء خبره وَتَقْتُلُونَ جملة فعلية حال من « أولاء » . وَإِنْ يَأْتُواكُمْ أُسَارَى
أُسَارَى : حال من ضمير الفاعل في يَأْتُواكُمْ وأُسَارَى على وزن فعالى ، وأكثر ما يجيء « فعالى » في
جمع فعالان نحو سكران وكسلان ، ولما كان الأسير محبوسا عن التصرف في الأمور أشبه السكران
والكسلان ، لأنهما كالمحبوسين عن التصرف لاستيلاء السكر والكسل عليهما. وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ هو : أي الإخراج الذي دل عليه قوله : وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مبتدأ ، وَمُحَرَّمٌ خبره ، وإِخْرَاجُهُمْ بدل
من هُوَ ويصح جعل هُوَ ضمير الشأن ، وهو مبتدأ أول ، وإِخْرَاجُهُمْ مبتدأ ثان ، ومحرم : خبر مقدم ،
والجملة من المبتدأ والخبر خبر المبتدأ الأول ومفسرة له ، وتكون جملة : هو والخبر اعتراضية فَمَا
جَزَاءُ .. ما : استفهامية :

(٢١٤/١)

أي ، أي شيء جزاء من يفعل ذلك منكم ، وفَمَا مبتدأ ، وَجَزَاءُ خبره ، وَخِزْيٌ بدل من جزاء. يَوْمَ الْقِيَامَةِ
ظرف زمان منصوب ، وعامله ما بعده وهو يُرَدُّونَ.

تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ أي بعضكم ، ومن قتل غيره فكأنما قتل نفسه ، فهو مجاز.
أَفَتُؤْمِنُونَ استفهام إنكاري للتوبيخ. خِزْيٌ تنكيره للتفخيم والتهويل.

المفردات اللغوية :

تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ تريقونها بقتل بعضكم بعضا. وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ لا يخرج بعضكم بعضا من داره. ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ قبلتم ذلك الميثاق. وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ على أنفسكم. تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ يقتل بعضكم بعضا. تَظَاهَرُونَ تتظاهرون أي تتعاونون عليهم. بِالْإِثْمِ بالمعصية أو الذنب : وهو الفعل الذي يستحق فاعله الدم واللوم. وَالْعُدْوَانِ الظلم والاعتداء. أَسَارَى أُسْرَى جمع أسير ، أي مأسورين. تُفَادُوهُمْ تنقذوهم من الأسر بالفداء من مال أو غيره ، وهو مما عهد إليهم. خِزْيٍ هوان وذل. اشْتَرَوْا استبدلوا.

المناسبة التاريخية المتجددة :

كان سفك الدماء وتقاتل اليهود وطرد بعضهم بعضا من ديارهم ظاهرة شائعة فيهم ، وظللت هذه الظاهرة إلى عصر التنزيل القرآني ، فكان يهود بني قريظة حالفوا الأوس ، ويهود بني النضير حالفوا الخزرج ، فإذا نشبت الحرب بينهم ، كان كل فريق من اليهود يقاتل مع حلفائه ، فيقتل اليهودي يهوديا آخر ، ويخرب بعضهم ديار بعض ، ويخرجونهم من بيوتهم ، وينهبون ما فيها من الأثاث والمال ، مع أن ذلك محرم عليهم بنص التوراة ، وإذا أسر بعضهم فدوهم بالمال ، وكانوا إذا سئلوا ، لم تقاتلونهم وتفدونهم ، قالوا : أمرنا- أي في التوراة- بالفداء ، فيقال : فلم تقاتلونهم ؟ فيقولون : حياء أن تستذل حلفاؤنا ، فأنزل الله : أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ « ١ »

(٢١٥/١)

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ١٢١

ج ١ ، ص : ٢١٥

و كانت الآيات السابقة تذكيرا لبني إسرائيل الذين كانوا في عصر موسى عليه السلام بأهم الأوامر التي أمروا بها من عبادة الله وحده والإحسان إلى الوالدين وذوي القربى وغير ذلك ، أما هذه الآيات فكانت للتذكير بأهم المنهيات التي خطرت عليهم ، والخطاب للحاضرين في عصر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو دليل على تضامن الأمة ، وأنها كالفرد يصيب خلفها أثر ما كان عليه سلفها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

التفسير والبيان :

واذكر يا محمد لليهود وقت أخذنا عليهم في التوراة العهد بأن لا يقتل بعضهم بعضا ، ولا يخرج

بعضهم بعضا من دياره ووطنه. وفي تعبير « دماءكم ، وأنفسكم ، ودياركم » إشارة إلى أن دم غيره من المجتمع كدم نفسه ، فمن قتل نفسا فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعا ، وهو ما تقرره الآية (٣) (٢) من سورة المائدة.

ثم أقررتم أيها اليهود المعاصرون بالميثاق الذي أخذ على أسلافكم ، ولم تنكروه ، فالحجة قائمة عليكم.

ثم أنتم بعد الاعتراف بالميثاق تنقضون العهد ، فيقتل بعضكم بعضا ، كما كان يفعل من قبلكم ، فكانت بنو قينقاع أعداء بني قريظة ، وكان يهود بني قريظة حلفاء الأوس يقاتلون يهود بني النضير حلفاء الخزرج ، إذا تقاتل الأوس والخزرج ، وكان مقتضى الاتفاق في الدين واللغة والنسب بين اليهود أن يكونوا جميعا صفا واحدا.

وكذلك كان كل من اليهود يعاون حلفاءه على إخوانه اليهود بالإثم كالقتل والسلب والنهب ، والعدوان كالإخراج من الديار. وكانوا إذا تم الاتفاق على مفاداة الأسرى ، يفدي بالمال كل فريق من اليهود أبناء جنسه ، عملا بالكتاب

ج ١ ، ص : ٢١٦

(٢١٦/١)

المقدس ، مع أن السبب الذي أدى إلى الأسر وهو الطرد والإجلاء محرم عليكم في التوراة كتحرير القتل ، فكيف تؤمنون ببعض الكتاب وتمثلون حكم مفاداة الأسرى ، وتكفرون بالأحكام الأخرى ، فترتكبون جرائم القتل والإخراج والتعاون بالإثم والاعتداء ، علما بأن الإيمان بشيء لا يتجزأ ، والكفر ببعضه كالكفر ب كله ؟

فمن آمن ببعض التوراة ، وكفر ببعضها الآخر ، ليس له جزاء على هذا الفعل المتناقض المستهجن إلا ذل وهوان في الدنيا ، وعذاب أليم دائم في الآخرة ، وما الله بغافل عن عمل إنسان ، فهو يجازيه على سيئاته.

ثم قررت الآيات حكما عاما لأولئك اليهود وغيرهم : وهو أن من آثروا الحياة الدنيا كالزعامة الفارغة وأخذ المال ، على الآخرة وما فيها من نعيم مقيم ، فهم باعوا آخرتهم بدنياهم بتقديم حظوظهم العاجلة الفانية على حظوظهم الدائمة الخالدة ، وبترك أوامر الله في كتابه ، فلا يخفف عنهم العذاب الأخروي ، ولا يفتر عنهم ساعة واحدة ، ولا هم ينصرون في الدنيا والآخرة ، فلا شافع يشفع بهم ، ولا ولي يدفع عنهم العقاب في جهنم ، لأن خطاياهم كثيرة ، أحاطت بهم ، فحجبتهم عن الرحمة الإلهية ، وأبعدتهم عن الفيض الإلهي.

وهكذا كل أمة ذات دين ، تؤدي بعض أحكامه كالصلاة والصوم والحج ، وتخالف أحكامه الأخرى ، فلم تؤد الزكاة وامتنع الأغنياء عن أداء حقوق الفقراء ، وشاع فيها الربا والزنا والسرقة والرشوة والبغي والظلم ، وأهملت الأسس التي يقوم عليها بنیان النظام الحكومي من العدل ، والمساواة ، والشورى ، والجهاد في سبيل الله ونصرة المؤمنين المستضعفين ، فإنها معرضة للخزي (الهوان) في الدنيا ، والعذاب في نار جهنم في الآخرة.

ج ١ ، ص : ٢١٧

فقه الحياة أو الأحكام :

(٢١٧/١)

الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين المخلصين ، والإخلال بالعهد من صفات الكافرين والمنافقين ، ومن ألزم العهود والمواثيق الواجب تنفيذها واحترامها هو عهد الله ، فمن أخل به ولم يرع جميع بنوده وأحكامه ، استحق العقاب والتوبيخ والاستهجان. وفي تعبير القرآن عن المخالفة والمعصية بالكفر دليل على أن من يقدم على الذنب ، ولا يبالي بنهي الله ، فهو كافر به.

وإن تجزئة أحكام الله ، بأخذ بعضها وقبوله ، ورفض بعضها والإعراض عنه ، كفر بجميع الأحكام الإلهية. قال العلماء : كان الله تعالى قد أخذ على اليهود أربعة عهود : ترك القتل ، وترك الإخراج ، وترك المظاهرة ، وفداء أسرارهم ، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء ، فوبخهم الله على ذلك توبيخاً يتلى ، فقال : أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَهُوَ التَّوْرَةُ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ « ١ » .

وقد أكدت شريعتنا حكم فداء الأسارى وأنه واجب ، قال علماء المالكية وغيرهم : فداء الأسرى واجب ، وإن لم يبق درهم واحد. قال ابن خوزير منداد :

تضمنت الآية وجوب فك الأسرى ، وبذلك وردت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فك الأسارى وأمر بفكهم ، وجرى بذلك عمل المسلمين ، وانعقد به الإجماع. ويجب فك الأسارى من بيت المال ، فإن لم يكن فهو فرض على كافة المسلمين ، ومن قام به منهم أسقط الفرض عن الباقيين « ٢ » .

(١) تفسير القرطبي : ٢ / ٢٢

(٢) المرجع والمكان السابق ، أحكام القرآن للجصاص : ١ / ٤٠

ج ١ ، ص : ٢١٨

موقف اليهود من الرسل والكتب المنزلة [سورة البقرة (٢) : الآيات ٨٧ الى ٨٩]

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)

الإعراب :

أَفَكُلَّمَا الهمزة استفهام بمعنى التوبيخ ، والفاء : حرف عطف ، و « كلما » ظرف زمان يفيد التكرار ، ويقتضي الجواب ، والعامل فيه جوابه وهو اسْتَكْبَرْتُمْ. فَفَرِيقًا منصوب بكذبتهم وفَرِيقًا الثاني منصوب بتقتلون. وإنما تقدم المفعول للاهتمام به ، وإنما قال :

تَقْتُلُونَ ولم يقل « قتلتم » مثل كَذَّبْتُمْ مراعاة لفواصل الآيات.

قُلُوبُنَا غُلْفٌ مبتدأ وخبر. فَقَلِيلًا منصوب لأنه صفة مصدر محذوف ، وما زائدة. وتقديره : فإيماننا قليلا يؤمنون. والمراد بالقليلة هنا النفي ، مثل قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ [الأعراف ٧ / ١٠] أي لا يشكرون أصلا. وَلَمَّا ظرف زمان مبني إما لأنه أشبه معنى الحرف ، أو لأنه تضمن معنى الحرف. وجواب « لما » في رأي البصريين محذوف تقديره : نبذوه أو كفروا به ، وفي رأي الكوفيين : مذكور ، وهو الفاء في قوله فَلَمَّا وكرر « لما » لطول الكلام.

البلاغة :

تقديم المفعول وهو « فريقا كذبتهم » و « فريقا تقتلون » للاهتمام به وتشويق السامع إلى

ج ١ ، ص : ٢١٩

ما بعده. وإنما قال : تَقْتُلُونَ ولم يقل « قتلتم » لتطابق « كذبتهم » لأجل الفواصل ، فإن فواصل الآيات كرووس الأبيات ، ولأن المضارع يستعمل في الماضي الذي بلغ من الغرابة مبلغا عظيما ، كأن صورة قتل الأنبياء ماثلة أمام السامع ينظر إليها.

عَلَى الْكَافِرِينَ ولم يقل « عليهم » : وضع الظاهر مكان الضمير ، ليبين أن سبب اللعنة هو كفرهم.

المفردات اللغوية :

الْكِتَابَ التوراة. وَقَفَّيْنَا أتبعناهم رسولا إثر رسول على منهاج واحد.

وعيسى بالسريانية : يسوع ، ومعناه السيد أو المبارك ، ومريم بالعبرية : الخادم ، لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس. البينات المعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. وأيدناه قويناه. بروح القدس من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أي الروح المطهرة المقدسة : جبريل عليه السلام ، لطهارته ، ينزل على الأنبياء ويقدر نفوسهم ويزكيها ، قال الحسن البصري : « إنما سمي جبريل (روح القدس) لأن القدس هو الله ، وروحه جبريل ، فالإضافة للتشريف » ، قال الرازي : « و مما يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى [في سورة النحل ١٦ / ١٠٢] : قُلْ : نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ » ١ « و يطلق عليه الروح الأمين كما قال تعالى : نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ [الشعراء ٢٦ / ١٩٣ - ١٩٥]. تهوى تحب. استكبرتم تكبرتم عن اتباعه. تفتلون يراد به حكاية الحال الماضية ، أي قتلتم كزكريا ويحيى عليهما السلام. غلف عليها أغشية وأغطية ، فلا تعي ما تقول. بل للإضراب. لعنهم الله أبعدهم من رحمته وخذلهم من القبول. بكفرهم أي ليس عدم قبولهم لخلل في قلوبهم. ما يؤمنون ما زائدة ، لتأكيد القلة ، أي إيمانهم قليل جدا ، أو معدوم.

(٢٢٠/١)

مصدق لما معهم من التوراة ، والكتاب هو القرآن. يستفتحون يستنصرون ببعثته صلى الله عليه وسلم على الكفار ، يقولون : اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان. ما عرفوا من الحق ، وهو بعثة النبي. كفروا به حسدا وخوفا على الزعامة أو الرياسة. سبب نزول الآية (٨٩) :

قال ابن عباس : كانت يهود خبير تقاتل غطفان ، فكلما التقوا هزمت يهود

(١) محاسن التأويل للقاسمي : ٢ / ١٨٦ [.....]

ج ١ ، ص : ٢٢٠

خير ، فعادت اليهود بهذا الدعاء : « اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان ، إلا نصرتنا عليهم » فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان. فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به ، فأنزل الله تعالى : وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَيُّ بَكَ يَا مُحَمَّد ، إلى قوله : فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ « ١ » .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى

اللّٰه عليه وسلّم قبل مبعثه ، فلما بعثه اللّٰه من العرب ، كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء وداود بن سلمة : يا معشر اليهود : اتقوا اللّٰه وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ، ونحن أهل شرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته ، فقال أحد بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم ، فأنزل اللّٰه : وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ [البقرة ٢ / ٨٩].

(٢٢١/١)

و قال السدي : « كانت العرب تمرّ بيهود ، فتلقى اليهود منهم أذى ، وكانت اليهود تجد نعت محمد في التوراة أنه يبعثه اللّٰه ، فيقاتلون معه العرب ، فلما جاءهم محمد صلّى اللّٰه عليه وسلّم كفروا به حسداً ، وقالوا : إنما كانت الرسل من بني إسرائيل ، فما بال هذا من بني إسماعيل » « ٢ » .
التفسير والبيان :
اليهود قساة القلوب ، عبدة المصالح المادية ، والأهواء الذاتية ، فتجددت فيهم الإنذارات الإلهية ، وأرسلت إليهم الرسل ، بعضهم إثر بعض ، فكان

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک والبيهقي في الدلائل بسند ضعيف عن ابن عباس.

(٢) أسباب النزول للواحدي : ص ١٥ ، أسباب النزول للسيوطي : ص ١٩ وما بعدها.

ج ١ ، ص : ٢٢١

بنو إسرائيل أكثر الشعوب حظاً في عدد الرسل الذين أرسلوا إليهم ، ومع ذلك كانوا ينسون الإنذارات ، ويحرفون الشرائع ، ويتبعون أهواءهم ، ويعصون رسلهم ، إما بالتكذيب وإما بالقتل.

(٢٢٢/١)

و هذه الآيات تذكير لهم بإعطاء موسى التوراة ، وإتباعه بالرسول : ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا [المؤمنون ٢٣ / ٤٤] وهم يوشع وداود وسليمان وعزير وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وكانوا كلهم يحكمون بشريعة موسى ، كما قال تعالى : إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ، يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا .. الآية [المائدة ٥ / ٤٤] إلا أن عيسى جاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ، ولهذا أعطاه اللّٰه من البينات - وهي المعجزات كإحياء الموتى وخلقه من الطين كهية الطير ، فينفخ فيها ، فتكون طيراً بإذن اللّٰه ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأنيده بروح القدس وهو جبريل عليه

السّلام- ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له ، وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في بعض الأحكام ، كما قال تعالى إخبارا عن عيسى :
وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ [آل عمران ٥٠] .

وكانت النتيجة أنه كلما جاءهم رسول بما لا تميل إليه نفوسهم ، وهي لا تميل إلى الخير دائما ، كفروا به واستكبروا عليه تجبرا وبغيا ، فمنهم من كذبوه كعيسى ومحمد عليهما السّلام ، ومنهم من قتلوه كزكريا ويحيى عليهما السّلام ، فلا غرابة بعدئذ إن لم يؤمنوا بدعوة محمد صلّى الله عليه وسلّم ، فإن العناد من طبعهم . والخطاب لجميع اليهود ، لأنهم فعلوا ذلك في الماضي ورضي عنهم أولادهم . ومن قبائحهم قولهم للنبي صلّى الله عليه وسلّم : قلوبنا عليها غشاء ، فلا تعي ما تقوله ، ولا تفقه ما تتكلم به ، فيرد الله عليهم : لستم كذلك ، فقلوبكم خلقت مستعدة بالفطرة للنظر الذي يوصل إلى الحق ، لكن الله أبعدكم من رحمته ، بسبب كفركم
ج ١ ، ص : ٢٢٢

(٢٢٣/١)

بالأنبياء وعصيانكم التوراة. ولم يظلمهم الله بهذا الإبعاد أو الطرد من رحمته ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، فإيمانهم قليل جدا ، فهم آمنوا ببعض الكتاب ، وتركوا العمل ببعض الآخر أو حرفوه ، أو أنهم لم يؤمنوا أصلا .

وكان عندهم وصف النبي صلّى الله عليه وسلّم وبيان زمانه ، وكانوا يستنصرون به على المشركين ويقولون : اللهم انصرنا بالنبي المبعوث آخر الزمان الذي نجد نعته في التوراة . فلما جاءهم كتاب من عند الله وهو القرآن الذي أنزل على محمد صلّى الله عليه وسلّم ، مصدق لما معهم من التوراة ، ومؤكد وصف النبي المعروف عندهم ، كفروا به حسدا للعرب ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، واستكبروا عن قبول دعوته وإجابته احتقارا للرسول ، وهم يعلمون أنه رسول الله ، وآثروا الدنيا على الآخرة ، فلعنة الله على كل كافر من اليهود وغيرهم ، لأنه كفر بدعوة الإسلام .
فقه الحياة أو الأحكام :

هذه صورة واضحة تبين موقف فئة من البشر من الأحكام الإلهية ، فمن أعرض عنها ، وجحد بها ، واستكبر عن قبولها ، كان مصيره المحقق المنتظر هو استحقاق العذاب والطرد من رحمة الله تعالى . وهذا الحشد المتتابع من الرسل الذين جاؤوا لبني إسرائيل يدل على مزيد العناية الإلهية بأعنى البشر ، وتمكينه من العودة إلى طريق الحق ، فإذا عوقب ذلك العاتي المستكبر ، كان عقابه حقا وعدلا .
والله تعالى منزّه عن ظلم أحد ، ففي قوله تعالى : بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ [البقرة ٨٨] بيان السبب

في نفورهم عن الإيمان ، وهو أنهم لعنوا بما تقدم من كفرهم واجترائهم ، وهذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه.

ج ١ ، ص : ٢٢٣

و كل ما ذكر من أخبار اليهود وإظهار قبائحهم وتقريعهم على ظلمهم وكفرهم وإطلاع النبي على ما كانوا يكتُمونه من شريعة التوراة ، فيه دلالة على نبوته عليه السلام.

(٢٢٤/١)

كفرهم بما أنزل الله وقتلهم الأنبياء [سورة البقرة (٢) : الآيات ٩٠ الى ٩١]
بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
فَبَأَوْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا
أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ (٩١)
الإعراب :

« ما » في بئسما : إما نكرة موصوفة على التمييز بمعنى شيء ، والتقدير : بئس الشيء شيئا ، واشتروا
به أَنْفُسَهُمْ صفته ، وإما بمعنى الذي في موضع رفع ، و « اشتروا به » صلتها ، وتقديره : بئس الذي
اشتروا به أنفسهم ، وَأَنْ يَكْفُرُوا في تقدير المصدر ، وهو المقصود بالذم ، وهو في موضع رفع لوجهين
: أن يكون مبتدأ وما تقدم خبره ، أو أن يكون خبر مبتدأ محذوف وتقديره : هو أن يكفروا ، أي
كفرهم.

وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا نَصَبَ مُصَدِّقًا عَلَى الْحَالِ مِنَ الْحَقِّ ، والعامل في الحال معنى الجملة ، وهذه الحال
حال مؤكدة ، فالحق لا يجوز أن يفارق التصديق لكتب الله عز وجل ، ولو فارق التصديق لها لخرجت
عن أن تكون حقا.
البلاغة :

عَذَابٌ مُهِينٌ أَسْنَدَتِ الْإِهَانَةَ إِلَى الْعَذَابِ مِنْ قَبِيلِ إِسْنَادِ الْأَفْعَالِ إِلَى أَسْبَابِهَا.

ج ١ ، ص : ٢٢٤

المفردات اللغوية :

اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ باعوها ، لأن « اشترى » بمعنى باع ، وبمعنى ابتاع ، وكل من ترك شيئا وأخذ غيره
فقد اشتراه. بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْقُرْآنِ. بَغْيًا مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ لِيَكْفُرُوا ، أي حسدا. فَبَأَوْ رَجَعُوا. بِغَضَبٍ

الغضب أشد من اللعن ، والتكبير للتعظيم ، والمعنى :
فرجعوا وانقلبوا متلبسين بالغضب.

(٢٢٥/١)

وَ يَكْفُرُونَ الْوَاوِ لِلْحَالِ . بِمَا وَرَاءَهُ سِوَاهُ أَوْ بَعْدَهُ مِنَ الْقُرْآنِ . وَهُوَ الْحَقُّ حَالٌ . مُصَدِّقًا حَالٌ ثَانِيَةً مُؤَكَّدَةً .
فَلِمَ تَقْتُلُونَ قَتَلْتُمْ ، وَالخَطَابُ لِلْمَوْجُودِينَ فِي زَمَنِ نَبِيِّنَا بِمَا فَعَلَ آبَاؤُهُمْ ، لِرِضَاهُمْ بِهِ .
التفسير والبيان :

يعلم اليهود المعاصرون للنبي صلى الله عليه وسلم أنه النبي المبشر به في التوراة : الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ [البقرة ٢ / ١٤٦] ولكنهم لم يؤمنوا حسدا وبغيا ، فعقب الله على
موقفهم بدمهم ذما شديدا ، باختيارهم الكفر على الإيمان ، وبذل أنفسهم فيه ، وكأنهم فقدوها كما
يفقد البائع المبيع ، وكانت علة كفرهم محض العناد الذي هو نتيجة الحسد ، وخوف ضياع الزعامة
والمال من أيديهم ، وكراهة أن ينزل الله الوحي من فضله على من يختاره من عباده ، فأصبحت عاقبتهم
أنهم قد رجعوا بغضب من الله جديد لكفرهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ، بعد كفرهم بموسى عليه
السلام وبمن جاء بعده من الأنبياء . ولهم بسبب كفرهم عذاب يصحبه إهانة وإذلال في الدنيا والآخرة ،
أما في الدنيا فلهم الخزي وسوء الحال ، وأما في الآخرة فلهم الخلود في نار جهنم .
وإذا

قال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليهود المدينة : آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله ، قالوا : إنما
نؤمن بالذي أنزل علينا في التوراة ، ونكفر بما سواه وهو القرآن الذي جاء مصدقا لها ، وهو الحق
الذي لا شك فيه .
فيرد الله عليهم : إن القرآن هو الحق من عند الله المصدق للتوراة التي معكم ، وكلاهما من عند الله ،
فكيف

ج ١ ، ص : ٢٢٥

(٢٢٦/١)

تكفرون ببعض الكتب وتؤمنون ببعضها ؟ بل إنكم لم تؤمنوا بالتوراة التي فيها تحريم القتل ، وقد قتلتم
الأنبياء بغير حق ، فلم قتلتموهم إن كنتم بالتوراة مؤمنين ؟ ! وقد نسب القتل إلى معاصري النبي صلى
الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا راضين بفعل أسلافهم الغابرين ، فأقروهم على القتل وغيره ، ولم يعدوه

مخالفة أو معصية ، وفاعل الكفر ومجيزه سواء ، وطبع السوء ينتقل في الذرية ، وهم متضامنون متكافلون ، مصرون على إقرار أفعال السلف. فإن لم يوجد إقرار أو رضا ، فلا إثم على الأبناء ، لأن كل نفس مسئولة عن حالها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

فقه الحياة أو الأحكام :

ليس من العقل السليم ، بل ولا من المصلحة الحقيقية للإنسان أن يؤثر الفاني على الباقي ، والشيء التافه الرخيص على الغالي الثمين ، لأن دوام الخير وبقاء النعمة أصون للمنفعة ، وأكرم للنفس ، لذا ندد القرآن بأفعال اليهود ، مقررا : بئس الشيء الذي اختاروا لأنفسهم ، حيث استبدلوا الباطل بالحق ، والكفر بالإيمان.

وإذ لم يؤمن اليهود إيماناً كاملاً بالتوراة التي أنزلها الله على نبيهم موسى عليه السلام ، فلا أمل في إيمانهم بالقرآن.

وإن استمرارهم في طريق الكفر قديماً وحديثاً ، بعبادتهم العجل ، وإعنات موسى وكفرهم به ، وتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكفرهم بالقرآن ، يؤولهم العذاب المهين : وهو ما اقتضى الخلود الدائم في نار جهنم. أما تعذيب عصاة المؤمنين في النار فهو مؤقت ، وتمحيص لهم وتطهير ، كما يطهر المذنب في الدنيا بالعقاب ، مثل رجم الزاني وقطع يد السارق.

ج ١ ، ص : ٢٢٦

تكذيب ادعائهم الإيمان بالتوراة [سورة البقرة (٢) : الآيات ٩٢ الى ٩٣]

(٢٢٧/١)

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمِ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)

الإعراب :

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ اللام لام القسم.

وَاسْمِعُوا المراد به سماع تدبر وطاعة والتزام ، لا مجرد إدراك القول ، فهو مؤكد لقوله :
خُذُوا

البلاغة :

وَأُشْرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ أي حب العجل ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، كقوله تعالى : وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ، وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا [يوسف ١٢ / ٨٢] أي أهل القرية وأهل

الغير.

وفي قوله أَشْرَبُوا استعارة مكنية ، شبه حب عبادة العجل بمشروب لذيد سائغ الشراب ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهو الإشراب. بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ بِالْتَّوْرَةِ ، لأنه ليس في التوراة عبادة العجول ، وإضافة الأمر إلى إيمانهم تهكم ، كما قال قوم شعيب :
أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ [هود ١١ / ٨٧] وكذلك إضافة الإيمان إليهم. وقوله : إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ تشكيك في إيمانهم ، وقدح في صحة دعواهم له (الكشاف : ١ / ٢٢٧).
المفردات اللغوية :

« البينات » المعجزات كالعصا واليد وفلق البحر. ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ جَعَلْتُمُوهُ إِلَهًا مَعْبُودًا.
مِنْ بَعْدِهِ من بعد ذهابه إلى الميقات. وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ باتخاذها.
ج ١ ، ص : ٢٢٧

(٢٢٨/١)

وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَةِ. الطُّورَ الْجَبَلِ. بِقُوَّةٍ بجد واجتهاد. وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ خَالَطَ حُبَّ الْعِجْلِ قُلُوبَهُمْ ، كما يخالط الشراب الجسد.
بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ أَي بئس شيئا ، يأمركم به إيمانكم بالتوراة عبادة العجل. إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
بالتوراة ، كما زعمتم ، والمعنى : لستم بمؤمنين بالتوراة ، وقد كذبتكم محمدا ، والإيمان بها لا يأمر بتكذيبه.

التفسير والبيان :

لقد كفر اليهود بالنعم التي أنعم الله بها عليهم كما بان في الآيات السابقة والتي كانت في أرض الميعاد ، وكفروا أيضا بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات التي جاء بها موسى ، والتي تدل على أنه رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله. والآيات البينات : هي التي حدثت قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة ، وهي تسع كما قال تعالى : وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ [الإسراء ١٧ / ١٠١] ، وهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر والسنون.
ولم تزد لهم تلك الآيات إلا توغلا في الشرك والوثنية ، ولم يشكروا نعم الله عليهم ، وقابلوها باتخاذ العجل إلها يعبدونه من دون الله ، والعجل : هو الذي صنعه لهم السامري من حليتهم ، وجعلوه إلها وعبدوه. وهذا دليل على قسوة قلوبهم وفساد عقولهم ، فلا أمل في هدايتهم ، وهو ظلم ووضيع للشيء في غير موضعه اللائق به ، وأي ظلم أعظم من الإشراف بالله ؟
واذكر يا محمد وقت أن أخذ عليهم الميثاق بأن يعملوا بما في التوراة ويأخذوا بما فيها بقوة ، فخالقوا

الميثاق وأعرضوا عنه ، حتى رفع الطور عليهم إرهابا لهم ، فقبلوه ، ثم خالفوه وكأنهم قالوا : سمعنا وعصينا ، ثم أوغلوا في المخالفة ووقعوا في الشرك ، واتخذوا العجل إلها ، وخالط حبه قلوبهم ، وتمكن الحب الشديد لعبادة العجل في نفوسهم ، بسبب ما كانوا عليه من الوثنية في مصر .

(٢٢٩/١)

قل يا محمد لليهود الحاضرين ، بعد أن علموا أحوال رؤسائهم السالفين : إن

ج ١ ، ص : ٢٢٨

كان إيمانكم بالتوراة يدعوكم إلى هذا ، فبئس هذا الإيمان الذي يوجه إلى هذه الأعمال التي تفعلونها ، مثل عبادة العجل ، وقتل الأنبياء ، ونقض الميثاق .

وهاتان الآيتان ردّ على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وزعموا أنهم مؤمنون بالتوراة دون غيرها ، فهم في الواقع لم يؤمنوا بشيء ، لا بالتوراة ولا بالقرآن ، فاستحقوا التوبيخ والتفريع .

فقه الحياة أو الأحكام :

إن الإيمان الصحيح بشيء هو الذي يدعو إلى الانسجام التام مع مقتضيات ذلك الإيمان ، فمن آمن بالتوراة بحق ، وجب عليه العمل بما فيها ، والتزام أوامرها ، واجتناب نواهيها ، وهذا يدعو أيضا إلى الإيمان بكل ما يؤيدها ويؤكددها ويقرر مضمونها ، وقد جاء القرآن مصدقا لما في التوراة ، فلزم الإيمان به ، واتباع هديه .

أما اليهود في الماضي وفي عصر النبوة فعجيب أمرهم ، يدّعون الإيمان بالتوراة ، وهي التي ترشد إلى توحيد الإله وعبادته ، ثم يعبدون العجل ويتخذونه إلها ، ويكفرون بآيات الله ، ويخالفون الأنبياء ، ويكفرون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا أكبر الذنوب وأشد الأمور عليهم ، إذ كفروا بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس جميعا .

فكيف يدّعون الإيمان لأنفسهم ، وقد فعلوا هذه الأفعال القبيحة من نقض الميثاق ، والكفر بآيات الله ، وعبادة العجل من دون الله ؟ .

ومع ذلك عفا الله عنهم وقبل توبتهم لما تابوا عن عبادة العجل ، كما سبق في تعداد نعم الله عليهم .

ج ١ ، ص : ٢٢٩

حرص اليهود على الحياة [سورة البقرة (٢) : الآيات ٩٤ الى ٩٦]

(٢٣٠/١)

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)
وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمَنْ
الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْخِزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ (٩٦)

الإعراب :

خالصة إما خبر كان ، أو حال من الدار ويجعل عند الله خبر كان.
أَحَدُهُم الضمير يعود على اليهود وَمَا هُوَ بِمُرْخِزِهِ هو : ضمير مرفوع منفصل اسم « ما » وهو كناية عن
أحد ، وَأَنْ يُعَمَّرَ في موضع رفع فاعل مرزح كانه قال :
ما أحدهم يزحزحه من العذاب تعميره.

البلاغة :

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أتى هنا بلن وفي سورة الجمعة بلا لأن ادعاءهم هنا أعظم من ادعائهم هناك ، فإنهم ادعوا
هنا اختصاصهم بالجنة ، وهناك كونهم أولياء لله من دون الناس.
على حَيَاةٍ التنكير للتنبيه على أنها حياة مخصوصة وهي التي يعمر فيها الشخص آلاف السنين.
المفردات اللغوية :

خالصة خاصة بكم.

أَحْرَصَ النَّاسِ الحرص : الطلب بشره على حَيَاةٍ أي على طول العمر ، لما يعلمون من مآلهم السيء ،
وعاقبتهم عند الله الخاسرة ، لأن الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر. لَوْ يُعَمَّرُ لو يطول عمره بِمُرْخِزِهِ
مبعده.

ج ١ ، ص : ٢٣٠

سبب نزول الآية (٩٤) :

أخرج ابن جرير الطبري عن أبي العالية قال : قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، فأنزل
الله : قُلْ : إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً .. [البقرة ٢ / ٩٤].
التفسير والبيان :

(٢٣١/١)

أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول لليهود : إن كنتم صادقين في دعواكم أن الجنة خالصة لكم من
دون الناس ، وأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودات ، وأنكم شعب الله المختار ، فاطلبوا الموت
الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم الذي لا ينزعكم فيه أحد ، إذ لا يرغب الإنسان عن

السعادة ويختار الشقاء. ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ، ما بقي على الأرض يهودي إلا مات. قال ابن عباس : « و لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه » .

وروي عن ابن عباس أن المراد : ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب منا ومنكم ، فأبوا ذلك وما دعوا ، لعلمهم بكذبهم.

قال ابن كثير : هذا الذي فسر به ابن عباس الآية هو المتعين ، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة. والقول بتمني الموت لا تظهر فيه الحجة عليهم ، إذ يقال : إنه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم أنهم يتمنون الموت ، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمني الموت ، وكم من صالح لا يتمنى الموت ، بل يود لو يعمر ، ليزداد خيرا ، وترتفع درجته في الجنة ، كما جاء في الحديث : « خيركم من طال عمره ، وحسن عمله » « ١ » .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١ / ١٢٧ - ١٢٨

ج ١ ، ص : ٢٣١

و على أي وجه أو حال : لن يتمنى الموت أحد منهم أبدا ، بسبب ما اقترفوا من الكفر والفسوق والعصيان ، كتحريف التوراة ، وقتل الأنبياء والأبرياء ، والكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم ، مع البشارة به في كتابهم. والله يعلم أنهم ظالمون في حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم ، وأن غيرهم من الشعوب محروم منها ، وسيجازيهم على أعمالهم.

(٢٣٢/١)

ثم يقسم الله تعالى بذاته العلية « و تا لله » لتجدن اليهود أحرص الناس على حياة طويلة ، بل وأحرص من جميع الناس حتى الذين أشركوا بالله ، ولم يؤمنوا بالبعث ، فهؤلاء المشركون يفترض أن يكونوا أحرص الناس على الحياة ، إذ هي الأولى والأخيرة عندهم ، فمشركو العرب لا يعرفون إلا هذه الحياة ، ولا علم لهم من الآخرة.

ولكن اليهود الحريصين على الدنيا والمادة يتمنى أحدهم أن يعيش ألف سنة أو أكثر - والعرب تضرب الألف مثلا للمبالغة في الكثرة - لأنه يتوقع عقاب الله في الآخرة ، فيرى أن الدنيا خير من الآخرة. وما بقاؤه في الدنيا - وإن طال - بمبعده عن أمر الله وتعذيبه بالعذاب الأليم ، والله عليم بخفيات أعمالهم وبما يصدر منهم ، وهو مجازيهم به ويعاقبهم عليه.

فقه الحياة أو الأحكام :

هذه الآيات امتحان لمعرفة صدق إيمان اليهود ، ودحض دعاويهم الباطلة التي حكاها الله عز وجل في كتابه ، كقوله تعالى : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً [البقرة ٢ / ٨٠] وقوله : وَقَالُوا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى [البقرة ٢ / ١١١] وقالوا : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ [المائدة ٥ / ١٠١] وموضوع الامتحان تمنى الموت ليحظوا بالسعادة الأبدية ، وبذل أرواحهم في سبيل الله ، والذود عن الدين وحرماته. ونتيجة الامتحان الإخفاق المحتم ، لأن اليهود

ج ١ ، ص : ٢٣٢

قوم ماديون يحبون البقاء في الدنيا ، ويكرهون لقاء الله ، فلا ثقة لهم بأنفسهم فيما يزعمون ، ويظلمون في قلق وحيرة واضطراب دائم وشك يخيفهم ويزعج أعماق نفوسهم. والآية الكريمة من المعجزات المتضمنة الإخبار بالغيب ، الذي تحقق فعلا ، فلم يقع منهم تمنى الموت في عصر النبي صلى الله عليه وسلم الذي قال : « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقامهم من النار » « ١ » .

(٢٣٣/١)

و الله سبحانه وتعالى العليم الخبير بصير عالم بما يعمل هؤلاء الذين يود أحدهم أن يعمر ألف سنة. قال العلماء : وصف الله عز وجل نفسه بأنه بصير على معنى أنه عالم بخفيات الأمور. والبصير في كلام العرب : العالم بالشيء الخبير به ، ومنه قولهم : بصير بالطب ، وبصير بالفقه ، وبصير بملاقة الرجال.

موقف اليهود من جبريل والملائكة والرسل [سورة البقرة (٢) : الآيات ٩٧ الى ٩٨] قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) الإعراب :

مَنْ شَرْطِيَّةٌ مُبْتَدَأٌ ، وَجُمْلَةٌ كَانَ وَاسْمُهَا وَخَبَرُهَا : هِيَ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ. وَاسْمُ كَانَ ضَمِيرٌ تَقْدِيرُهُ هُوَ ، وَعَدُوًّا الْخَبَرُ. وَلِجِبْرِيلَ مَمْنُوعٌ مِنَ الصَّرْفِ لِلْعِلْمِيَّةِ (التعريف) والعجمة. وجواب مَنْ الشَّرْطِيَّةُ قَوْلُهُ : فَإِنَّهُ وَالْهَاءُ فِيهِ تَعُودُ إِلَى جِبْرِيلَ ، وَنَزَّلَهُ أَيِ الْقُرْآنَ ، لِدَلَالَةِ الْحَالِ عَلَيْهِ ، مِثْلُ : إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ [الدخان ٤ / ٣] أَيِ الْقُرْآنَ ، وَمِثْلُ كُلِّ مَنْ عَلَيْهَا فَانِ

(١) تفسير القرطبي : ٣٣ / ٢. وفي بعض النسخ « و رأوا مقاعدهم »

ج ١ ، ص : ٢٣٣

[الرحمن ٥٥ / ٢٦] أي الأرض ، ومثل حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ [ص ٣٨ / ٣٢] أي الشمس وإن لم يسبق له ذكر. مُصَدِّقًا حال منصوب من هاء نَزَّلَهُ وكذلك هُدًى وَبُشْرَى حال من هاء نَزَّلَهُ. فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ « أقام المظهر مقام المضمّر ، كقوله تعالى : إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [يوسف ١٢ / ٩٠] أي أجرهم. وجملة فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ .. جواب الشرط. البلاغة :

(٢٣٤/١)

نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ خَص القلب بالذكر ، لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف. وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ذَكَرَا بعد الملائكة من باب ذكر الخاص بعد العام للتشريف والتنويه. فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ الجملة اسمية لزيادة التقييد ، لأنها تفيد الثبات. وأقام الظاهر مقام المضمّر لبيان صفة الكفر وهو عداوتهم للملائكة.

المفردات اللغوية :

الْعَدُوُّ : ضد الصديق ، يستوي فيه المذكر والمؤنث ، والواحد والمثنى والجمع. وَهَدًى من الضلالة وَبُشْرَى بالجنة. وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ عطف على الملائكة من عطف الخاص على العام فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ولم يقل : لهم ، بيانا لحالهم. سبب نزول الآية (٩٧) :

أخرج الترمذي أن اليهود قالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي ، فمن صاحبك حتى نتابعك ؟ قال جبريل ، قالوا : ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال ، ذاك عدونا ! لو قلت : ميكائيل الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعتك ، فأنزل الله الآية إلى قوله : للكاشرين « ١ » .

قال الإمام أبو جعفر الطبري رحمه الله : أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا أن

(١) تفسير القرطبي : ٣٦ / ٢ ، وأخرجه أيضا أحمد والنسائي ، انظر أسباب النزول للسيوطي :

ص ٢٣ ، والواحد : ص ١٥

ج ١ ، ص : ٢٣٤

هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بني إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولي لهم ، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله ، قالوا ذلك.

فروى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال : حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سلوا عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة ، وما أخذ يعقوب على بنيه : لئن أنا حدثتكم عن شيء ، فعرفتموه لتتابعني على الإسلام » فقالوا : ذلك لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سلوا عما شئتم » قالوا : أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن ، أخبرنا : أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، وأخبرنا : كيف ماء المرأة وماء الرجل ، وكيف يكون الذكر منه والأُنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبي الأُمي في التوراة ومن وليه من الملائكة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « عليكم عهد الله ، لئن أنا أنبأتكم لتتابعني ؟ » فأعطوه ما شاء الله من عهد وميثاق . فأجابهم عن الأسئلة كلها ، وحينما قال لهم : « إن وليي جبريل ، ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه » قالوا : إنه عدونا ، فأنزل الله عز وجل : قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ ...

و

روى البخاري عن أنس بن مالك قال : سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في أرض (يخترف) فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي :

ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : « أخبرني بهذه جبريل آنفا » قال : جبريل ؟ قال :

« نعم » ، قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ هذه الآية : مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ .

« أما أول أشراط الساعة : فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وأما

ج ١ ، ص : ٢٣٥

أول طعام يأكله أهل الجنة ، فزيادة كبد الحوت . وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة ، نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعته .

قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، وإنهم إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني .

فجاءت اليهود : فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أي رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ » قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، قال : « رأيتم إن أسلم ؟ » . قالوا : أعاده الله من ذلك ، فخرج عبد الله ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله . فقالوا : هو شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه ، فقال : هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله « ١ » . قال ابن حجر في فتح الباري : ظاهر السياق أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ الآية ، ردا على اليهود ، ولا يستلزم ذلك نزولها حينئذ ، قال : وهذا المعتمد ، فقد صح في سبب نزول الآية قصة عبد الله بن سلام (السابقة).

و

جاء في بعض الروايات : أن أحد علماء اليهود من أبحار فدك عبد الله بن سوريا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي ، فقال : هو جبريل ، فقال ابن سوريا : ذاك عدونا ، ولو كان غيره لآمنا به ، وقد عادانا جبريل مرارا ، ومن عداوته أن الله أمره أن يجعل النبوة فينا ، فجعلها في غيرنا ، وهو صاحب كل خسف وعذاب ، وأنذر بخراب بيت المقدس . وميكال يجيء بالخصب والسلام.

وفي رواية أن عمر بن الخطاب دخل مدراسهم « ٢ » ، فذكر جبريل ، فقالوا :

(١) تفسير الطبري ١/ ٣٤٢ وما بعدها ، تفسير ابن كثير : ١/ ١٢٩ - ١٣٠

(٢) المدراس : بيت تدرس فيه التوراة.

ج ١ ، ص : ٢٣٦

ذاك عدونا ، يطلع محمدا على أسرارنا ، وأنه صاحب كل خسف وعذاب ، وأن ميكائيل ملك الرحمة ينزل بالغيث والرخاء.

التفسير والبيان :

(٢٣٧/١)

قل أيها النبي لهم : من كان عدوا لجبريل ، فهو عدو لوهي الله الذي يشمل التوراة وغيرها ، فإن الله نزل بالوحي والقرآن على قلبك يا ذن الله وأمره ، والقرآن موافق لما تقدمه من الكتب كاللغة والإنجيل الداعية إلى توحيد الله وأصول الأخلاق والعبادات ، وهو هداية من الضلالات ، وبشرى لمن آمن به بالجنة ، فكيف يكون طريق الخير سببا للبعث والكراهية.

ثم أكد الله سبحانه حكمه المبرم وهو من كان عدوا لله بمخالفة أوامره ، وعدم إطاعته ، والكفر بما

أنزله لهداية الناس ، وعدوا للملائكة بكرهه العمل بما ينزلون به من وحي ورسالة يبلغونها للناس ، وعدوا لرسل الله بتكذيبهم في دعوى الرسالة ، مع وجود الأدلة على صدقهم ، أو يقتل بعضهم كقتل زكريا ويحيى ، وعدوا لجبريل وميكائيل بادعاء أن الأول يأتي بالندر ، فإن الله عدو له ومجازيه على ذلك ، لأنه كافر به ومعاد له ، وظالم لنفسه ، وتلك العداوة كفر صريح .
فقه الحياة أو الأحكام :

تعددت اعتذارات اليهود عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن ، فقالوا سابقا :
إنهم مؤمنون بالتوراة ، كافرون بغيرها ، وقالوا : إنهم ناجون حتما في الآخرة ، لأنهم شعب الله وأحبائه ، وقالوا هنا : إن جبريل أمين الوحي على محمد عدوهم ، فلا يؤمنون بما جاء به . فأبطل الله تعالى مزاعمهم ، وفند حججهم ، وأظهر تناقضهم ، وأبان لهم أن معاداة الله وملائكته ورسله سبب واضح قاطع لإنزال العقاب بهم في الدنيا والآخرة ، وفي هذا وعيد شديد ، وتنديد بأن اليهود أعداء
ج ١ ، ص : ٢٣٧

(٢٣٨/١)

الحق والرسالات الإلهية وأعداء القرآن وسائر الكتب السماوية ، لأن معاداة أمين الوحي جبريل ، ومعاداة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعاداة الكتب السماوية ، معاداة لكل الملائكة وسائر الأنبياء والكتب ، إذ إن المقصد منها واحد ، وهو هداية الناس ، وإرشادهم إلى الخير ، ولأن رسالة جميع الأنبياء واحدة ، والغاية منها متحدة ، فلا يصح التفريق بين الملائكة والرسل والكتب ، وكلها من مصدر واحد ، وتهدف خيرا مشتركا ، وتدعو إلى توحيد الله ، وعبادته ، والالتزام بأصول الأخلاق والفضائل التي هي عنوان تقدم الفرد والجماعة .

كفرهم بالقرآن ونقضهم العهد [سورة البقرة (٢) : الآيات ٩٩ الى ١٠١]
وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١)
الإعراب :

بَيِّنَاتٍ حال .

أَوَكُلَّمَا .. الهمزة استفهام بمعنى التوبيخ ، والواو حرف عطف وكلما : نصب على الظرفية .
كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الكاف حرف تشبيه ، لا موضع لها من الإعراب ، وموضع الجملة رفع وصف لفريق .

ج ١ ، ص : ٢٣٨

البلاغة :

رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ التَّنْكِيرُ لِلتَّفْخِيمِ ، ووصف الرسول بأنه آت من عند الله لإفادة مزيد التعظيم وراء ظُهُورِهِمْ مثل يضرب للإعراض عن الشيء ، فهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية.
المفردات اللغوية :

(٢٣٩/١)

وَلَقَدْ اللّام لام القسم بَيِّنَاتٍ واضحات الْفَاسِقُونَ المتمردون من الكفرة ، قال الحسن البصري : إذا استعمل الفسق في نوع من المعاصي ، وقع على أعظم ذلك النوع من كفر وغيره. واللام في الْفَاسِقُونَ للجنس ، والأحسن - كما قال الرمخشري - أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب.
عَاهَدُوا عَهْدًا على الإيمان بالنبي إن خرج ، أو النبي ألا يعاونوا عليه المشركين.
نَبَذَهُ طرحه ، والمراد نقضه ، وهو جواب كلما ، وهو محل الاستفهام الإنكاري بَلْ للانتقال.
وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ أي لم يعملوا بما فيها من الإيمان بالرسول وغيره كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ما فيها من أنه نبي حق أو أنها كتاب الله.

سبب نزول الآية (٩٩) :

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن عبد الله بن سوريا قال للنبي صَلَّى الله عليه وسلّم : يا محمد ، ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فأنزل الله في ذلك : وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ.

وسبب نزول الآية (١٠٠) :

أن مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ، وذكر ما أخذ عليهم من الميثاق ، وما عهد إليهم في محمد قال : والله ما عهد إلينا في محمد ، ولا أخذ علينا ميثاقا ، فأنزل الله تعالى : أَوْكَلَّمَا عَاهَدُوا .. الآية.

ج ١ ، ص : ٢٣٩

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى ما جبل عليه اليهود من خبث النفس ونقض العهد ، وتكذيب رسل الله ، ومعاداة جبريل أمين الوحي عليه السلام ، أعقب ذلك أن من عادة اليهود التكذيب بآيات الله ، وعدم الوفاء بالعهود ، وتكذيب الرسل ، والإعراض عن القرآن. وفي ذلك تسلية للنبي صَلَّى الله عليه وسلّم حيث عارضوا دعوته ، وأعرضوا عن القرآن الكريم.
التفسير والبيان :

و الله لقد أنزلنا إليك يا محمد دلائل واضحات تدل على صدق رسالتك ، تقتزن أصولها الاعتقادية ببراهينها ، وأحكامها العملية بوجوه منافعها وغاياتها المصلحية ، فلا تحتاج إلى دليل آخر يوضحها ، فهي كالنور يظهر الأشياء ، وهو ظاهر بنفسه ، ولا يكفر بها إلا المتمردون على آياتها وأحكامها من الكفرة ، الذين استحبوا العمى على الهدى ، حسدا لمن ظهر الحق على يديه ، وعنادا ومكابرة منهم. إنهم كفروا بالله ، وكلما عاهدوا عهدا مع الله ، أو مع رسول الله نقضه فريق منهم : الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ [الأنفال ٨ / ٥٦] بل نقضه أكثرهم ، ولم يوفوا به ، فاليهود غادرون بمن ائتمنهم ، خائنون الأمانة ، ناقضون العهود والعقود والمواثيق ، وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم ، فنقضوه ، وأكثرهم لا يؤمنون بالتوراة ، وليسوا من الدين في شيء ، فلا يعدون نقض المواثيق ذنبا ، ولا يبالون به ، ولن يؤمنوا أيضا بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالقرآن ، كأنهم لا يعلمون أن التوراة كتاب الله ، لا يدخلهم فيه شك ، يعني أن علمهم بذلك رصين ، ولكنهم كابروا وعاندوا ونبدوه وراء ظهورهم.

ولما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بكتاب مصدق للتوراة في الأصول الدينية العامة ،

ج ١ ، ص : ٢٤٠

كتوحيد الله وإثبات البعث ، والتصديق بالرسول ، ترك فريق من اليهود كتاب الله وراء ظهورهم - وهو تمثيل لتركهم وإعراضهم عنه ، مثل أي شيء يرمى به وراء الظهر - استغناء عنه ، وقلة النفات إليه ، لأنهم لم ينفذوا بعض ما فيه ، ولم يؤمنوا به إيمانا حقا كأنهم لا يعلمون أن من لم يؤمن بالقرآن الموافق للتوراة ، لا يكون مؤمنا بكل منهما ، وهو كناية عن الإعراض عن التوراة بالكلية. فقه الحياة أو الأحكام :

هذا سجل من قبائح اليهود أوضحه الله تعالى وهو من أخبار الغيب ، التي لا يعلمها إلا علام الغيوب ، وقد رصد فيه عيوب أربعة وهي :

١ - التكذيب بآيات الله وبيناته وأدلتة الواضحة القاطعة على وجوده ووحدانيته وربوبيته ولزوم عبادته وإطاعة أوامره واجتناب نواهيه.

٢ - عدم الثقة بهم في أي شيء ، لأنهم دأبوا على نقض العهود والغدر بالمعاهدين في كل زمان.

٣ - انقطاع الأمل وسد باب الرجاء في إيمان أكثرهم ، لأن الضلال قد استحوز عليهم.

٤ - لم ينبذ فريق منهم كتاب الله « التوراة » جملة وتفصيلا ، بل نبذوا منه ما يبشر بالنبى صلى الله عليه وسلم ويبين صفاته وما يأمرهم بالإيمان به ، فإن ما في كتابهم من البشارة بنبي يجيء من ولد إسماعيل لا ينطبق إلا على هذا النبي الكريم.

ج ١ ، ص : ٢٤١

اشتغال اليهود بالسحر والشعوذة والطلاسم [سورة البقرة (٢) : الآيات ١٠٢ الى ١٠٣]
وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) الإعراب :

(٢٤٢/١)

اتَّبَعُوا معطوف على قوله تعالى : نَبَذَ فَرِيقٌ .. وَتَتْلُوا أي تتبع بمعنى : تلت ، فأقام المستقبل مقام الماضي. يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ إما حال من ضمير كَفَرُوا أي كفروا معلمين ، أو حال من الشياطين ، أو بدل من كَفَرُوا لأن تعليم السحر كفر في المعنى ، أو خبر ثان للكن. وَمَا أُنْزِلَ .. ما : بمعنى الذي في موضع نصب بالعطف على السحر ، أو في موضع نصب بالعطف على ما تَتْلُوا .. أو في موضع جر بالعطف على مُلْكٍ سُلَيْمَانَ.
فَيَتَعَلَّمُونَ إما معطوف على يُعَلِّمَانِ أو معطوف على فعل مقدر ، وتقديره : يأتون فيتعلمون ، أو معطوف على يُعَلِّمُونَ النَّاسَ أي يعلمونهم فيتعلمون ، أو يكون مستأنفا ، وهو الأوجه ، والضمير لما دل عليه : من أحد.

وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ أي ما هم السحرة بضارين بالسحر أحدا ، ومن : زائدة. وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ ، ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ اللام في لَمَنِ اشْتَرَاهُ لام الابتداء ، ومن بمعنى الذي في موضع رفع ، لأنه مبتدأ ، وخبره ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ واشتراه : صلته ، ومن زائدة لتأكيد

ج ١ ، ص : ٢٤٢

النفي ، وخلاقٍ مبتدأ ، وَلَهُ فِي الْآخِرَةِ خبره ، والمبتدأ وخبره خبر المبتدأ الأول الذي هو « من » ولام لَمَنِ عَلَّمُوا أن تعمل فيما بعدها. ويجوز أن تكون « من » شرطية.
وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا أن هاهنا مصدرية ، والتقدير : ولو وقع إيمانهم ، وَلَوْ حرف يمتنع له الشيء لامتناع غيره

، وجوابه لَمْثُوبَةٌ و « مَثُوبَةٌ » مبتدأ ، وجاز الابتداء به مع كونه نكرة ، لأنه تخصص بالصفة وهو مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فقرب من المعرفة ، وخبره : خَيْرٌ .
البلاغة :

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ هذا جار على الأسلوب البلاغي : وهو أن العالم بالشيء إذا لم يجر على موجب علمه قد ينزل منزلة الجاهل به.

(٢٤٣/١)

لَمْثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عبر بالجملة الاسمية لإفادة الثبوت والاستقرار .
المفردات اللغوية :

ما تَتَلَّوْا أي تلت الشياطين على عهد ملك سليمان من السحر أي في زمان ملكه ، والمراد بالشياطين : شياطين الإنس والجن وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ أي وما سحر ، والسحر لغة : كل ما لطف مأخذه وخفي سببه ، وسحره : خدعه ، والملكان : رجلان صاحباً هيبة ووقار يجلبهما الناس ويحترمونهما . وبابل : بلد بالعراق في أرض الكوفة لها شهرة تاريخية قديمة فِتْنَةٌ اختبار وابتلاء اشْتَرَاهُ استبدل ما تتلو الشياطين خلافاً نصيب وحظ شَرَوْا باعوا . المَثُوبَةُ :

المَثُوبَةُ : الثواب . وكان أهل بابل قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة ، ويسمونها آلهة ، ويعتقدون أن حوادث العالم كلها من أفعالها ، وهم معطلة لا يعترفون بالصانع الواحد المبدع للكواكب وجميع أجرام العالم ، وهم الذين بعث الله تعالى إليهم إبراهيم خليله صلوات الله عليه ، فدعاهم إلى الله تعالى ، وحاجهم بما بهرهم به وأقام عليهم به الحجة « ١ » .
سبب نزول الآية (١٠) (٢) :

قال محمد بن إسحاق : قال بعض أحبار اليهود : ألا تعجبون من محمد ، يزعم أن سليمان كان نبياً ؟ والله ما كان إلا ساحراً ، فأُنزل الله : وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ .

(١) أحكام القرآن للجصاص : ٤٣ / ١

ج ١ ، ص : ٢٤٣

وأخرج الطبري عن شهر بن حوشب قال : قالت اليهود : انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل ، يذكر سليمان مع الأنبياء ، أفما كان ساحراً يركب الريح ؟
فأنزل الله تعالى : وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ .

(٢٤٤/١)

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالفة أن اليهود سألو النبي صلى الله عليه وسلم زمانا عن أمور من التوراة ، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله عليه ما سأله عنه ، فيخصمهم ، فلما رأوا ذلك ، قالوا : هذا أعلم بما أنزل إلينا منا ، وإنهم سأله عن السحر وخصموه به ، فأنزل الله : وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ.

وقال الكلبي : إن الشياطين كتبوا السحر والتّيرنجيات (تصرفات تخيل وليست حقيقة ، وهو أخذ كالسحر وليس به) على لسان آصف : هذا ما علم آصف بن برخيا- كاتب نبي الله سليمان- الملك ، ثم دفنوها تحت مصلاه حين نزع الله ملكه ، ولم يشعر بذلك سليمان. ولما مات سليمان استخرجوه من تحت مصلاه ، وقالوا للناس : إنما ملككم سليمان بهذا فتعلموه ، فلما علم علماء بني إسرائيل قالوا : معاذ الله أن يكون هذا علم سليمان. وأما السفلة فقالوا : هذا علم سليمان ، وأقبلوا على تعلمه ، ورفضوا كتب أنبيائهم : ففشت الملامة لسليمان ، فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأنزل الله عذر سليمان على لسانه ، وأنزل براءته مما رمي به ، فقال : وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ.

المناسبة :

حين نبذ فريق من اليهود وهم أحرارهم وعلماءهم التوراة ، وأعرضوا عنها ، لأنها تدل على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، اشتغلوا بصناعات وأعمال صادّة عن الأديان ، من صنع شياطين الإنس والجن ، وهي السحر والشعوذة والطلاسم التي نسبوها إلى سليمان ، وزعموا أن ملكه كان قائما عليها. وهذه أباطيل منهم وسوسوا بها إلى بعض المسلمين ، فصدّقوهم فيما زعموا منها ،

ج ١ ، ص : ٢٤٤

(٢٤٥/١)

وكذبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر. وإنما قص القرآن علينا ذلك للذكرى ، وليبين لنا ما افتراه أهل الأهواء على سليمان من أمر السحر ، فكان شاغلا عن العمل بالدين وأحكامه لدى اليهود. وقد زعموا أن سليمان هو الذي جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسيه ، ثم استخرجها الناس وتناقلوها. التفسير والبيان :

نبذ اليهود كتاب الله ، واتبع فريق من أحرارهم وعلمائهم الذين نبذوا التوراة ، السحر والشعوذة في زمن ملك سليمان ، لأن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء ، ويضمون إليه أكاذيب ، ثم يلقنونها الكهنة ، فيعلمونها الناس ، ويقولون : إن هذا علم سليمان ، وقام ملك سليمان بهذا. فرد الله عليهم

بأن سليمان ما فعل ذلك ، وما عمل سليمان بالسحر ، ولكن الشياطين هم الذين كفروا باتباع السحر وتدوينه وتعليمه الناس على وجه الإضرار والإغواء ، ونسبته إلى سليمان على وجه الكذب وجحد نبوته ، ويعلمونهم ما أنزل على الملكين ببابل ، وهما هاروت وماروت : وهما بشران صالحان قانتان ، أطلق الناس عليهما ملكين من باب الشبه. وقرأ الحسن البصري : الملكين - بكسر اللام تشبيها بالملوك في الخلق وسماع الكلمة.

وكان هذان الملكان يعلمان الناس السحر الذي كثرت فنونه الغريبة في عصرهم ، ليتمكنوا من التمييز بينه وبين المعجزة ، ويعرفوا أن الذين يدعون النبوة من السحرة كذبا إنما هم سحرة ، لا أنبياء. وقد كان تعلمهما السحر بالإلهام دون معلم ، وهو المقصود بالإنزال ، والذي أنزل عليهما كان من جنس السحر ، لا عينه.

ولكن هذين الملكين اتبعا في تعليم السحر سبيل الإنذار والتحذير ، فلا يعلمان أحدا من الناس ، حتى يقولوا له : إنما نحن ابتلاء واختبار من الله عز

ج ١ ، ص : ٢٤٥

(٢٤٦/١)

وجل ، فلا تعمل بالسحر ولا تعتقد تأثيره ، وإلا كنت كافرا ، أما إذا تعلمته لتعلمه فقط دون اعتقاد بحقيقته ولا تأثير له ولا عمل به ، فلا ضرر ، وكانا يقولان ذلك حفاظا على حسن اعتقاد الناس فيهما. فتعلم الناس من الملكين ما يفرق به بين المرء وزوجه ، أو ما هو تمويه من حيلة أو نفث في العقد أو تأثير نفس وغير ذلك من وسائل التفريق غالبا. والمعنى في عطف وما أنزل على الملكين على قوله يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ أن اليهود اتخذوا السحر من الملكين لا على الوجه المراد من توقي الناس وتحذيرهم ، وقد ألهمنا فنون السحر ليعلم الناس حيل السحرة وخدعهم.

والسحر في الحقيقة لا يؤثر بطبعه ولا بقوة ذاتية فيه ، فلا يحدث الضرر منه إلا بأمر الله وإرادته ، فهو مجرد سبب ظاهري فقط ، وإذا أصيب إنسان بضرر بعمل من أعمال السحرة ، فإنما ذلك بإذن الله تعالى ، وما السحر حينئذ إلا وسيلة أو سبب قد يرتبط المسبب أو النتيجة به ، إذا شاء الله ، فهو الذي يوجد المسببات حين حصول الأسباب ، قال الحسن البصري : من شاء الله منعه ، فلا يضره السحر ، ومن شاء خلى بينه وبينه فضره.

ومن تعلم السحر وعمل به فإنه يتعلم ما يضره ولا ينفعه ، لأنه كان سببا في إضرار الناس ولأنه قصد الشر ، فيكرهه الناس لإيذائه ، ويعاقبه الله في الآخرة لإضراره غيره ، وإفساده المصالح ، وكل عامل

يجزى بما عمل.

وتا لله لقد علم اليهود بأن من ترك كتاب الله وأهمل أصول الدين وأحكام الشريعة التي تسعد في الدارين ، واستبدل به كتب السحر ، ما له في الآخرة إلا العذاب الأليم ، لأنه قد خالف حكم التوراة التي حظرت تعلم السحر ، وجعلت عقوبة من اتبع الجن والشياطين والكهان كعقوبة عابد الأوثان.

ج ١ ، ص : ٢٤٦

(٢٤٧/١)

ولبئس ما باعوا به أنفسهم باتخاذ السحر محل التوراة ، فهم جهلة لا يعلمون حرمة السحر علم اعتقاد وامثال ، لأنهم لم يعملوا بالعلم الصحيح ، وإنما اكتفوا بعلم مبهم لا أثر له في النفس.

ولو أنهم أي اليهود آمنوا بالإيمان الحق بالتوراة ، وفيها البشارة بنبي آخر الزمان ، وآمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبالقرآن ، وتركوا كتب السحر والشعوذة ، واتقوا الله بالمحافظة على أوامره واجتناب نواهيه ، لاستحقوا الثواب العظيم من عند الله ، جزاء على أعمالهم الصالحة ، وهو خير لهم لو كانوا يعلمون العلم الصحيح ، ولكنهم في الواقع لم يكونوا على علم حقيقي وإنما على ظن وتقليد ، إذ لو كانوا على علم ، لظهرت نتائجه في أعمالهم ، ولآمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم واتبعوه وصاروا من المفلحين ، ولما خالفوا كتاب الله ، واتبعوا أهواءهم. فهم حين لم يعملوا بعلمهم الأصيل ، جعلوا كأنهم غير عالمين.

فقه الحياة أو الأحكام :

السحر : أصله التمويه بالحيل والتخايل ، وهو أن يفعل الساحر أشياء ومعاني ، فيخيل للمسحور أنها بخلاف ما هي به ، كالذي يرى السراب من بعيد ، فيخيل إليه أنه ماء ، وكراكب السفينة السائرة بسرعة يخيّل إليه أن ما يرى من الأشجار والجبال سائرة معه.

وجاء ذكر السحر في القرآن في مواضع كثيرة ، ولا سيما في قصص موسى وفرعون ، ووصفه بأنه خداع وتخيل للأعين حتى ترى ما ليس بكائن كائنا ، كما قال تعالى : يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى [طه ٢٠ / ٦٦] وقال : فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ [الأعراف ١١٦ / ٧].

وروى مالك وأبو داود عن بريدة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن

ج ١ ، ص : ٢٤٧

من البيان لسحرا ، وإن من العلم جهلا » ١ « ، وإن من الشعر حكما ، وإن من القول عيالا »

أما

(٢٤٨/١)

قوله : « إن من البيان لسحرا »

فالرجل يكون عليه الحق ، وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق ، فيسحر القوم ببيانه ، فيذهب بالحق. وهذا مذموم. وهو المراد بالحديث في الأصح ، أما السحر الحلال الذي أقره النبي صلى الله عليه وسلم : فهو أن ينبي شخص عن حق فيوضحه ، ويجليه بحسن بيانه ، بعد أن كان خفيا. والسحر : إما حيلة بخفة يد ، وشعوذة ، وإما صناعة وعلم خفي يعرفه بعض الناس. وهل للسحر حقيقة أم لا ؟ اختلف الناس في ذلك « ٢ » .

فرأى جمهور العلماء : أن للسحر حقيقة ، يخلق الله عنده ما شاء ، وأنه تقتدر به النفوس البشرية على التأثير في عالم العناصر ، إما بغير معين ، أو بمعين من الأمور كالكواكب السماوية ، ويرون أن النفوس الساحرة ثلاث مراتب :

الأولى - المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين.

والثانية - بمعين من مزاج الأفلاك (أي طبيعتها) ، أو العناصر (الماء والهواء والتراب والنار) ، أو خواص الأعداد ، أي حساب الجمل ، فلكل حرف من الأحرف الهجائية رقم حسابي معين. والثالثة - تأثير في القوى المتخيلة : بأن يعتمد الشخص إلى القوة المتخيلة ،

(١) ومعنى

قوله « من العلم جهلا »

أن يتكلف العالم إلى علمه ما لا يعلم فيجهله ذلك. ومعنى

قوله : « إن من الشعر حكما »

: هو هذه الأمثال والمواعظ التي يتعظ بها الناس. ومعنى

« إن من القول عيالا »

هو عرضك كلامك وحديثك على من ليس من شأنه ولا يريد.

(٢) تفسير القرطبي : ٢ / ٤٤ - ٤٧ ، تفسير ابن كثير : ١ / ١٤٥ - ١٤٧ ، تفسير الكشاف : ١ /

٢٣١ ، البحر المحيط : ١ / ٣٢٧

ج ١ ، ص : ٢٤٨

فيلقي فيها أنواعا من الخيالات والصور ، ثم ينزلها إلى الحس من الرائين ، بقوة نفسه المؤثرة ، فينظر الراءون كأن شيئا موجودا في الواقع ، وليس هناك شيء من ذلك.

وتنال هذه المراتب بالرياضة ، والتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشرطيات بأنواع التعظيم والعبادة ، فهي لذلك وجهة وسجود لغير الله ، والوجهة لغير الله كفر ، فلهذا كان السحر كفرا. ويرى المعتزلة ، وبعض أهل السنة « ١ » : أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو خداع وتمويه وتخيل. والسحر بهذا المعنى أنواع :

أ- كثير من التخيلات التي مظهرها على خلاف حقائقها ، كما يفعل بعض المشعوذين ، من أنه يريك أنه ذبح عصفورا ، ثم يريكه وقد طار بعد ذبحه ، لخفة حركته ، إذ إن معه اثنين أحدهما المذبوح الذي خبأه ، والآخر الذي أظهره.

وكان سحر سحرة فرعون من هذا النوع ، فقد روى المؤرخون أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصي بصور الحيات والثعابين حتى خيل إلى الناس أنها تسعى ، كما قال تعالى : فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى [طه ٢٠ / ٦٦] من طريق تحمية الزئبق بالنار الموضوعية في أسراب ، وتمدده بفعل الحرارة.

ب- ما يدعونه من حديث الجن والشرطيات بالمواطأة مع قوم أعدوهم لذلك ، وإطاعتها بالرقى والعزائم. وهذا كان فعل الكهان من العرب في

(١) وهم أبو جعفر الاسترابادي من الشافعية ، وأبو بكر الرازي من الحنفية ، وابن حزم الظاهري وطائفة.

ج ١ ، ص : ٢٤٩

(٢٥٠/١)

الجاهلية ، كانوا يוכלون أناسا بالاطلاع على أسرار الناس ، حتى إذا جاء أصحابها أخبروهم بها ، فيعتقدون فيهم أن الشرطيات تخبرهم بالمغيبات.

ج- السعي بالنميمة والوشاية والإفساد ، من وجوه خفية لطيفة ، يتم فيها تحريض الناس على بعضهم بعضا « ١ » .

وقد وفق ابن خلدون بين الرأيين : فمن قال : إن للسحر حقيقة نظر إلى المرتبتين الأوليين ، ومن قال بأنه لا حقيقة له ، نظر إلى المرتبة الثالثة.

حكم السحر :

ليس تعلم السحر محظورا ، وإنما الذي يحظر ويمنع هو العمل به ، قيل لعمر بن الخطاب : فلان لا يعرف الشر ، قال : أجدر أن يقع فيه. نقل ابن كثير عن أبي عبد الله الرازي المعتزلي أنه قال : اتفق المحققون على أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور « ٢ » .

ومن السحر : ما يكون كفرا من فاعله ، مثل ما يدعون من تغيير صور الناس ، وإخراجهم في هيئة بهيمة ، وقطع مسافة شهر في ليلة ، والطيران في الهواء ، فكل من فعل هذا ليوهم الناس أنه محق ، فذلك كفر منه ، ويقتل هذا الساحر ، لأنه كافر بالأنبياء ، يدعي مثل آياتهم ومعجزاتهم.

وأما من زعم أن السحر خدع ومخاريق وتمويهات وتخيلات ، فلا يقتل الساحر ، إلا أن يقتل بفعله أحدا ، فيقتل به.

ولا ينكر أن يظهر على يد الساحر خرق العادات ، مما ليس في مقدور البشر ، من مرض وتفريق وزوال عقل ، وتعويج عضو ، إلى غير ذلك ، مما قام الدليل على استحالة كونه من مقدورات العباد.

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ١٤٥

(٢) المرجع السابق : ص ١٤٤

ج ١ ، ص : ٢٥٠

(٢٥١/١)

وأجمع المسلمون على أنه ليس في السحر ما يفعل الله عنده إنزال الجراد والقمل والضفادع وفلق البحر وقلب العصا وإحياء الموتى وإنطاق العجاوات وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل المنزلة عليهم ، فهذا ونحوه مما يجب القطع بأنه لا يكون ولا يفعله الله عند إرادة الساحر .

الفرق بين معجزات الأنبياء عليهم السلام وبين السحر :

لا يصح لمؤمن أن يجمع بين تصديق الأنبياء عليهم السلام وإثبات معجزاتهم وبين التصديق بأفعال السحرة ، لقوله تعالى : وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى [طه ٢٠ / ٦٩] .

وهناك فرق واضح بين المعجزة والسحر القائم على وجوه التخيلات : وهو أن معجزات الأنبياء عليهم السلام هي على حقائقها ، وبواطنها كظواهرها ، وكلما تأملتها ازدادت بصيرة في صحتها. ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ، لظهر عجزهم عنها.

أما مخاريق السحرة وتخيلاتهم فهي نوع من الحيلة والتلطف لإظهار أمور لا حقيقة لها ، فما يظهر منها ليس على الحقيقة ، ويعرف ذلك بالتأمل والبحث. ومن شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره ، ويأتي بمثل ما قام به « ١ » .

والسحر يوجد من الساحر وغيره ، وقد يكون جماعة يعرفونه ، ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد ، والمعجزة لا يمكن الله أحدا أن يأتي بمثلها وبمعارضتها « ٢ » .
وخلاصة القول : إن الساحر لا قدرة له على شيء من الأمور الخارقة ، وإن

(١) أحكام القرآن للجصاص : ١ / ٤٩ [.....]

(٢) تفسير القرطبي : ٢ / ٤٧

ج ١ ، ص : ٢٥١

(٢٥٢/١)

السحر يعتمد في الغالب على الخداع والتخييلات والتمويهات ، وإن السحرة نصابون يسلبون أموال الناس ، وهم في فقر دائم ، ولو كانوا قادرين على ما يدعونه لأغنوا أنفسهم ، وحققوا الأمجاد بإزالة الممالك ، واستخراج الكنوز ، والغلبة على البلدان ، والاستغناء عن طلب ما في أيدي الناس ، كما قال أبو بكر الجصاص الرازي « ١ » .

يتبين مما ذكر ما يأتي :

١- السحر في اللغة : كل ما لطف مأخذه وخفي.

٢- السحر كما وصفه القرآن تخيل يخدع الأعين ، فيريها ما ليس كائنا أنه كائن.

٣- السحر إما حيلة وشعوذة أو صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ، ومنه تأثير الأرواح والتنويم المغناطيسي.

٤- حكاية القرآن : يُفَرَّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ لَيْسَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ السَّحْرَ يَفْعَلُ هَذَا ، وإنما هي حكاية لما كان معروفا عندهم.

٥- السحر لا يؤثر بطبعه ولا أثر له في نفسه ، وإنما هو سبب ، وما يترتب عنه من أضرار من قبيل ربط المسببات بالأسباب ، كما نصت الآية : وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ [البقرة ٢ / ١٠٢].

٦- دلت الآية على أن عمل السحر كفر وهو قول مالك وأبي حنيفة ، لقوله تعالى : وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ أَيْ مِنَ السَّحَرِ ، وقوله :

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ أَيْ يَعْمَلُ السَّحْرَ ، وقوله : وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا أَيْ بِهِ وَتعليمه ، وقوله عن هاروت وماروت : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ.

(٢٥٣/١)

ورأى الشافعي أن السحر معصية : إن قتل بها قتل ، وإن أضرب بها أدب على قدر الضرر . والرأي الأول أصح ، لأن السحر كلام يعظم به غير الله تعالى ، مثل سحر أهل بابل الذي كان تعظيماً للكواكب ، وهو رأي عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى الأشعري وقيس بن سعد وسبعة من التابعين . لكن تكفير السحرة محصور بمن يعظم الكواكب ، ويسند الحوادث إليها ، أو يزعم أنه يقدر على خوارق العادات ، لأنه يدعي أنه يقدر على مثل معجزات الأنبياء . أما الإفساد بالنميمة أو خفة اليد ، دون ادعاء ما ذكر ، فلا يكون كفراً ، ولا يعد فاعله كافراً .

٧- عقوبة الساحر : للعلماء رأيان في قتل الساحر ، قال الجمهور (أبو حنيفة ومالك وأحمد) : يقتل الساحر ،

لقوله صلى الله عليه وسلم : « حدّ الساحر ضربه بالسيف »

« ١ » وإذا عمل المسلم السحر ، كان مرتداً ، فيقتل

لقوله صلى الله عليه وسلم : « من بدل دينه فاقتلوه » .

و يقتل الساحر لا تقبل توبته في رأي أبي حنيفة ، سواء أكان مسلماً أم ذمياً ، لأن الساحر جمع إلى كفره السعي في الأرض بالفساد ، فأشبهه المحارب (قاطع الطريق) . ولا يقتل الساحر الذمي في رأي مالك إلا أن يقتل بسحره ، ويضمن ما جنى ، ويقتل إن جاء منه ما لم يعاهد عليه « ٢ » .

٧- أجاز سعيد بن المسيب والمزني أن يطلب من الساحر حل السحر عن المسحور ، قال ابن بطال : وفي كتاب وهب بن منبه : أن يأخذ سبع ورقات من

(١) أخرجه الترمذي عن جندب ، لكنه ليس بالقوي ، انفرد به إسماعيل بن مسلم ، وهو ضعيف .

(٢) أحكام القرآن للجصاص : ١ / ٥٠ وما بعدها ، تفسير القرطبي : ٢ / ٤٧ وما بعدها .

(٢٥٤/١)

حسوات ، ويغتسل به ، فإنه يذهب عنه كل ما به ، إن شاء الله تعالى ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله.

٨- تساءل ابن العربي بمناسبة وما أُنزلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ فقال : كيف أنزل الله تعالى الباطل والكفر ؟ ثم قال : كل خير أو شر أو طاعة أو معصية أو إيمان أو كفر منزل من عند الله تعالى ، قال النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح : ماذا فتح الليلة من الخزائن ؟ ماذا أنزل الله تعالى من الفتن ؟ أيقظوا أصحاب الحجر ، رب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة « ١ » .

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٢٨ / ١ ، وانظر أيضا تفسير ابن كثير : ١٤٨ / ١

(٢٥٥/١)

٩- هل هاروت وماروت ملكان ؟

اختلف العلماء ، فقال جماعة : هما ملكان بعثهما الله يبينان للناس بطلان ما يدعون حقيقته ، ويكشفان لهم عن وجوه الحيل التي يخدعون بها الناس ، وينهيانهم عن العمل بها ، يقولان : إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فكانا يعلمانهم للتحرز لا للعمل ، لأن الملائكة أمناء الله على وحيه ، وسفراؤه إلى رسله : لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [التحریم ٦ / ٦] ، بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ، وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [الأنبياء ٢١ / ٢٦ - ٢٧] ، يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ [الأنبياء ٢٠ / ٢٠] .

قال الزمخشري : والذي أنزل على الملكين هو علم السحر ، ابتلاء من الله للناس ، من تعلمه منهم وعمل به ، كان كافرا ، ومن تجنبه أو تعلمه ، لا يعمل به ، ولكن ليتوقاه ولئلا يغتر به ، كان مؤمنا : عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه وروي عن الحسن البصري : أنه كان يقرأ : وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِكسر اللام ، ويقول : كانا عليجين « ١ » أقلفين (غير مختونين) ملكين ببابل ، يأمران بالسحر ويتمسكان به.

أدب الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم ومصدر الاختصاص بالرسالة.

(١) العليج : الواحد من كفار العجم.

(٢٥٦/١)

ج ١ ، ص : ٢٥٤

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٠٤ الى ١٠٥]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

الإعراب :

راعنا جملة فعلية في موضع نصب ب تَقُولُوا ومن قرأ « راعنا » بالتنوين ، نصبه ب تَقُولُوا على المصدر ، أي لا تقولوا رعونة.

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ من للبيان مِنْ خَيْرٍ من زائدة ، والتقدير : خير من ربكم.

البلاغة :

مِنْ رَبِّكُمْ الإضافة للتشريف ، وفيها تذكير للعباد بتربيته لهم. ومن لا ابتداء الغاية. وَاللَّهُ يَخْتَصُّ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ التصدير في الجملتين بلفظ الجلالة ، للإيذان بفخامة الأمر.

المفردات اللغوية :

راعنا أمر من المراعاة ، أي راعنا سمعك أي اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه أو انظر في مصالحنا وتدبير أمورنا ، وكان يقولون له ذلك ، وهي بلغة اليهود سب من الرعونة وهي الجهل

(٢٥٧/١)

ج ١ ، ص : ٢٥٥

والحمق ، فسروا بذلك ، وخاطبوا بها النبي ، فهني المؤمنون عنها. وأمروا أن يقولوا بدلها : انظُرْنَا أي انظر إلينا ، أو انتظرونا وتأنّ علينا وأمهلنا أَلِيمٌ مؤلم وهو النار.

سبب نزول الآية (١٠٤) :

قال ابن عباس في رواية عطاء : وذلك أن العرب كانوا يتكلمون بها ، فلما سمعهم اليهود يقولونها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعجبهم ذلك ، وكان « راعنا » في كلام اليهود سبا قبيحا ، فقالوا : إنا كنا نسب محمدا سرا ، فالآن أعلنوا السب لمحمد ، فإنه من كلامه ، فكانوا يأتون نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقولون : يا محمد راعنا ، ويضحكون ، ففطن بها رجل من الأنصار ، وهو سعد بن معاذ ، وكان عارفا بلغة اليهود ، وقال : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله ، والذي نفس محمد بيده ، لئن سمعتها من رجل منكم لأضربن عنقه ، فقالوا : ألسنتم تقولونها ؟ فأنزل الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا : رَاعِنَا الآية « ١ » .

سبب نزول الآية (١٠٥) :

قال المفسرون : إن المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود : آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قالوا : هذا الذي تدعوننا إليه ، ليس بخير مما نحن عليه ، ولوددنا لو كان خيرا ، فأنزل الله تعالى تكذيبا لهم .

التفسير والبيان :

خاطب الله المؤمنين في هذه الآية في شأن مشترك بينهم وبين اليهود ، موجهها لهم إلى ما هو الأمثل في اختيار اللفظ الذي يبدأ به الكلام مع النبي صلى الله عليه وسلم ،

(١) أسباب النزول للواحي : ص ١٨ ويلاحظ أن الواحي ذكر « سعد بن عباد » والذي عليه المفسرون أنه « سعد بن معاذ » .

ج ١ ، ص : ٢٥٦

فكانوا يقولون إذا ألقى عليهم شيئا من العلم : راعنا سمعك ، أي اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه ، ونراجعك القول لنفهم عنك .

(٢٥٨/١)

و كانت الكلمة راعنا عند اليهود كلمة سب قبيح من الرعونة ، فكانوا يخاطبون بها النبي قاصدين معنى السب والشتيم ، وأصلها في العبرية « راعينوا » أي شير ، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة ، وأمرهم بكلمة تماثلها في المعنى ، وتختلف في اللفظ ، وهي انظرنا التي تفيد معنى الإنظار والإمهال ، كما تفيد معنى المراقبة التي تستفاد من النظر بالعين . وإجمال المعنى : أقبل علينا وانظر إلينا . واسمعوا أيها المؤمنون القرآن سماع قبول وتدبر وإمعان ، وللكافرين ومنهم اليهود عذاب مؤلم شديد ، وفيه إشارة إلى أن ما صدر منهم من سوء أدب في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم كفر ، لأن من يصف النبي بأنه شرير ، فقد أنكر نبوته . فهذا أدب للمؤمنين ، وتشنيع على اليهود .

وأنتم أيها المؤمنون الذين عرفتم شأن اليهود مع أنبيائهم كونوا على حذر ، فما يود أهل الكتاب ومشركو العرب أن ينزل عليكم خير من ربكم كالقرآن والرسالة ، والكتاب الكريم أعظم الخيرات ، فهو الهداية العظمى ، وبه جمع الله شملكم ووحده صفوفكم ، وطهر عقولكم من زيغ الوثنية ، وأقامكم على سنن الفطرة ، وهم يودون نزول الشر بكم وانتفاء أمركم وزوال دينكم .

وحسد الحاسد لا يمنع نعم الله ، والله العليم القدير الحكيم يختص بالنبوة والرحمة والخير من يشاء من عباده : اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعام ٦ / ١٢٤] ويعلم من يؤدي واجبه بشأنها خير أداء ،

فلا ينبغي لأحد أن يحسد أحدا على خير أصابه ، وفضل أوتيته من عند ربه ، فالله وحده صاحب الفضل العظيم.

ج ١ ، ص : ٢٥٧

فقه الحياة أو الأحكام :

(٢٥٩/١)

هاتان الآيتان تذكران شيئا من جهالات اليهود وقبائحهم ، كما سبق ، والمقصود نهى المسلمين عن مثل أفعال اليهود ، وترسيخ عقيدتهم بأن مصدر الخير والرحمة واختيار من هو أهل للنبوة والرسالة هو الله تعالى ، فلا يصح لأحد أن يحسد أحدا على ما آتاه الله من فضله ، وبدئت الآية الأولى بقوله تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وهو أول خطاب خوطب به المؤمنون في هذه السورة ، من ثمانية وثمانين موضعا من القرآن ذكر فيها هذا الخطاب الدال على إقبال الله على المؤمنين ، وتذكيرهم بأن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقى أوامر الله ونواهيه بأتم طاعة وأحسن امتثال.

وموضوع هذا الأدب الجميل : هو أن يتجنب المؤمن في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ما قد يوهم الانتقاص أو الاستهزاء ، ومنعا من استغلال الأعداء استعمال لفظة أو غيرها ، وقد كان اليهود يعنون بكلمة راعنا السب والشتم ، ويخاطبون بها النبي صلى الله عليه وسلم ، ويضحكون فيما بينهم ، فقال لهم سعد بن معاذ ، وكان يعرف لغتهم : عليكم لعنة الله ، والذي نفسي بيده ، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله ، لأضربن عنقه.

وفي تعبير وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ إيماء إلى أن ما صدر من اليهود من سوء الأدب في خطابه صلى الله عليه وسلم كفر لا شك فيه ، لأن من يصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه « شرير » فقد أنكر نبوته ، ومن فعل ذلك فقد كفر.

ففي هذه الآية (١٠) (٤) دليلان :

أحدهما- على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص والغض من قدر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يؤكد مذهب المالكية- وفي رواية عن أحمد- القائلين بوجوب حد القذف حال التعريض بالقذف ، وخالفهم الحنفية والشافعية ، وأحمد

ج ١ ، ص : ٢٥٨

في ظاهر الرواية عنه حين قالوا : التعريض محتمل للقذف وغيره ، والحد مما يسقط بالشبهة.

(٢٦٠/١)

الثاني - التمسك بسد الذرائع وحمايتها وهو مذهب الإمامين مالك وأحمد ، والذريعة : عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه ، يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع ، أي أن كل وسيلة مباحة أدت إلى محظور أو ممنوع فهي حرام ، وكل وسيلة أدت إلى مطلوب شرعا فهي مطلوبة ، أي أن وسيلة الحرام حرام ، ووسيلة الواجب واجبة ، ووسيلة المباح مباحة.

وقوله تعالى : لا تَقُولُوا : رَاعِنَا نَهْيٌ يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ ، سدا للذرائع ، حتى لا يتخذ اللفظ المحتمل ذريعة لشيء قبيح. وقوله سبحانه : وَقُولُوا : انظُرْنَا أمر للمؤمنين أن يخاطبوه صَلَّى الله عليه وسلّم بالإجلال. وقوله عز وجل :

وَأَسْمِعُوا يَفِيدُ جُوب السَّمَاعِ لَمَّا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى جُلَّ وَعَزَّ.

ودل قوله تعالى : وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ عَلَى سَدِّ بَابِ الْحَسَدِ ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ أَي بِنُبُوَّتِهِ ، خص بها محمدا صَلَّى الله عليه وسلّم. وقيل : الرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قديما وحديثا. ورحمة الله لعباده : إنعامه عليهم وعفوه عنهم.

إثبات نسخ الأحكام الشرعية [سورة البقرة (٢) : الآيات ١٠٦ الى ١٠٨]

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨)

ج ١ ، ص : ٢٥٩

الإعراب :

ما نَنْسَخْ ما شرطية في موضع نصب بفعل « نَنْسَخْ » و « نَنْسَخْ » مجزوم بها.

(٢٦١/١)

و نُنسِهَا حذف منه المفعول الأول ، وتقديره « نَنْسِكُهَا » أي نأمر بتركها ، وهو مجزوم بالعطف على « نَنْسَخْ » المجزوم بما الشرطية ، وجواب الشرط : نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أي بالإضافة إلى مصالح العباد إليها في نفسها.

كَمَا سُئِلَ الكاف في موضع نصب ، لأنها صفة لمصدر محذوف ، أي : أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ موسى. و « ما » في « كما » مع الفعل بعدها في تقدير المصدر ، أي : كَسؤال موسى ، والمصدر مضاف إلى المفعول.

البلاغة :

أَلَمْ تَعْلَمْ الاستفهام للتقرير ، والخطاب للنبي صَلَّى الله عليه وسلّم ، والمراد : أمته ، بدليل قوله تعالى :
وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ. أما إظهار لفظ الجلالة بدل الضمير في قوله تعالى : أَنَّ اللَّهَ وَمِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ
لتكوين المهابة في النفوس.

ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ من إضافة الصفة للموصوف ، أي الطريق السوي ، وفيه تشنيع على من ظهر له الحق
، فعدل عنه إلى الباطل.
المفردات اللغوية :

ما نَنْسَخُ النسخ في اللغة : الإزالة ، يقال : نسخت الشمس الظل ، أي أزالته. وفي الاصطلاح الشرعي
: رفع الحكم الشرعي بطريق شرعي متراخ عنه. والإنساء : إذهاب الآية من ذاكرة النبي صَلَّى الله عليه
وسلّم بعد تبليغه إياها ، فمعنى نُنسِها نبخ لكم تركها ، من نسي : إذا ترك ، ثم تعدّى بالألف. نَأَتْ
بِخَيْرٍ مِنْهَا أنفع للعباد في السهولة أو كثرة الأجر. أَوْ مِثْلُهَا في التكليف والثواب. عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
ومنه النسخ والتبديل.

وَلِيُّ الْوَلِيِّ : القريب والصديق. والنصير : المعين ، والفارق بينهما أن الولي قد يضعف عن النصرة ،
والنصير قد يكون أجنبيا عمن ينصره.

تَسْأَلُوا السُّؤَالَ : الاقتراح المقصود به التعت. يَتَبَدَّلُ بدل وتبدل واستبدل : جعل شيئا موضع آخر.
ضَلَّ عدل وجار وأخطأ الطريق الحق. سَوَاءَ السَّبِيلِ السواء من كل شيء في الأصل : الوسط. ومنه قوله
تعالى : فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ [الصافات ٣٧ / ٥٥] والسبيل :

(٢٦٢/١)

الطريق.

ج ١ ، ص : ٢٦٠

سبب نزول الآية (١٠٦) :

قال المفسرون : إن المشركين قالوا : أترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه
، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، ما في هذا القرآن إلا كلام محمد ، يقوله من تلقاء نفسه ، وهو
كلام يناقض بعضه بعضاً ، مثل تغيير حد الزاني بالتعير باللسان : فَأَذُوهُمَا والزانية بالإمساك في البيوت
: فَأَمْسِكُوهُنَّ ... إلى الجلد ، فأنزل الله : وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ [النحل ١٦ / ١٠١] وأنزل
أيضا : مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا [البقرة ٢ / ١٠٦].

سبب نزول الآية (١٠٧) :

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي كعب ورهط من قريش ، قالوا : يا محمد اجعل لنا

الصفاء ذهابا ، ووسع لنا أرض مكة ، وفجّر الأنهار خلالها تفجيرا نؤمن بك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .
وقال المفسرون : إن اليهود وغيرهم من المشركين تمنوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن قائل يقول : يأتينا بكتاب من السماء جملة ، كما أتى موسى بالتوراة ، ومن قائل يقول : وهو عبد الله بن أبي أمية المخزومي : ائتني بكتاب من السماء ، فيه من رب العالمين : إلى ابن أبي أمية ، اعلم أي قد أرسلت محمدا إلى الناس ، ومن قائل يقول : لن نؤمن لك ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : رافع بن حزيمة ووهب بن زيد لرسول الله : يا محمد ، ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء ، نقرؤه ، أو فجّر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك ، فأنزل الله في ذلك : أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ إِلَى قَوْلِهِ : سَوَاءَ السَّبِيلِ .

ج ١ ، ص : ٢٦١

سبب نزول الآية (١٠٨) وما بعدها :

(٢٦٣/١)

كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود ، حسدا للعرب ، إذ خصّهم الله برسوله ، وكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما : وَذَكَّيْنِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْآيَةَ (١٠٩) .

وأخرج ابن جرير الطبري عن مجاهد قال : سألت قريش محمدا أن يجعل لهم الصفاء ذهابا ، قال : نعم ، وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل ، إن كفرتم ، فأبوا ورجعوا ، فأنزل الله : أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ الْآيَةَ .

التفسير والبيان :

نزل القرآن منجما مفرقا على وفق المناسبات والحوادث والوقائع ، أخذنا بمبدأ تربوي ناجح ألا وهو التدرج في التشريع لإصلاح المجتمع العربي الجاهلي تدريجيا ، ومراعاة للمصالح ، وتمكيننا من التخلص من العادات والتقاليد الموروثة شيئا فشيئا ، وإعدادا للحكم الشرعي المستقر ، بتقبل النفوس له وتربيتها على وفق الغاية الشرعية بنحو بطيء ، واقتناع عقلي ذاتي بأفق التشريع ومراميه البعيدة ، فإذا توافرت المصلحة العامة للأمة بقي الحكم ، وإن لم تتوافر عدل أو بدل ونسخ .

والنسخ الذي هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر يكون إما بنسخ لفظ الآية ومعناها ، أو أحدهما ، أو بانتفاء الحكم المستفاد منها مع بقاء نصها . كل ذلك بحسب المصلحة أو الحاجة ، كالطبيب الذي ينوّع الأدوية والأغذية باختلاف الأزمنة والأمزجة والأحوال الصحية ، والأنبياء صلوات

اللّٰه عليهم هم أطباء الأمة ، ومصلحو النفوس ، يوحى إليهم بتبديل الحكم الشرعي لمراعاة الأحوال الحاضرة أو المستقبلية ، فما قد يصلح علاجاً في الماضي قد لا يصلح في المستقبل. وذلك كله يدل على مرونة الإسلام.

ج ١ ، ص : ٢٦٢

(٢٦٤/١)

و ليس النسخ لظهور أو بداء المصالح الجديدة المقتضية لتغيير الحكم ، فاللّٰه سبحانه الناسخ يعلم الماضي والحاضر والمستقبل ، وهو يتدرج في معالجة الأوضاع تبعاً للظروف والأحوال ، منعاً من المفاجأة وأحكام الطفرة ، كالتدرج في تحريم الخمر أو الربا الذي مرّ بمراحل أربع ، والتدرج في تقرير أحكام الجهاد من سلم مطلق إلى إعداد النفوس ، إلى فرضية القتال بحسب الضعف ، ثم بحسب القوة وكثرة العدد.

ومعنى الآية : ما نغير حكم آية ، أو نجعلك تنساها فلا تذكرها ، أو نامر بتركها أو نؤجلها ، إلا أتينا بما هو خير منها للعباد بكثرة الثواب إن كان الناسخ أثقل أو تحقيق المصلحة إن كان الناسخ أخف ، أو مثلها على الأقل في التكليف والثواب.

قال الفخر الرازي : وقد جاء النسيان بمعنى الترك في قوله تعالى : فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً [طه ٢٠ / ١١٥] أي فترك ، وقال تعالى : الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا [الجنّة ٤٥ / ٣٤] ، وقال تعالى : كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا ، فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى [طه ٢٠ / ١٢٦].

ونسخ الحكم قد يكون ببدل أخف وأيسر ، كنسخ عدة المتوفى عنها زوجها من الحول إلى أربعة أشهر وعشر ، أو ببدل مساو كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة عند الصلاة ، أو بأشق منه وثوابه أكثر كنسخ ترك القتال بإيجابه على المسلمين ، ونسخ حبس الزناة في البيوت إلى الجلد ،

ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان لأنه كما

في الحديث الثبت : « أفضل الأعمال أحمرها »

أي أشقها ، وقد تكون الخيرية بإسقاط التكليف لا إلى بدل في رأي جمهور الأصوليين ، مثل نسخ وجوب تقديم الصدقة عند مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونسخ ادخار لحوم الأضاحي ، ونسخ تحريم المباشرة في ليالي رمضان ، بقوله سبحانه :

(٢٦٥/١)

فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ [البقرة ٢ / ١٨٧] ، ونسخ وجوب الإمساك بعد النوم في ليالي

ج ١ ، ص : ٢٦٣

رمضان ، ونسخ قيام الليل في حقه صلى الله عليه وسلم.

أليس الله على كل شيء قدير ؟ فالله القادر على كل شيء لا يصعب عليه نسخ الأحكام.

وأليس الله ملك السموات والأرض ؟ فهو يملك كل ما في الكون أرضه وسماؤه ، ويتصرف بحسب

إرادته ومشيئته ، ويدبر الأمور حسبما يرى من المصلحة ، فله أن ينسخ ما شاء من الأحكام.

وليس لكم ولي سواه يتولى أموركم ، ولا ناصر ولا معين ينصركم ويعينكم غير الله وحده. وفي هذا نصح

للمسلمين أن يعملوا بما يأمرهم به رسولهم ، وينتهوا عما نهاهم عنه.

ثم أتبع التحذير بالوعيد لمن يطلب المعجزات تعنتا وعنادا ، فمن يترك الثقة بالآيات المنزلة بحسب

المصالح ، ويطلب غيرها معاندة للنبي صلى الله عليه وسلم ، كما طلبت اليهود من موسى عليه السلام

أن يريهم الله جهرة ، فقد اختار الكفر على الإيمان ، وضلّ عن الحق ، وترك السبيل السوي كما قال

تعالى : فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ؟ [يونس ١٠ / ٣٢]. ومعنى قوله تعالى : أَمْ

تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا بَلْ تَرِيدُونَ ، أو هي على بابها في الاستفهام ، وهو إنكاري ، وهو يعمّ المؤمنين

والكافرين ، فإنه عليه السلام رسول الله إلى الجميع.

وقوع النسخ :

النسخ جائز عقلا بإجماع أهل الشرائع ما عدا اليهود والنصارى ، وواقع شرعا بإجماع المسلمين ، ما

عدا أبا مسلم الأصفهاني.

ودليل الجواز العقلي : أنه لا يترتب على فرض وقوعه محال ، وهو معنى الجواز ، لأن أحكام الله تعالى

إن لم يراع في شرعيتها مصالح العباد ، فذلك تابع

ج ١ ، ص : ٢٦٤

(٢٦٦/١)

لمشيئة الله ، والنسخ فعل لله ، والله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فقد يأمر بالفعل في وقت ،

وينهى عنه في وقت ، كما أمر بالصيام في نهار رمضان ، ونهى عنه في يوم العيد.

أما لو راعينا في أحكام الله مصالح العباد ، وأن التشريع قائم على أساس المصالح ، كما تقول المعتزلة

، فالمصالح تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان ، فما قد يكون مصلحة لشخص أو في زمن ، قد لا

يكون مصلحة لشخص آخر أو في زمن آخر ، وما دامت المصالح تتغير ، والأحكام يراعى في تشريعها

مصالح الناس ، فإن النسخ أمر ممكن غير محال ، ويكون جائزا عقلا.

وأدلة وقوع النسخ فعلا كثيرة.

منها : إجماع الصحابة والسلف على أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ناسخة لجميع الشرائع السابقة ، أي في غير أصول العقيدة والأخلاق ، مثل تحريم الشحوم ، وكل ذي ظفر على اليهود بسبب ظلمهم ، وأكلهم أموال الناس بالباطل بالربا وغيره.

ومنها : الإجماع على نسخ وجوب التوجه إلى بيت المقدس ، باستقبال الكعبة ، وعلى نسخ الوصية للوالدين والأقربين بآية المواريث ، ونسخ صوم عاشوراء بصوم رمضان ، ونسخ وجوب تقديم الصدقة بين يدي مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم بالعفو عنه.

أما أبو مسلم الأصفهاني من علماء التفسير المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، فإنه أجاز النسخ مطلقا بين الشرائع ، كما هو المشهور عنه ، ولكنه منع وقوعه في الشريعة الواحدة ، مستدلا بقول الله تعالى في صفة القرآن : لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ [فصلت ٤١ / ٤٢] فلو وقع النسخ في القرآن ، لأتاه الباطل. وأجيب بأن النسخ إبطال ، لا باطل ، لأن النسخ حق وصدق ، والباطل ضد الحق ، كل ما في الأمر أن يصبح حكم المنسوخ غير معمول

ج ١ ، ص : ٢٦٥

به ، فلا دلالة في الآية على مطلوب الأصفهاني.

(٢٦٧/١)

ثم إن كل آية قيل فيها : إنها منسوخة ، فإنه يؤولها تأويلا إما بالتخصيص ، أو بانتفاء أمد الحكم الشرعي ، أو بالتقييد ببعض الأحوال ، أو الأشخاص ، ونحو ذلك ، كما فعل في آيات العدة وآيات القتال وغيرها الآتية.

أنواع النسخ :

للسنخ أحوال تسع أهمها ثلاث :

١ - نسخ التلاوة والحكم معا : مثل نسخ صحف إبراهيم وموسى والرسل السابقين ، ومثل نسخ عدد الرضعات من عشر إلى خمس ،

قالت عائشة رضي الله عنها كما في صحيح مسلم وغيره : « كان فيما أنزل عشر رضعات معلومات يحرمن ، فنسخن بخمس رضعات ، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهن فيما يتلى من القرآن »

والقسم الأول منسوخ الحكم والتلاوة ، والقسم الثاني وهو الخمس منسوخ التلاوة باقي الحكم عند الشافعية.

٢- نسخ التلاوة دون الحكم : مثل قول عمر رضي الله عنه : « كان فيما أنزل : الشيخ والشيخة إذا زنيا ، فارجموهما البتة ، نكالا من الله ورسوله » ثبت في الصحيح : أن هذا كان قرآنا يتلى ، ثم نسخ لفظه ، وبقي حكمه .
وأضاف الحنفية أمثلة أخرى من القراءات الشاذة ، مثل قراءة ابن مسعود في صوم كفارة اليمين : « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » وقراءة ابن عباس : « فأفطر فعدة من أيام آخر » وقراءة سعد بن أبي وقاص : « و له أخ أو أخت لأم ، فلكل واحد منهما السدس » .
٣- نسخ الحكم دون التلاوة : وهو كثير ، مثل نسخ حكم آية الوصية للوالدين والأقربين ، ونسخ آية الاعتداد بحول كامل ، ونسخ آية الحبس للمرأة في

ج ١ ، ص : ٢٦٦

البيوت ، وإيذاء الرجل باللسان في حد الزنا ، ونسخ آية تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويجوز بالاتفاق نسخ نص القرآن بالقرآن ، والسنة المتواترة بمثلها ، وخبر الآحاد بمثله وبالمتواتر .

(٢٦٨/١)

و يجوز عند الأكثرين نسخ المتواتر بالآحاد أي نسخ القرآن بغير القرآن ، والمتواتر بغير المتواتر ، ونفى الشافعي وقوعه وقال : لا ينسخ القرآن بالسنة ، ولا السنة بالقرآن ، واستدل بقوله تعالى : نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا دلت الآية على أن الآتي بالبدل هو الله سبحانه ، وهو القرآن ، فكان الناسخ للقرآن هو القرآن ، لا السنة ، وأيضا فإن الله جعل البدل خيرا من المنسوخ أو مثالا له ، والسنة ليست خيرا من الكتاب ولا مثالا له ، فلا تكون ناسخة له . ثم إن الآية ذيلت ببيان اختصاص ذلك التبديل بمن له القدرة الكاملة ، وهو الله تعالى ، فكان النسخ من جهته فقط ، وهو القرآن ، لا السنة . ويؤيد ذلك قوله تعالى :

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ [النحل ١٠١ / ١٦] حيث أسند التبديل إلى نفسه ، وجعله في الآيات .

وأجيب بأن السنة من عند الله كالقرآن ، لقوله تعالى : وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى

[النجم ٥٣ / ٣ - ٤] إلا أن القرآن معجز ومتعبد بتلاوته ، والسنة ليست كذلك . والمراد بالخيرية

والمثلية هو في الأحكام بحسب مصلحة الناس ، لا في اللفظ ، فيكون الحكم الناسخ خيرا من الحكم المنسوخ لاشتماله على تحقيق مصالح العباد ، وقد تأتي السنة بما هو أنفع للمكلف ، مما يدل على أن هذه الآية ليست دالة على أن القرآن لا ينسخ بالسنة .

وقد وقع نسخ القرآن بالسنة في آية الوصية

بالحديث المتواتر : « لا وصية لوارث » .

ج ١ ، ص : ٢٦٧

و قال الشافعي أيضا : لا يجوز نسخ السنة بالقرآن ، ويتطلب كون الناسخ سنة أيضا ، لأن الله تعالى في قوله : لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ [النحل ١٦ / ٤٤] جعل السنة بيانا ، فلو نسخت قرآنا ، خرجت عن كونها بيانا ، وذلك غير جائز .

وأجيب : بأن المراد بالبيان هو التبليغ ، سواء بالقرآن وغيره .

المراد بالآية في قوله تعالى : ما نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ :

(٢٦٩/١)

ذهب الإمام محمد عبده إلى أن الآية لا يراد منها الآية القرآنية ، بل المراد المعجزات الدالة على صدق الرسل ، حيث يبذل الله معجزة الرسول السابق بالمعجزة التي يأتي بها الرسول الذي بعده ، استدلالا بقوله تعالى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وأجيب بأن هذه الآية جاءت للتمهيد في تحويل القبلة ، ونسخ التوجه إليها بالتوجه إلى الكعبة ، فهي في نسخ الأحكام المقررة بالآيات . والمراد بالآية إذا أطلقت : القطعة من السورة المتضمنة أمرا أو نهيا أو غير ذلك .

فقه الحياة أو الأحكام :

أجمع السلف على وقوع النسخ في الشريعة ، ودلت وقائع ثابتة على وقوعه ، بغض النظر عن التعسف في تأويل الآيات المنسوخة ، وليس النسخ جهلا بالحكم الأخير ، أو من باب البداء ، بل هو نقل العباد من عبادة إلى عبادة ، وحكم إلى حكم ، لنوع من المصلحة التشريعية الملائمة لحاجات الناس ، إظهارا لحكمة الله ، وكمال ملكه ، ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدينية والدنيوية ، وإنما كان يلزم البداء (الظهور بعد الخفاء أو ظهور مصلحة لم تكن ظاهرة للمشرع) لو لم يكن عالما بمآل الأمور ، وأما العالم بذلك ، فإنما تتبدل خطابه بحسب تبدل المصالح ، كالطبيب المراعي أحوال العليل ، فراعى

ج ١ ، ص : ٢٦٨

ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته ، لا إله إلا هو ، فخطابه يتبدل ، وعلمه وإرادته لا تتغير ، فإن ذلك محال على الله تعالى .

وجعلت اليهود النسخ والبداء شيئا واحدا ، والفرق بين النسخ والبداء : أن النسخ تحويل العبادة من شيء قد كان حلالا فيحرم ، أو كان حراما فيحلل . وأما البداء : فهو ترك ما عزم عليه ، وهذا يلحق البشر لنقصانهم .

والنسخ في الحقيقة هو الله تعالى ، والنسخ : إزالة ما قد استقر من الحكم الشرعي بخطاب وارد متراخ عنه.

(٢٧٠/١)

و المنسوخ : هو الحكم الثابت نفسه ، لا مثله ، كما تقول المعتزلة : بأنه الخطاب الدال على أن مثل الحكم الثابت فيما يستقبل بالنص المتقدم زائل. وقادهم إلى ذلك مذهبهم في أن الحسن صفة ذاتية للحسن لا تفارقه ، ومراد الله حسن. والفرق بين التخصيص والنسخ أن الأول قصر للحكم على بعض الأفراد ، والثاني قصر له على بعض الأزمان.

وجمهور العلماء على أن النسخ يختص بالأوامر والنواهي ، وأما الأخبار فلا يدخلها النسخ لاستحالة الكذب على الله تعالى. وقد يرد في الشرع أخبار ظاهرها الإطلاق والاستغراق ، ثم تقيد في موضع آخر ، فيرتفع ذلك الإطلاق ، فليس هو من قبيل نسخ الأخبار ، وإنما هو من باب الإطلاق والتقييد ، مثل قوله تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ، أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ [البقرة ٢ / ١٨٦] ظاهره خبر عن إجابة كل داع على كل حال ، لكنه قيد في موضع آخر ، وهو قوله تعالى : فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ [الأنعام ٦ / ٤١].

ج ١ ، ص : ٢٦٩

موقف أهل الكتاب من المؤمنين وكيفية الردّ عليه [سورة البقرة (٢) : الآيات ١٠٩ الى ١١٠] وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) الإعراب :

(٢٧١/١)

لَوْ مصدرية. كُفَّارًا إما مفعول ثان « ليردونكم » أو منصوب على الحال من الكاف والميم في « يردونكم » . حَسَدًا مفعول لأجله ، أي لأجل الحسد. مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ إما متعلق « بودّ » أو « بحسد » والوجه الأول أوجه. المفردات اللغوية :

الحسد تمنى زوال نعمة الغير. فَأَعْفُوا اتركوهم ، والعفو : ترك العقاب على الذنب. وَاصْفَحُوا أعرضوا فلا تجاوزهم ، والصفح : إزالة أثر الذنب من النفس أو الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه ، وهو يشمل ترك العقاب وترك اللوم والتشريب. حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ نصره ومعونته ، وما يأمر فيهم من القتال والقتل ، وهو قتل بني قريظة ، وإجلاء يهود بني النضير وفرض الجزية عليهم. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فهو يقدر على الانتقام منهم.

سبب نزول الآية (١٠٩) :

قال ابن عباس : نزلت في نفر من اليهود قالوا للمسلمين بعد وقعة أحد : ألم تروا إلى ما أصابكم ، ولو كنتم على الحق ، ما هزمتهم ، فارجعوا إلى ديننا فهو خير لكم.

ج ١ ، ص : ٢٧٠

المناسبة العامة للآية (١٠٩) :

بعد أن نهى الله سبحانه في الآيات السالفة عن الاستماع لنصح اليهود ورفض آرائهم ، ذكر هنا وجه العلة ، وهي أنهم يحسدون المسلمين على نعمة الإسلام ويتمنون أن يحرموا منها ، فهم لا يكتفون بكفرهم بالنبي والكيد له ونقض العهود ، وإنما يتمنون أن يرتد المسلمون عن دينهم.

التفسير والبيان :

تمنى كثير من اليهود والنصارى أن يصرفوا المسلمين عن دينهم وأن يعودوا كفارا بعد أن كانوا مؤمنين ، حسدا لهم ، عن طريق التشكيك في الدين وإلقاء الشبه على المؤمنين ، وطلب بعضهم من بعض أن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره ، ليتأسى بهم بعض ضعاف الإيمان.

(٢٧٢/١)

و سبب ذلك : الحسد الكامن والخبث الباطن في نفوسهم ، لا ميلا مع الحق ، ولا رغبة فيه. ومدعاة التمني : هو ما ظهر لهم بالدليل الواضح أن الإسلام دين الحق الصحيح ، وأن محمدا على الحق ، فاعفوا عنهم أيها المسلمون واصفحوا عن أفعالهم ، واصبروا حتى يأتي نصر الله لكم ، ويأذن الله بالقتال ، ويأتي أمره فيهم :

وهو قتل بني قريظة ، وإجلاء بني النضير وإذلالهم ، والله هو القادر على تحقيق النصر : وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [الحج ٢٢ / ٤٠].

ثم نبه الله سبحانه إلى بعض وسائل النصر الذي وعدوا به : وهو أداء الصلاة كاملة الأركان ، تامة الأوصاف ، وأداء الزكاة للفقراء ، ففي الصلاة تتوحد دعائم الإيمان ، وتتقوى الصلة بالله والثقة به ، وتتوثق روابط الأخوة بالاجتماع في المساجد ، وفي الزكاة تتحقق سعادة المجتمع بإغناء الفقراء ،

وتتجلى وحدة الأمة بتكافل أبنائها ، وتعاضد فئاتها ، وثواب كل ذلك مرصود لكم في الآخرة ، فكل ما تعملونه من خير ، تجدون جزاءه الكامل عند ربكم : فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

ج ١ ، ص : ٢٧١

خَيْرًا يَرَهُ

[الزلزلة ٩٩ / ٧] واللّٰهُ عالم بجميع أعمالكم ، بصير بقليلها وكثيرها ، لا تخفى عليه خافية ، من خير أو شرّ ، فالصلاة والزكاة من أسباب النصر في الدنيا ، وكذلك من أسباب السعادة في الآخرة ، بدليل قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

فقه الحياة أو الأحكام :

يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر ، وما هم مشتملون عليه من حسد المؤمنين ، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم ، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو ، أو الاحتمال ، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح . ويأمرهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه .

(٢٧٣/١)

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس قال : كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسدا ، إذ خصّهم الله برسوله صلى الله عليه وسلّم ، وكانا جاهدين في ردّ الناس عن الإسلام ما استطاعا ، فأنزل الله فيهما : وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، لَوْ يَرُدُّونَكُمْ . والحسد نوعان : مذموم ومحمود ، فالمذموم : أن تمنى زوال نعمة الله عن أخيك المسلم ، سواء تمنيت مع ذلك أن تعود إليك أو لا . وهذا النوع الذي ذمّه الله تعالى في كتابه بقوله : أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ [النساء ٤ / ٥٤] وإنما كان مذموما ، لأن فيه تسفيه الحق سبحانه ، وأنه أنعم على من لا يستحق .

وأما المحمود وهو المسمى بالغبطة أو المنافسة ، فهو ما

جاء في صحيح الحديث من قوله عليه السّلام : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو

ج ١ ، ص : ٢٧٢

يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا ، فهو ينفقه آناء الليل ، وآناء النهار » وحقيقته : أن تمنى أن يكون لك ما لأخيك المسلم من الخير والنعمة ، ولا يزول عنه خيره . وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلّتهم ، هم أصحاب القدرة والشوكة ، لأن الصّفا لا يكون إلا من القادر .

أخرج ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد- وأصله في الصحيحين- : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى ، قال الله تعالى : فَأَعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [البقرة ٢ / ١٠٩] . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول من العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله فيهم بالقتل ، فقتل الله به من قتل من صناديد قريش.

(٢٧٤/١)

و قد جرت سنة الله في القرآن أن يقرن الزكاة بالصلاة ، لما في الصلاة من إصلاح حال الفرد ، ولما في الزكاة من إصلاح حال المجتمع ، وكلاهما من أسباب السعادة الدنيوية والأخروية ، بدليل ما أوردف الله تعالى الأمر بهما بقوله : وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ جاء في الحديث : « إن العبد إذا مات ، قال الناس : ما خلف ؟ وقالت الملائكة : ما قدم ؟ » . ودل قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ على أنه مهما فعل الناس من خير أو شر ، سرا وعلانية ، فهو به بصير ، لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزئهم بالإحسان خيرا ، وبالإساءة مثلهما . وهذا الكلام وإن خرج منخرج الخبر ، فإن فيه وعدا ووعيدا ، وأمرًا وزجرا ، وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ، ليجدوا في طاعته ، إذ كان ذلك مذخورا لهم عنده ، حتى يشبههم عليه ، كما قال تعالى : وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ [البقرة ٢ / ١١٠] .

و

ثبت في الحديث : « إذا مات الإنسان ، انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة

ج ١ ، ص : ٢٧٣

جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »

« ١ » . وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه مرّ ببقيع الغرقد « ٢ » ، فقال : السلام عليكم أهل القبور ، أخبار ما عندنا أن نساءكم قد تزوجن ، ودوركم قد سكنت ، وأموالكم قد قسمت ، فأجابه هاتف : يا ابن الخطاب ، أخبار ما عندنا أن ما قدمناه وجدناه ، وما أنفقناه فقد ربحناه ، وما خلفناه فقد خسرناه » . وثبت مثله عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،

(٢٧٥/١)

فمن مواعظه أنه كان إذا دخل المقبرة قال : السلام عليكم أهل هذه الديار الموحشة ، والمحالّ المقفرة ، من المؤمنين والمؤمنات ، ثم قال : أما المنازل فقد سكنت ، وأما الأموال فقد قسمت ، وأما الأزواج فقد نكحت ، فهذا خبر ما عندنا ، فليت شعري ما عندكم ؟ والذي نفسي بيده لو أن لهم في الكلام لقالوا : إن خير الزاد التقوى.

رأي كل فريق من اليهود والنصارى في الآخر [سورة البقرة (٢) : الآيات ١١١ الى ١١٣]
وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
(١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
(١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

(١) رواه البخاري في الأدب ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة.

(٢) بقية الغرق : مقبرة أهل المدينة.

ج ١ ، ص : ٢٧٤

الإعراب :

هُودًا جمع هائد ، أي تائب ، من قوله تعالى : إِنَّا هُذْنَا إِلَيْكَ [الأعراف ٧ / ١٥٦] أي تبنا ، وهو خبر كان المنصوب.

وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ الجملة حال.

البلاغة :

تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ جملة اعتراضية لإبطال دعواهم ، مكونة من مبتدأ وخبر. قُلْ : هاتوا بُرْهَانَكُمْ أمر للتبكي والتفريع.

(٢٧٦/١)

مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ خَصَّ الوجه بالذكر ، لأنه أشرف أجزاء الإنسان. والوجه هاهنا استعارة ، والمعنى : من أخلص نفسه له ، لا يشرك به غيره ، ولا يعبد سواه. عِنْدَ رَبِّهِ العندية للتشريف ، وإظهار اسم الرب محل الضمير لإظهار مزيد اللطف به.

قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ فيه توبيخ شديد لأهل الكتاب ، لأنهم جعلوا أنفسهم بمنزلة من لا يعلم شيئاً أصلاً.

المفردات اللغوية :

هُوداً جمع هائد ، وهم اليهود. أَوْ نَصَارَى أتباع المسيح ، قال ذلك يهود المدينة ونصارى نجران ، لما تناظروا بين يدي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أي قال اليهود : لن يدخلها إلا اليهود ، وقال النصارى : لن يدخلها إلا النصارى. تِلْكَ القولة أَمَانِيَّتُهُمْ شهواتهم الباطلة ، الأمانى : جمع أمنية ، وهي ما يتمناه المرء ولا يدركه. والعرب تسمي كل ما لا حجة عليه ولا برهان له تمنيا وغرورا ، وضلالا وأحلاما. هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ حجتكم على ذلك.

بَلَى يدخل الجنة غيرهم ، وهو مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ جَعَلَ وَجْهَهُ خَالِصًا لِلَّهِ ، وانقاد له ، فإسلام الوجه لله : هو الانقياد له والإخلاص له في العمل ، بحيث لا يتخذ وسيطا بينه وبين ربه. وخصَّ الوجه ، لأنه أشرف الأعضاء ، فغيره أولى ، قال الفخر الرازي : إسلام الوجه لله يعني إسلام النفس لطاعة الله ، وقد يكنى بالوجه عن النفس ، كما قال تعالى : كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [القصص ٢٨ / ٨٨]. وَهُوَ مُحْسِنٌ مُوَحَّدٌ. فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ أَي ثَوَابُ عمله الجنة. وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ في الآخرة. عَلَى شَيْءٍ معتد به ، وكفرت اليهود بعیسی ، وكفرت النصارى بموسى. يَتْلُونَ الْكِتَابَ كل من الفريقين يتلون الكتاب المنزل عليهم ، وفي كتاب اليهود تصديق عيسى ، وفي

ج ١ ، ص : ٢٧٥

(٢٧٧/١)

كتاب النصارى تصديق موسى. كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ أَي كَمَا قَالَ المشركون من العرب وغيرهم. مِثْلَ قَوْلِهِمْ بَيَانٌ لِمَعْنَى ذَلِكَ ، أَي قَالُوا لِكُلِّ ذِي دِينٍ : لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ. فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ .. فِي أَمْرِ الدِّينِ ، فَيَدْخُلُ الْمُحَقَّقُ الْجَنَّةَ ، وَالْمُبْطَلُ النَّارَ. سبب نزول الآية (١١) (٣) :

نزلت في يهود أهل المدينة ونصارى أهل نجران ، وذلك أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم أخبار اليهود ، فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم ، فقالت اليهود : ما أنتم على شيء من الدين ، وكفروا بعیسی والإنجيل ، وقالت لهم النصارى : ما أنتم على شيء من الدين ، فكفروا بموسى والتوراة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية « ١ » .

التفسير والبيان :

لقد نجم عن عدم إيمان أهل الكتاب بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم ضلال وتمزق وانقسام شديد بسبب اتباع الأهواء ، أما اليهود وهم أسوأ حالا من النصارى فلهم حالان : الأولى - تضليل من عداهم ، وادعاؤهم أنهم شعب الله المختار ، وأن النبوة مقصورة عليهم. والثانية - تضليل اليهود

لنصارى ، وتضليل النصارى لهم ، مع ان التوراة شريعة للنصارى ، والإنجيل متمم للتوراة.
ومعنى الآية : أن اليهود قالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ، وكل طائفة منهما تكفر الأخرى. تلك تمنياتهم الباطلة التي لا أساس لها ، ولا فائدة منها ، وإلا فهاتوا البرهان على ما تزعمون أيها اليهود والنصارى ، إن كنتم صادقين ، فليست المسألة مجرد دعوى. وهذا وإن كان ظاهره طلب الدليل على صدق المدعى ، فهو في

(١) البحر المحيط : ٣٥٠ / ١

ج ١ ، ص : ٢٧٦

العرف تكذيب للدعوى ، لأنه لا برهان لهم عليها. وفي هذا إيماء إلى أنه لا تقبل دعوى من دون برهان عليها.

(٢٧٨/١)

ثم ردّ الله عليهم بقوله : بلى كلمة تفيد الجواب لإثبات نفي سابق ، وردّ لما زعموه ، فإن الذي يدخل الجنة من لم يكن هودا أو نصارى ، وهو كل من انقاد لله وأخلص في عمله ، وهو محسن في عبادته وعمله واعتقاده ، وهؤلاء لهم الأجر عند ربهم بلا خوف ولا حزن في الآخرة ، خلافا لعبدة الأوثان والأصنام الذين هم في خوف مما يستقبلهم ، وحزن مما ينزل بهم.
والآية تدل على أن الإيمان وحده لا يكفي ، بل لا بدّ من إحسان العمل أيضا ، وجرت سنة القرآن أن يقرن الإيمان بالعمل الصالح ، مثل قوله تعالى :
وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا
[النساء ٤ / ١٢٤] وقوله : فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ [الأنبياء ٢١ / ٩٤].

واشتدّ الخصام والنزاع بين أهل الكتاب ، فلم يكتفوا بما سبق ، بل قالت اليهود : ليست النصارى على شيء من الدين يعتدّ به ، فلا يؤمنون بالمسيح الذي بشرت به التوراة ، ولا يزالون إلى اليوم يدّعون أن المسيح المبشّر به لما يأت بعد ، وينتظرون ظهوره ، وإعادته الملك إلى شعب إسرائيل. وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء من الدين الصحيح ، فأنكروا تتميم المسيح لشريعة اليهود. قالوا ذلك والحال أنهم أصحاب كتاب يدّعون تلاوته ويؤمنون به ، فالتوراة تبشر برسول منهم يأتي بعد موسى ، والإنجيل يقول : إن المسيح جاء متمما لاموس (شريعة) موسى ، لا ناقضا ، فلو أن اليهود تؤمن بالتوراة ، والنصارى تؤمن بالإنجيل ، لما قالوا مثل ذلك ، لأن كل كتاب نزل من عند الله ،

مصدقاً لما

ج ١ ، ص : ٢٧٧

سبقة ، ومبشراً لما يأتي بعده ، وكل منهما مشروع في وقت ، والمعنى : أن دينهم واحد ، ترك كل فريق منهم بعضه ، وكتاب كل منهم حجة عليهم.

(٢٧٩/١)

و هم في هذا الموقف لا يؤمنون بشيء ، ولقد قال المشركون عبدة الأوثان الذين لا يعلمون شيئاً لعدم وجود كتاب سماوي لديهم مثل مقالة أهل الكتاب ، فقالوا لأهل كل دين : لستم على شيء ، والله يحكم بين الجميع يوم القيامة بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة ، فهو العليم بما عليه كل فريق من حق أو باطل ، ويجازيهم على بطلانهم أشدّ الجزاء ، وأما الجنة : فهي لمن أخلص العبادة لله ، وانقاد له ، وأخلص نفسه لربه ، لا يشرك به غيره ، وهو محسن أي عامل بأوامر الله ، متجنب نواهيه.

فقه الحياة أو الأحكام :

إن من شأن أهل الكتاب أن يؤمن كل فريق بكتاب الآخر ، ثم يؤمنون جميعاً بالقرآن ، لأنهم على علم بأصول الدين والوحي ، وإقرار بمبدأ النبوة ، واعتراف بوجود الإله ، خلافاً لكفار العرب المشركين عبدة الأصنام والأوثان ، لأنهم لا كتاب لهم.

فلا مسوغ لوقوع التنازع والتناقض والتباغض والتعادي والتعاند بين اليهود والنصارى ، وما عليهم إلا أن يعملوا ويؤمنوا بكل ما جاء في كتابهم ، فيشهدوا إلى الإيمان الحق ، والتصديق برسالة كل نبيّ آت. وطريق النجاة لكل إنسان : هو الإيمان الخالص لله ، المتضمن تمام الخضوع والانقياد لأمر الله ، المنزه عن كل شرك ، القائم على العمل الصالح والعبادة الخالصة لله عزّ وجلّ ، فلا ينفع الإيمان وحده دون اقتترانه بالعمل الصالح.

وليس لأحد أو شعب أن يدّعي أنه أحقّ برحمة الله دون غيره ، لأن الله ربّ العالمين ، يجازي كل إنسان بما عمل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر. ولا تقبل

ج ١ ، ص : ٢٧٨

(٢٨٠/١)

دعوى أحد من غير برهان ، فمن ادّعى نفيا أو إثباتا ، فلا بدّ له من الدليل ، وتدل الآية على بطلان التقليد : وهو قبول الشيء بغير دليل. والقرآن ذاته مليء بالاستدلال على القدرة والإرادة والوجود والوحدانية بالآيات الكونية والأدلة العقلية ، ويكفي دليلا على وجوده تعالى الخلق والإبداع والتكوين ، كما يكفي دليلا على وحدانيته عدم صلاح الكون والعالم بتعدد الآلهة كما قال تعالى :

لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا [الأنبياء ٢١ / ٢٢].

ظلم مانع الصلاة في المساجد ، وصحة الصلاة في أي مكان [سورة البقرة (٢) : الآيات ١١٤ الى ١١٥]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) (٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥)

الإعراب :

وَمَنْ أَظْلَمُ مبتدأ وخبر ، ولما كان معنى هذا الاستفهام النفي كان خبرا. أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ في منصوب : إما بدل من مَسَاجِدَ بدل اشتمال ، كقوله تعالى : قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ، النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ [البروج ٨٥ / ٤ - ٥] وإما مفعول لأجله ، أي لئلا يذكر فيها اسمه ، وكراهة أن يذكر فيها اسمه ، كقوله تعالى : وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ [الأنبياء ٢١ / ٣١] أي لئلا تميد بهم ، وكقوله تعالى : يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا [النساء ٤ / ١٧٦] أي لئلا تضلوا ، وكراهة أن تضلوا.

ما كان لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ : أَنْ يَدْخُلُوهَا في موضع رفع ، لأنه اسم كان وَلَهُمْ الخبر ، وخائِفِينَ منصوب على الحال من واو يَدْخُلُوهَا.

(٢٨١/١)

ج ١ ، ص : ٢٧٩

البلاغة :

وَمَنْ أَظْلَمُ استفهام بمعنى النفي ، أي لا أحد أظلم منه. لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ التذكير للتهويل أي خزي هائل لا يوصف.

عَلِيمٌ صيغة مبالغة ، أي واسع العلم.

المفردات اللغوية :

وَمَنْ أَظْلَمُ استفهام إنكاري ويفيد النفي. والظلم : وضع الشيء في غير موضعه.

والمسجد : موضع العبادة لله تعالى. وَسَعَى فِي خَرَابِهَا تَخْرِيبُهَا وَهَدْمُهَا وَتَعْطِيلُهَا ، نَزَلَتْ إِخْبَارًا عَنْ
الرُّومِ الَّذِينَ خَرَبُوا بَيْتَ الْمُقَدَّسِ ، أَوْ فِي الْمُشْرِكِينَ لَمَّا صَدَّوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْحَدِيثِ
عَنِ الْبَيْتِ.

أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ خَبَرَ بِمَعْنَى الْأَمْرِ ، أَيْ أَخِيفُوهُمْ بِالْجِهَادِ ، فَلَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ
أَمْنًا. خِزْيٌ ذُلٌّ وَهَوَانٌ بِالْقَتْلِ وَالسِّيِّ وَفَرْضُ الْجِزْيَةِ. عَذَابٌ عَظِيمٌ هُوَ النَّارُ.
فَثَمَ هُنَاكَ. وَجْهُ اللَّهِ جِهَتُهُ وَقَبْلَتُهُ الَّتِي رَضِيَهَا. وَاسِعٌ يَسَعُ فَضْلُهُ كُلَّ شَيْءٍ ، فَلَا يَحْصُرُ وَلَا يَتَحَدَّدُ. عَلِيمٌ
شَامِلُ الْعِلْمِ بِتَدْبِيرِ خَلْقِهِ.

سبب نزول الآية (١١) (٤) :

هناك روايتان عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية ، ففي رواية الكلبي عنه : نزلت في ططلوس
الرومي وأصحابه من النصارى ، وذلك أنهم غزوا بني إسرائيل ، فقتلوا مقاتلتهم ، وسبوا ذراريهم ،
وحرقوا التوراة ، وخرّبوا بيت المقدس ، وقذفوا فيه الجيف.
وقال قتادة : هو بختنصر وأصحابه غزوا اليهود ، وخرّبوا بيت المقدس ، وأعانتهم على ذلك النصارى
من أهل الروم.

وفي رواية عطاء عن ابن عباس : نزلت في مشركي أهل مكة ، ومنعهم المسلمين من ذكر الله تعالى في
المسجد الحرام. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس : أن قريشا منعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام ، فأنزل الله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ الْآيَةَ.

ج ١ ، ص : ٢٨٠

(٢٨٢/١)

و أخرج ابن جرير عن أبي زيد قال : نزلت في المشركين ، حين صدوا رسول الله عن مكة يوم
الحديبية.

ورجح ابن العربي أنها نزلت في صلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل بيت المقدس ، ثم عاد فصلّى إلى
الكعبة ، فاعترضت عليه اليهود ، فأنزلها الله تعالى له كرامة ، وعليهم حجة ، كما قال ابن عباس.
وعلى أي حال ، العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فتشمل أهل الكتاب ومن على شاكلتهم ،
وينطبق على ما وقع من تيطس الروماني الذي دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة ،
وخرّبها ، وهدم هيكل سليمان ، وأحرق بعض نسخ التوراة ، وكان المسيح قد أُنذِر اليهود بذلك. كما
ينطبق على مشركي مكة الذين منعوا النبي وأصحابه من دخول مكة ، وكذلك على الصليبيين الذين
أغاروا على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين ، وصدّهم عن المسجد الأقصى وتخريبهم كثيرا من

المساجد ، ويتكرر الأمر من اليهود في الوقت الحاضر بتخريب كثير من مساجد فلسطين ، وإحراق المسجد الأقصى ، ومحاولات هدمه المتكررة.
المناسبة :

ذكر النصارى في قوله : وَقَالَتِ النَّصَارَى : لَيْسَتْ الْيَهُودُ وَذَكَرَ الْمُشْرِكُونَ فِي قَوْلِهِ : كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ وفي أي فريق نزلت هذه الآية بسببه ، كان ذلك مناسبا لذكرها.
التفسير والبيان :

لا ظلم ولا اعتداء على الحرمات أشد من منع العبادة في المساجد العامة ، والسعي في تخريبها وهدمها أو تعطيل وظائفها وشعائر الدين فيها ، لما في ذلك من انتهاك حرمة الدين المؤدي إلى نسيان الخالق ، وإشاعة المنكرات والفساد بين

ج ١ ، ص : ٢٨١

الناس. وما كان ينبغي لهؤلاء المخربين أو المعطلين أن يدخلوها إلا بخشية ومهابة وخوف من عظمة الله والدين وسطوة الإسلام والمسلمين. وقد توعدهم الله بالذل والهوان في الدنيا ، كما حل بالرومان الذين تشتت ملكهم ، وبالعذاب الشديد في الآخرة في جهنم ويئس المصير.

(٢٨٣/١)

و إذا حيل بين المسلم وبين المساجد ، فله أن يصلي في أي مكان ، وأينما توجه المصلي فهو متجه إلى الله ، فله جهة المشرق والمغرب أي أن ذلك له ملك وخلق ، فتجوز الصلاة إليه ، والله تعالى عنه راض ، مقبل عليه ، وهو معه ، لأن الله تعالى واسع لا يحده مكان ، ولا ينحصر ولا يتحدد بجهة ، وواسع العلم يعلم كل من اتجه إليه.
فقه الحياة أو الأحكام :

إن تدمير المساجد أو الصد عنها جرم عظيم ، لا يرتكبه إلا من فقد الإيمان ، وعادى جوهر الدين ، واتبع الأهواء ، وحارب الأخلاق والفضائل ، ولم يقدم على تلك الجريمة في الماضي أو في العصر الحاضر ، سواء في ديار الإسلام أو غيرها إلا الملحدون المارقون من الدين ، الذين يبتغون نشر الإلحاد وتقويض دعائم الدين والإسلام.

ومن حمد الله أن دين الإسلام دين السعة واليسر ، وبلاد الله تسع المؤمنين ، فلا يمنعهم تخريب مساجد الله أن يولوا وجوههم نحو قبلة الله ، أينما كانوا في أرض الله.
وقد نزلت الآية (١١٥) - كما ذكر ابن جرير الطبري - قبل الأمر بالتوجه إلى استقبال الكعبة في الصلاة ، وفيها إبطال ما كان يعتقد أرباب الملل السابقة من أن العبادة لا تصح إلا في الهياكل والمعابد.

وبعد الأمر بالتوجه إلى الكعبة يظل المقصود من الآية قائما ، فهي تقرر

ج ١ ، ص : ٢٨٢

أمرا اعتقاديا له صلة بالإيمان الذي يعمر به قلب المؤمن ، فأينما كان المؤمنون من شرق وغرب ، فثم وجه الله الذي أمرنا باستقباله ، وهو الكعبة.

(٢٨٤/١)

و الحكمة من الاتجاه إلى القبلة ، بالرغم من أن القصد هو الله الذي لا يحده مكان ، هو توحيد وجهة العابدين ، وتجميع مشاعرهم وعواطفهم في إطار هدف واحد ، ولأنه لما كان من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، وهو بهذه الطريقة محال على الله ، لأن ذاته تعالى ليست محصورة في شيء من خلقه ، شرع للناس مكانا مخصوصا يستقبلونه في عبادتهم إياه ، وجعل استقباله كاستقبال وجه الله تعالى . قال ابن العربي : إن الله تعالى أمر بالصلاة عبادة ، وفرض فيها الخشوع استكمالا للعبادة ، وألزم الجوارح السكون ، واللسان الصمت إلا عن ذكر الله تعالى ، ونصب البدن إلى جهة واحدة ، ليكون ذلك أنفى للحركات ، وأبعد للخواطر ، وعينت له جهة الكعبة تشريفا له « ١ » .

والخلاصة : هل الآية (١١٥) منسوخة ؟ للعلماء رأيان « ٢ » :

رأي يقول : إن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذنا من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب ، في مسيره في سفره ، وفي حال المسابقة وشدة الخوف . ورأي الجمهور : أنها منسوخة ، وفيها تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين أخرجوا من مكة ، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بمكة إلى بيت المقدس ، والكعبة بين يديه . فلما قدم المدينة ، وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا ، أو سبعة عشر شهرا ، ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد ، ولهذا

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ٣٥ / ١

(٢) تفسير ابن كثير : ١٥٧ / ١ وما بعدها .

ج ١ ، ص : ٢٨٣

يقول تعالى : وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ [البقرة ٢ / ١١٥] .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ : قال ابن عباس :

(٢٨٥/١)

أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا- والله أعلم- شأن القبلة ، قال الله تعالى :
وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ .. الآية.

فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلّى نحو بيت المقدس ، وترك البيت العتيق ، ثم صرفه
إلى بيته العتيق ، ونسخها ، فقال : وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا
كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [البقرة ٢ / ١٥٠].

حكم الخطأ في الاتجاه لغير القبلة :

إذا صلّى الإنسان في أثناء الغيم لغير القبلة مجتهدا ، ثم بان له بعدئذ أنه صلّى لغير القبلة ، فإن صلاته
جائزة عند الجمهور (أبي حنيفة ومالك وأحمد) ، لكن في رأي مالك تستحب له الإعادة في الوقت ،
وليس ذلك بواجب عليه ، لأنه قد أدى فرضه على ما أمر ، والكمال يستدرك في الوقت ، استدلالا
بالسنة فيمن صلّى وحده ، ثم أدرك تلك الصلاة في وقتها في جماعة ، أنه يعيد معهم. ولا يعيد في
الوقت استحبابا إلا من استدبر القبلة أو شرّق أو غرب جدا مجتهدا. وأما من تيامن أو تياسر قليلا
مجتهدا ، فلا إعادة عليه في وقت ولا غيره.

وقال الشافعي : لا يجزيه ، لأن القبلة شرط من شروط الصلاة.

صلاة النافلة على الراحلة :

لا خلاف بين العلماء في جواز النافلة على الراحلة ، لما

أخرجه مسلم عن ابن عمر ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ، وهو مقبل من مكة
إلى المدينة على راحلته ، حيث كان وجهه ، قال : وفيه نزلت : فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ [البقرة ٢ /
١١٥].

ج ١ ، ص : ٢٨٤

و اختلف الفقهاء في المسافر سفرا لا تقصر في مثله الصلاة (أقل من ٨٩ كم) ، فقال المالكية
والثوري : لا يتطوع على الراحلة إلا في سفر تقصر في مثله الصلاة ، لأن الأسفار التي حكى عن رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يتطوع فيها ، كانت مما تقصر فيه الصلاة.

(٢٨٦/١)

و قال أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وداود الظاهري : يجوز التطوع على الراحلة ، خارج المصر ، في
كل سفر ، سواء أكان مما تقصر فيه الصلاة أم لا ، لأن الآثار ليس فيها تخصيص سفر من سفر ، فكل
سفر يجوز فيه ذلك ، إلا أن يخص شيء من الأسفار بما يجب التسليم له « ١ » .
الصلاة على الغائب :

أجاز الشافعي الصلاة على الغائب ، بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه سنة تسع من الهجرة على النجاشي ملك الحبشة- واسمه أصحمة ، وهو بالعربية : عطية ، وقد تساءل الصحابة : كيف نصلي على رجل مات ، وهو يصلي لغير قبلتنا ؟ فنزلت الآية : وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ [آل عمران ٣ / ١٩٩] « ٢ » لكن هذا الخبر غريب جدا وهو مرسل أو معضل.

المقصود بوجه الله في القرآن والسنة :

اختلف الناس في تأويل الوجه المصاف إلى الله تعالى في القرآن والسنة « ٣ » ، فقال جماعة : ذلك من مجاز الكلام ، إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد (المخلوق) وأجلها قدرا. والمراد بمن له الوجه : أي الوجود ، وعليه يتأول قوله تعالى : إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ [الذهر ٧٦ / ٩]. المراد به : لله الذي له الوجه.

(١) تفسير القرطبي : ٨٠ - ٨١

(٢) المصدر السابق [.....]

(٣) المصدر السابق : ٨٣ / ٢

ج ١ ، ص : ٢٨٥

وكذلك قوله : إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى [الليل ٩٣ / ٢٠]. أي الذي له الوجه. قال ابن عباس : الوجه : عبارة عنه عز وجل ، كما قال : وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [الرحمن ٥٥ / ٢٧] ، ومعنى فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ : فشم الله. وهذا يدل على نفي الجهة والمكان عنه تعالى ، لاستحالة ذلك عليه ، وأنه في كل مكان بعلمه وقدرته.

(٢٨٧/١)

و قال بعض الأئمة : تلك صفة ثابتة بالسمع زائدة على ما توجه العقول من صفات القديم تعالى وهذا أولى وأحوط.

افتراءات أهل الكتاب والمشركين بنسبة الولد لله والمطالبة بتكليمه الناس [سورة البقرة (٢) : الآيات ١١٦ الى ١١٨]

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)

الإعراب :

بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَإِنَّمَا رَفَعُ بِالْإِبْتِدَاءِ ، والخبر في المجرور ، أي كل ذلك له ملك بالإيجاد والاختراع. فَيَكُونُ قَرَأَ بِالرَّفْعِ والنصب ، فمن قرأ بالرفع جعله عطفًا على قوله تعالى : يَقُولُ تقديره : فهو يكون. ومن قرأ بالنصب ، اعتبر لفظ الأمر ، وجواب الأمر بالفاء منصوب ، والنصب ضعيف ، لأن « كن » ليس بأمر في الحقيقة.

ج ١ ، ص : ٢٨٦

البلاغة :

سُبْحَانَهُ جملة اعتراضية لإبطال دعوى الظالمين الذين زعموا لله الولد. كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ استعمال صيغة جمع العقلاء في قَانِتُونَ للتغليب أي تغليب العقلاء على غيرهم للتشريف. المفردات اللغوية :

سُبْحَانَهُ تنزيها له عما يصفون ، وتعجبا مما يقول الجاهلون. قَانِتُونَ منقادون ، والقنوت : الخضوع والانقياد.

بَدِيعٌ مبدع ، والإبداع : هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سابق. قَضَى أراد. أَمَرَ أي إيجاده.

لَوْ لَا هَلَا. والآية : الحجة والبرهان. والتشابه : التماثل. واليقين : هو العلم القاطع بالدليل والبرهان. المناسبة وسبب النزول :

(٢٨٨/١)

دلت الآيات السابقة على زعم اليهود أن الجنة خاصة بهم ، وزعموا أيضا كما تفيد الآية هنا أن عزيزا ابن الله ، وزعم النصارى أن المسيح ابن الله ، وزعم المشركون أن الملائكة بنات الله ، فأكذبهم الله جميعا بالدليل القاطع.

فهذه الآية (١١٦) نزلت في اليهود حيث قالوا : عزيز ابن الله ، وفي نصارى نجران حيث قالوا : المسيح ابن الله ، وفي مشركي العرب الذين قالوا : الملائكة بنات الله. وأما سبب نزول الآية (١١٨) : فهو ما

أخرجه ابن جرير الطبري عن ابن عباس ، قال : قال رافع بن خزيمة لرسول الله : إن كنت رسولا من الله كما تقول ، فقل لله : فليكلنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله في ذلك : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الآية.

ج ١ ، ص : ٢٨٧

و حكى القرطبي : لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَيِّ يَخَاطِبُنَا بِنُوتِكَ يَا مُحَمَّد ، قال ابن كثير : وهو ظاهر السياق » ١ .

التفسير والبيان :

(٢٨٩/١)

قالت اليهود : عزيز ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، ولا فرق بين أن يصدر هذا القول من الجميع أو البعض ، فإن أفراد الأمة متكافلون في كل ما يعملون وما يقولون . سبحانه وتعالى تنزيها له عما يدعون ، فليس لله حاجة إلى المعونة ، وله كل ما في السموات والأرض ، الكل خاضع لسلطانه ، منقاد لإرادته . وهو الذي أبدع وابتكر السموات والأرض لا على مثال سبق ، ومالك ما فيهن ، وإذا أراد أمرا أوجده فورا أسرع مما بين حرفي « كن » من غير امتناع . والإيجاد والتكوين من أسرار الألوهية ، عبر عنهما بما يقربهما للفهم بقوله : كُنْ فَيَكُونُ . وإذا اختار الله بعض خلقه للنبوة أو الرسالة كالرسل والملائكة ، فلا يتجاوز حد مرتبة المخلوق ، ويظل الكل عبيدا لله : إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا [مريم ١٩ / ٩٣] فمن كان له ما في السموات والأرض خلقا وملكا ، ومن كان له كل ما في الكون منقاد لأمره ، ومن أبدع السماء والأرض ، ومن له أمر التكوين والإيجاد الفوري ، أحتاج إلى الولد والوالد ؟ ! ويؤيد هذه الآية قول الله تعالى عن مشركي العرب : وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ [الأنعام ٦ / ١٢٤] وقوله تعالى : وَقَالُوا : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا إِلَى قَوْلِهِ : قُلْ : سُبْحَانَ رَبِّي ، هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [الإسراء ١٧ / ٩٠ - ٩٣] وقوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ ، أَوْ نَرَى رَبَّنَا

(١) تفسير القرطبي : ٩٢ / ٢ ، تفسير ابن كثير : ١ / ١٦١

(٢٩٠/١)

ج ١ ، ص : ٢٨٨

الآية [الفرقان ٢٥ / ٢١] وقوله تعالى : بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً [القيامة ٧٥ / ٥٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة

لهم به ، وإنما هو الكفر والمعاندة ، كما قال من قبلهم من أمم أهل الكتاب (اليهود والنصارى) وغيرهم ، كما قال تعالى : يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالُوا : أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً [النساء ٤ / ١٥٣] وقال تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ : يَا مُوسَى ، لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً [البقرة ٢ / ٥٥] .

أما الذين لا يعلمون من المشركين ، لأنه لا كتاب لهم ، ولا هم أتباع نبي يبين لهم ما يليق بالألوهية فقالوا : هلا يكلمنا الله بأنك رسوله حقا ، أو يرسل إلينا ملكا فيخبرنا بذلك ، كما يرسله إليك ، أو تأتينا ببرهان على صدقك في دعواك النبوة ، وليس مرادهم من هذه المطالب إلا الاستكبار والعتو والعناد ، والاستخفاف بالآيات البينات ، والجحود بالقرآن .

ومثل هذه الأسئلة التي يراد منها التعنت ، قد قالها من قبلهم من الأمم الماضية ، كما ذكرنا في الآيات المؤيدة لهذه الآية .

قال أهل الكتاب سابقا مثل قول المشركين ، وقد تماثلت قلوبهم وأرواحهم ، وأشبعت قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في العمى والقسوة والعناد والكفر ، والألسنة ترجمان القلوب ، فما في القلب يعبر عنه اللسان . والحق واحد ، ومخالفته هي الضلال وهو واحد ، وإن تعددت طرقه ، واختلفت وجوهه ، وآثاره تشابه ، حتى كأنهم متواصون به فيما بينهم ، كما قال تعالى : اتَّوَصَّوْا بِهِ ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ [الذاريات ٥١ / ٥٣] .

(٢٩١/١)

و الله سبحانه يبين الآيات وأوضح الدلالات على صدق الرسل أحسن بيان

ج ١ ، ص : ٢٨٩

و أتمه ، بما لا يدع مجالا للشك لدى طالبي الحق بالدليل والبرهان ، ولديهم الاستعداد للعلم واليقين ، وعندهم الفهم الصحيح بسبب إنصافهم وصفاء نفوسهم ، ويعدهم عن العناد والمكابرة ، وقد كان هذا شأن الصحابة يسألون النبي صلى الله عليه وسلم فيما لم يعرفوا دليله ، لمحبتهم الحق ، ووقوفهم عند البينة والدليل ، فهم نماذج المنصفين الموقنين الذين اتبعوا الرسل بقناعة وعقل ، وفهموا ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى .

وأما من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة ، فأولئك قال الله فيهم : إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ، حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [يونس ١٠ / ٩٦] . [٩٧]

فقه الحياة أو الأحكام :

إن الاستجابة لنداء الإيمان تتطلب إعمال العقل وتفتح الكفر ، وصفاء النفس ، وإدراك حقائق الكون ، ولو إدراكا بسيطا ، وتقتضي تجردا عن الحظوظ النفسية ، والأهواء الشخصية ، وترك العناد. فإذا توافرت هذه الاستعدادات ، تسارع نور الإيمان إلى القلب ، فملأ النفس بهجة وسعادة وطمأنينة : أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [الرعد ١٣ / ٢٨].

(٢٩٢/١)

أما نسبة الولد لله فهذا جهل بحقيقة الألوهية التي تمتاز بسمو الاتصاف بشيء فيه نقص من خصال البشر ، ولا تحتاج إلى أحد من الخلق ، فالله هو الأحد الواحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد. ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد ، فكيف يكون للحق سبحانه أن يتخذ ولدا من مخلوقاته : مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ [المؤمنون ٢٣ / ٩١] فالولدية تقتضي الجنسية والحدوث ، والقدم يقتضي الوجدانية والثبوت ، فهو سبحانه القديم الأزلي ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، كما ذكر.

ج ١ ، ص : ٢٩٠

و المخلوقات كلها تقنت لله ، أي تخضع وتطيع ، والجمادات قنوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم. قال الجصاص عن قوله تعالى : بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ : فيه دلالة على أن ملك الإنسان لا يبقى على ولده ، لأنه نفى الولد بإثبات الملك بقوله تعالى : بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يعني ملكه ، وليس بولده »

وقال القرطبي : والله تعالى مبدع السموات والأرض أي منشئها وموجدتها ومبدعها ومخترعها على غير حد ولا مثال سبق. وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له : مبدع. ومنه أصحاب البدع ، وسميت البدعة بدعة ، لأن قائلها ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام ، وفي البخاري : « و نعمت البدعة هذه » يعني قيام رمضان.

(٢٩٣/١)

و كل بدعة صدرت من مخلوق ، فلا يخلو إما أن يكون لها أصل في الشرع أو لا ، فإن كان لها أصل ، كانت واقعة تحت عموم ما ندب الله إليه ، وحض رسوله عليه ، فهي في حيز المدح. وإن لم يكن

مثاله موجودا كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف ، فهذا فعله من الأفعال المحموده ، وإن لم يكن الفاعل قد سبق إليه. ويعضد هذا قول عمر رضي الله عنه : « نعمت البدعة هذه » لما كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح. وإن كانت في خلاف ما أمر الله به ورسوله ، فهي في حيز الذم والإنكار. وهو معنى

قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته : « و شرّ الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » يريد ما لم يوافق كتابا أو سنة ، أو عمل الصحابة رضي الله عنهم. وقد بين هذا بقوله صلى الله عليه وسلم : « من سنّ في الإسلام سنة حسنة ، كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ».

(١) أحكام القرآن للجصاص الرازي : ١ / ٦٥

ج ١ ، ص : ٢٩١

و من سن في الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء » . « ١ » .

أما الخلق والإيجاد فيحدث بمجرد الأمر الإلهي ، فإذا قضى أمرا أوجده فورا ، أي إذا أراد إحكام أمر وإتقانه- كما سبق في علمه- قال له : كن. قال ابن عرفة : قضاء الشيء : إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه ، ومنه سمي القاضي ، لأنه إذا حكم ، فقد فرغ مما بين الخصمين.

(٢٩٤/١)

و يلاحظ أن « قضى » لفظ مشترك ، يكون بمعنى الخلق ، كما في قوله تعالى : فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ [فصلت ٤١ / ١٢] أي خلقهن ، ويكون بمعنى الاعلام ، كما قال تعالى : وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ [الإسراء ١٧ / ٤] أي أعلمنا ، ويكون بمعنى الأمر ، كقوله تعالى : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء ١٧ / ٢٣] ، ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام ، ومنه سمي الحاكم قاضيا. ويكون بمعنى توفية الحق ، قال الله تعالى : فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ [القصص ٢٨ / ٢٩] ، ويكون بمعنى الإرادة ، كقوله تعالى : فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ أي إذا أراد خلق شيء .

قال ابن عطية : « قضى » معناه قَدَّر ، وقد يجيء بمعنى أمضى « ٢ » .

وبمناسبة قوله سبحانه إذا قضى أمرا ذكر العلماء أن الأمر يأتي في القرآن على أربعة عشر وجها : الأول- الدين ، قال الله تعالى : حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ [التوبة ٩ / ٤٨] يعني دين الإسلام.

(١) تفسير القرطبي : ٨٦ - ٨٧

(٢) المصدر السابق : ٨٨ / ٢

ج ١ ، ص : ٢٩٢

الثاني - القول ، ومنه قوله تعالى : إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا [هود ١١ / ٤٠] يعني قولنا ، وقوله : فَتَنَّا زُكْرًا وَأَمْرُهُمْ بَيْنَهُمْ [طه ٢٠ / ٦٢] يعني قولهم.

الثالث - العذاب ، ومنه قوله تعالى : لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ [إبراهيم ١٤ / ٢٢] يعني : لما وجب العذاب بأهل النار.

الرابع - عيسى عليه السلام ، قال الله تعالى : إِذَا قُضِيَ أَمْرًا [مريم ١٩ / ٣٥] يعني عيسى من غير أب.

الخامس - القتل بيدر ، قال الله تعالى : فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ [غافر ٤٠ / ٧٨] يعني القتل بيدر ، وقوله تعالى : لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا [الأنفال ٨ / ٤٢] يعني قتل كفار مكة.

(٢٩٥/١)

السادس - فتح مكة ، قال الله تعالى : فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ [التوبة ٩ / ٢٤] يعني فتح مكة.
السابع - قتل بني قريظة وجلاء بني النضير ، قال الله تعالى : فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ [البقرة ٢ / ١٠٩].

الثامن - القيامة ، قال الله تعالى : أَتَى أَمْرُ اللَّهِ [النحل ١٦ / ١].

التاسع - القضاء ، قال الله تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ [الرعد ١٣ / ٢] يعني القضاء.

العاشر - الوحي ، قال الله تعالى : يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ [السجدة ٣٢ / ٥] أي ينزل

الوحي من السماء إلى الأرض ، وقوله : يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ [الطلاق ٦٥ / ١٢] يعني الوحي.

الحادي عشر - أمر الخلق ، قال الله تعالى : أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ [الشورى ٤٢ / ٥٣] يعني أمور الخلائق.

الثاني عشر - النصر ، قال الله تعالى : يَقُولُونَ : هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ [آل عمران ٣ / ١٥٤]

يعنون النصر ، قُلْ : إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يعني النصر.

الثالث عشر - الذنب ، قال الله تعالى : فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا [الطلاق

ج ١ ، ص : ٢٩٣

٩ / ٦٥] يعني جزاء دينها.

الرابع عشر- الشأن والفعل ، قال الله تعالى : وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ [هود ٩٧ / ١١] أي فعله وشأنه ، وقال : فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ [النور ٢٤ / ٦٣] أي فعله.
التحذير من اتباع اليهود والنصارى [سورة البقرة (٢) : الآيات ١١٩ الى ١٢١]

(٢٩٦/١)

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)

الإعراب :

بَشِيرًا حال من كاف أَرْسَلْنَاكَ وَنَذِيرًا عطف عليه وَلَا تُسْئَلُ قرئ بالرفع على أن لا نافية ، والجملة خبرية حال ، وقرئ بالجزم تسأل على أن لا ناهية.
ما لَكَ مِنَ اللَّهِ فيه وجهان : أحدهما- أن يكون التقدير فيه : مالك من عذاب الله من ولي ، والثاني- أن يكون المعنى : مالك الله وليا ولا نصيرا ، والعرب تقول مثل هذا بحرف الجر ، كقوله تعالى : هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ [النحل ١٠ / ١٠] أي ماء لكم هو شراب.
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ الَّذِينَ اسم موصول مبتدأ ، وآتَيْنَاهُمُ صلته ، وَيَتْلُونَهُ جملة فعلية منصوبة على الحال من ضمير آتَيْنَاهُمُ.
وَأُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ خبره. حَقَّ تِلَاوَتِهِ منصوب على المصدر.
البلاغة :

أَصْحَابِ الْجَحِيمِ التعبير عن الكافرين والمكذبين بذلك إيذان بأنه لا يرجى منهم الرجوع

ج ١ ، ص : ٢٩٤

هُوَ الْهُدَى تعريف الهدى مع اقترانه بضمير الفصل يفيد قصر الهداية على دين الله ، فهو قصر الصفة على الموصوف. وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ من باب التهيج.
المفردات اللغوية :

الْجَحِيمِ النار : وهي جهنم ، وأصحابها هم الكفار.

(٢٩٧/١)

مِلَّتُهُمْ دِينَهُمْ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْإِسْلَامُ وَلَكِنَّ لَامَ قَسَمٍ مِنَ الْعِلْمِ الْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
يَحْفَظُكَ وَلَا نَصِيرٍ يَمْنَعُكَ مِنْهُ.

وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ أَيُّ بِالْكِتَابِ الْمُؤْتَى ، بَأَن يَحْرِفَهُ الْخَاسِرُونَ الْهَالِكُونَ.

سبب نزول الآيات (١١٩ - ١٢٠) :

قيل : نزلت في أبي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لكن الحديث مرسل غير ثابت . و
قال مقاتل فيما رواه بسنده : إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال : « لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا »
، فأنزل الله تعالى : وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ .
٣.

وأما الآية (١٢٠) : فقال المفسرون : إنهم كانوا يسألون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الهدنة ، ويطمعون
أنه إذا هادنهم وأمهلهم اتبعوه ووافقوه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال ابن عباس : هذا في القبلة ، وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قبلتهم ، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة ، شق ذلك عليهم ، فبئسوا منه أن
يوافقهم على دينهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وأما الآية (١٢١) : فقال ابن عباس في رواية عطاء والكلبي : نزلت في أصحاب السفينة الذين أقبلوا
مع جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة ، كانوا أربعين رجلا من الحبشة وأهل الشام . وقال الضحاك :
نزلت فيمن آمن من اليهود . وقال قتادة وعكرمة : نزلت في محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ج ١ ، ص : ٢٩٥

المناسبة :

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ الْآيَاتُ ، ذَكَرَ مِنْ بَيْنَتْ عَلَى يَدَيْهِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَخَاطَبَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ هُوَ
صَاحِبُ الْآيَاتِ ، وَبَعْدَ إِثْبَاتِ الْوَحْدَانِيَةِ أَرَدَفَهُ بِإِثْبَاتِ النَّبَوَةِ .

التفسير والبيان :

(٢٩٨/١)

هذه الآية (١١٩) إيناس للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لئلا يضيق صدره ، فهي تقرر له أنه أرسله للناس
رسولا يبشر المؤمنين وينذر الكافرين ، ويسعد الناس بالعقيدة المطابقة للواقع ، وبالشرائع والأحكام
التي تسعد الناس قاطبة ، ويبشر من أطاعه بالجنة ، وينذر من عصاه بالنار ، وأن مهمته تبليغ الرسالة
دون شيء بعدها ، فلا حرج عليه إن أصرروا على الكفر والعناد : مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ
[الأنعام ٥٢ / ٦] فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ [فاطر ٣٥ / ٨] فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ

إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا [الكهف ١٨ / ٦].

ولا تسأل عن أصحاب النار ، فلا يضرنك تكذيبهم لك ، ولا تأس عليهم ولا تحزن ، فأنت لم تبعث مكرها ولا جبارا ، فتكون مقصرا إن لم يؤمنوا ، بل بعثت معلما ومبلغا وهاديا بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما قال تعالى : لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ [البقرة ٢ / ٢٧٢].
وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرجو أن يؤمن أهل الكتاب برسالته ، لموافقته له في أصل الدين ، من توحيد الله ، وتقويم الاعوجاجات والتقاليد الفاسدة ، فغز عليه إعراضهم عن إجابة دعوته ، ولسان حالهم يقول : يا محمد مهما تأتينا من بينة ، ومهما فعلت لإرضائنا ، فلن نرضى حتى تتبع ملتنا. والملة : هي الطريقة المشروعة للعباد ، والكفر كله ملة واحدة ، وتسمى دينا ، لأن العباد انقادوا لمن سنّها. وتسمى شريعة ، لأنها مورد إلى ثواب الله ورحمته.
ج ١ ، ص : ٢٩٦

(٢٩٩/١)

فرد الله عليهم : إن هدى الله دينه الذي هو الإسلام والذي أنزله على الأنبياء هو الهدى الواجب اتباعه وحده ، أما غيره فمبني على الهوى والشهوة ، وهو ما أضافه إليه اليهود والنصارى ، فإن اتبعت يا محمد أهواءهم ، وما أضافوه إلى دينهم ، بعد ما استقر في قلبك من اليقين والطمأنينة بالوحي الإلهي الذي نزل عليك ، ومنه أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه بالتأويل ، فالله لا ينصرك ولا يؤيدك ، وإذا لم ينصرك الله ويتولاك ، فمن ذا الذي ينصرك من بعده ؟ .
وفي هذا قطع الأمل للنبي عليه السلام في إسلامهم ، لأن رضاهم عنه معلق بمستحيل : وهو اتباع ملتهم والدخول في دينهم.
وهذا الإنذار للنبي والوعيد هو في الحقيقة خطاب للناس كافة ، ممثلين في شخص النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه الإمام والقائد والقُدوة.

(٣٠٠/١)

ثم استدرك الحق سبحانه على ما ذكر قبل ، حتى لا ييأس النبي صلى الله عليه وسلم يأسا دائما من إيمان أهل الكتاب ، فأخبر بأن بعض الكتابيين يتلون التوراة تلاوة تدبر وإمعان ، ويفهمها حق الفهم ، ولا يتعصب تعصبا أعمى ، ولا يحرفون ولا يغيرون ما فيه من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يبيع آخرته بدينه ، ويسأل الله الجنة ، ويتعوذ من النار ، فهؤلاء يدركون أن ما جئت به الحق ، فيؤمنون

بالتوراة دون تحريض ، ومن يؤمن بها يؤمن بالقرآن والنبي ، مثل عبد الله بن سلام وأشباهه ، ومن يكفر بكتابه من المحرفين ، فلا يؤمن بك أصلا ، أولئك هم الهالكون ، وكثير ما هم ، وهم الذين خسروا سعادة الدنيا والآخرة ، وحق عليهم العذاب ، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، فما أصبرهم على النار ؟ ! فالمقصود بكلمة الكتاب التوراة ، وقال قتادة : المقصود به القرآن ، قال القرطبي : والآية تعم . وعلى كلا الحالين ، المقصود بقوله تعالى : يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ : يتبعونه حق اتباعه ، باتباع الأمر والنهي ، فيحللون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويعملون بما تضمنه .

ج ١ ، ص : ٢٩٧

فقه الحياة أو الأحكام :

إن دين الله وتكاليفه يسر لا عسر ، فهو يمتاز بشيئين أساسيين هما : التعقل والمنطق ، والقيام بالواجب قدر الطاقة والوسع ، دون إعنات ولا إرهاق . وليست مهمة الأنبياء لقسر الناس وإكراههم على الإيمان والاعتقاد الحق ، وإنما هي محصورة بالتبليغ والبيان ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، والتبليغ بعد التبليغ لا يكون مسئولا عنهم ولا مؤاخذا بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار . وإن المساومات الرخيصة على العقيدة الحققة لا تفيد شيئا ، ولا تحقق هدفا .

(٣٠١/١)

و إن من يتمسك بدينه الأصلي حتى ولو كان من اليهود والنصارى فلا بد من أن يؤديه دينه الذي لم يبدله ولم يحرفه إلى الاستمسك بالقرآن والإقرار بنبوته محمد صلى الله عليه وآله ، وسلم : لأن دين الله في الأصل ذو جوهر واحد ، وعباداته وشرائعه تلتقي عند غاية واحدة ، وهي توحيد الإله والاعتراف بربوبيته ، والأخلاق والفضائل الإنسانية الصحيحة لا يختلف فيها اثنان . وليس غرض اليهود والنصارى بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا ، بل لو أتاهاهم بكل ما يسألون عنه لم يرضوا عنه ، وإنما يرضيهم ترك ما هو عليه من الإسلام ، واتباعهم .

وفي كل ذلك عبرة للأجيال ، كما قال تعالى : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [يوسف ١٢ / ١١١] . وإن تلاوة كتاب الله ينبغي أن تكون بتدبر وفهم وإمعان ، لا لمجرد التلاوة ، كما قال تعالى : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا [محمد ٤٧ / ٢٤] وقال : لِيَذَّبَرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ [ص ٣٨ / ٢٩] .

والفائدة المنشودة من القرآن هي العمل به ، فهو كما ثبت

في الحديث الصحيح : « و القرآن حجة لك أو عليك »

ومن يتلو القرآن ، وهو معرض عن آياته والعمل به ، يكون كالمستهزئ بربه . أما الأمي فعليه سؤال

العلماء لشرح

ج ١ ، ص : ٢٩٨

معنى القرآن ، وإفهامه مراده : فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [النحل ١٦ / ٤٣] .
هذا .. وقد استدل بالآية (١٢٠) أبو حنيفة والشافعي وداود الظاهري وأحمد بن حنبل على أن الكفر
كله ملة واحدة ، لقوله تعالى : مِلَّتَهُمْ فَوَحَّدَ الْمِلَّةَ ، وبقوله تعالى : لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ [الكافرون
١٠٩ / ٦] ، و

بقوله عليه السلام : « لا يتوارث أهل ملتين شتى »
على أن المراد به الإسلام والكفر ، بدليل
قوله عليه السلام : « لا يرث المسلم الكافر » .

(٣٠٢/١)

و ذهب الإمام مالك ، وأحمد في الرواية الأخرى : إلى أن الكفر ملل ، فلا يرث اليهودي النصراني ،
ولا يرثان المجوسي ، أخذا بظاهر قوله عليه السلام :
« لا يتوارث أهل ملتين » . وأما قوله تعالى : مِلَّتَهُمْ فالمراد به الكثرة ، وإن كانت موحدة في اللفظ ،
بدليل إضافتها إلى ضمير الكثرة ، كما تقول : أخذت عن علماء أهل المدينة- مثلا- علمهم ،
وسمعت عليهم حديثهم ، يعني علومهم وأحاديثهم.
والخطاب في قوله تعالى : وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ إِمَّا لِلرَّسُولِ ، لتوجه الخطاب إليه ، وإما للرسول ،
والمراد به أمته . وإذا كان الرسول هو المخاطب فأتمته أولى ، لأن منزلتهم دون منزلته .
وسبب الآية : أنهم كانوا يسألون المسالمة والهدنة ، ويعدون النبي صلى الله عليه وسلم بالإسلام ،
فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم ، وأمره بجهادهم .
واستدل الإمام أحمد بقوله : مِنَ الْعِلْمِ عَلَى كُفْرٍ مِنْ أَعْتَقَدَ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ ، فإنه سئل عن قول :
القرآن مخلوق ، فقال : كافر ، قيل : بم كفرته ؟
فقال : بآيات من الله تعالى : وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ [الرعد ١٣ / ٣٧] والقرآن
من علم الله ، فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر .

ج ١ ، ص : ٢٩٩

و المقصود من تلاوة كتاب الله حق التلاوة : اتباعه حق الاتباع ، كما بينا ، قال أبو موسى الأشعري :
من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة ، وقال الحسن البصري : هم الذين يعملون بمحكمه ،

ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

تذكير بالنعمة وتخويف من الآخرة [سورة البقرة (٢) : الآيات ١٢٢ الى ١٢٣]

(٣٠٣/١)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)

المفردات اللغوية

وَ اتَّقُوا خافوا لَا تَجْزِي تَغْنِي عَدْلٌ فداء وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ يمنعون من عذاب الله.

التفسير والبيان :

يكرر المولى سبحانه للتأكيد تذكير اليهود بالنعمة التي أنعم الله بها عليهم ، لتجديد ثقتهم ونشاطهم ، وتشجيعهم وحفز هممهم ، وبعث نفوسهم على الإيمان وحثهم على اتباع النبي الأُمي الذي يجدون صفته في كتبهم ، ثم قرن الله تعالى بالعظة والتذكير التخويف من حساب يوم القيامة. ففي الآية الأولى يعظ الله اليهود الذين كانوا في عصر التنزيل ، ويذكرهم بالنعمة الكثيرة الدنيوية والدينية التي أنعم بها على آبائهم ، بإنقاذهم من أيدي عدوهم ، وإنزاله المن والسلوى عليهم ، وتمكينهم في البلاد بعد المذلة والقهر ، وإرساله الرسل منهم ، وتفضيلهم على عالمي زمانهم ، حين كانوا مطيعين للرسل ،

ج ١ ، ص : ٣٠٠

مصدقين لما جاءهم من عند ربهم ، حتى يتركوا ضلالهم ، ويشوبوا إلى رشدهم. ومن أجل النعمة التوراة المنزلة عليهم ، فمن شكر النعمة وآمن بجميع ما فيها ، آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم المبشر به فيها.

وفي الآية الثانية يحذرهم الله من عذاب يوم القيامة بسبب تحريف التوراة ، والتكذيب برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، ذلك اليوم الذي لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئا من الحقوق التي لزمته ، فلا تؤاخذ نفس بذنب أخرى ، ولا تدفع عنها شيئا ، ولا يؤخذ منها فدية تنجو بها من النار ، ولا يشفع بما يجب عليها شافع ، ولا ناصر ينصرهم ، فيمنع عنهم عذاب الله.

فقه الحياة أو الأحكام :

(٣٠٤/١)

تؤكد هذه الآية ما جاء في صدر السورة ، لحث اليهود وغيرهم على اتباع الرسول النبي الأمي المطابقة صفته لما في التوراة ، وتأمرهم ببواعث الإيمان : وهي تذكر النعم الدينية والدنيوية التي أنعم الله بها على آبائهم ، والإقلاع عن حسد بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال خاتم النبيين منهم ، وألا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه.

فإن أبوا فإن مصيرهم المحتوم هو الحساب الشديد يوم القيام ، المحقق الوقوع والنتيجة أو الأثر وهو العقاب ، دون أن ينفع الوسطاء أو الشفعاء ، والبدل أو الفداء ، والنصر أو المنع من العذاب ، ويكون كل امرئ مسئولا عن نفسه ، ولا يسأل أحد عن غيره ، كما قال تعالى : كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ [الطور ٥٢ / ٢١] وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [الأنعام ٦ / ١٦٤].

ج ١ ، ص : ٣٠١

اختبار إبراهيم عليه السلام وخصائص البيت الحرام وفضائل مكة [سورة البقرة (٢) : الآيات ١٢٤ الى ١٢٦]

وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢) (٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) الإعراب :

(٣٠٥/١)

وَ إِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ فِيهِ تَقْدِيمُ الْمَفْعُولِ عَلَى الْفَاعِلِ ، وَهُوَ وَاجِبٌ ، لَاتِصَالِ الْفَاعِلِ بِضَمِيرِ يَعُودُ عَلَى الْمَفْعُولِ.

مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بَدَلَ مَنْصُوبٍ مِنْ أَهْلِهِ بَدَلَ بَعْضٍ مِنْ كُلِّ ، وَضَمِيرُ مِنْهُمْ يَعُودُ إِلَى الْمَبْدَلِ مِنْهُ ، لِأَن بَدَلَ الْبَعْضِ مِنَ الْكُلِّ ، لَا يَدُ أَنْ يَعُودَ مِنْهُ ضَمِيرٌ إِلَى الْمَبْدَلِ مِنْهُ لَفْظًا أَوْ تَقْدِيرًا.

وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا : مَنْ إِمَّا مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مُقَدَّرِ تَقْدِيرِهِ : وَأَرْزَقَ مِنْ كَفَرٍ ، وَإِمَّا مَرْفُوعٌ مُبْتَدَأٌ ، وَهِيَ شَرْطٌ ، وَفَأُمَتِّعُهُ الْخَبَرُ وَالْجَوَابُ. وَقَلِيلًا مَنْصُوبٌ إِمَّا لِأَنَّهُ صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ ، وَتَقْدِيرُهُ : تَمَتُّعًا قَلِيلًا ، أَوْ لِأَنَّهُ صِفَةٌ لظَرْفٍ مَحْذُوفٍ ، وَتَقْدِيرُهُ : زَمَانًا قَلِيلًا. البلاغة :

ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ تَشْرِيفٌ لَهُ ، بِتَكْلِيْفِهِ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي الَّتِي يَظْهَرُ بِهَا اسْتِحْقَاقُهُ لِلْإِمَامَةِ.

ج ١ ، ص : ٣٠٢

وَأَمَّا فِيهِ اسْتِعْمَالُ الْمَصْدَرِ مَحَلَّ اسْمِ الْفَاعِلِ لِلْمِبَالِغَةِ ، وَتَقْدِيرُهُ : وَآمَنَّا .
وَطَهَّرًا بَيْتِي إِضَافَةً لِلْبَيْتِ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ لِلتَّشْرِيفِ وَالتَّعْظِيمِ ، لَا أَنْ هُنَاكَ مَكَانًا مَحَلَّ اللَّهِ تَعَالَى .
المفردات اللغوية :

ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ اخْتَبَرَهُ ، وَالْإِبْتِلَاءُ : الْإِخْتِبَارُ ، أَيُّ مَعْرِفَةِ حَالِ الْمُخْتَبَرِ بِتَكْلِيفِهِ بِأُمُورٍ يَشُقُّ عَلَيْهِ فَعْلُهَا أَوْ تَرْكُهَا ، لِجَازِيَةِ عَلَيْهِا . بِكَلِمَاتٍ أَيُّ أَوْامِرٍ وَنَوَاهٍ ، قِيلَ : هِيَ مَنَاسِكُ الْحَجِّ ، وَقِيلَ خِصَالُ الْفِطْرَةِ : وَهِيَ الْمَضْمُضَةُ وَالِاسْتِنْشَاقُ وَالسَّوَاكُ وَقِصُّ الشَّارِبِ وَفَرْقُ الشَّعْرِ وَقَلَمُ الْأَطْفَارِ وَتَنْفِ الْإِبْطِ وَحُلُقُ الْعَانَةِ وَالْخِتَانُ وَالِاسْتِنْجَاءُ . فَأَتَمَّهِنَّ أَذَاهُنَ تَامَات . إِمَامًا قِدْوَةً فِي الدِّينِ أَوْ رَسُولًا . ذُرِّيَّتِي أَوْلَادِي ، أَيُّ اجْعَلْ أُنْمَةً مِنْهُمْ . عَهْدِي بِالْإِمَامَةِ . الظَّالِمِينَ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَنَالُ غَيْرَ الظَّالِمِ .

(٣٠٦/١)

الْبَيْتُ بَيْتُ اللَّهِ الْحَرَامُ أَوْ الْكَعْبَةُ . مَثَابَةٌ مُرْجَعًا وَمَا بَا يَثْبُوبُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . وَأَمَّا مَأْمَنًا مِنَ الظُّلْمِ وَالْإِغَارَةِ الْوَاقِعَةِ فِي غَيْرِهِ ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ ، فَلَا يَتَعَرَّضُ لَهُ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ عِنْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ . مُصَلَّى مَكَانُ صَلَاةٍ ، بِأَنْ تَصَلُّوا خَلْفَهُ رُكْعَتِي الطَّوَافِ .
طَهَّرًا بَيْتِي مِنَ الْأَوْثَانِ . الْعَاكِفِينَ الْمُقِيمِينَ فِيهِ ، الْمَلَازِمِينَ لَهُ . وَالْثَّمَرَاتِ الْمَأْكُولَاتِ الَّتِي تَخْرُجُهَا الْأَرْضُ . وَالِاضْطِرَارُّ : الْإِلْجَاءُ وَالْحَمْلُ عَلَى الشَّيْءِ أَوْ الْإِكْرَاهُ .
سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ (١٢٥) :

وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى :

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ عُمَرَ قَالَ : وَافَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَوْ أَخَذْتَ مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، فَنَزَلْتَ : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى . وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ نَسَاكَ يَدْخُلُ عَلَيْهِنَ الْبِرُّ وَالْفَاجِرُ ، فَلَوْ أَمَرْتَهُنَّ أَنْ يَحْتَجِبْنَ ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ ، وَاجْتَمَعَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاؤُهُ فِي الْغِيَرَةِ ، فَقُلْتُ لَهُنَّ : عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ [التَّحْرِيمُ ٦٦ / ٥] فَنَزَلَتْ .

ج ١ ، ص : ٣٠٣

المناسبة العامة للآيات :

بعد أن ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى بَنِي إِسْرَائِيلَ نَعْمَهُ ، وَأَبَانَ كَيْفَ قَابَلُوا النِّعَمَ بِالْكَفْرِ وَالْجُحُودِ ، أَعْقَبَ ذَلِكَ بِقِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبِي الْأَنْبِيَاءِ ، الَّذِي يَزْعُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى انْتِمَاءَهُمْ إِلَيْهِ ، وَلَوْ صَدَقُوا لَا تَبِعُوا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِأَنَّهُ أَثَرُ دَعْوَةِ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ دَعَا لِأَهْلِ الْحَرَمِ ، فَالْكَلَامُ كُلُّهُ مُتَّصِلٌ مَعَ

أهل الكتاب.

التفسير والبيان :

(٣٠٧/١)

و اذكر يا محمد لقومك المشركين وغيرهم حين اختبر الله إبراهيم ببعض التكليف من أوامر ونواه ،
فاتى بها على وجه الكمال ، وأداها خير أداء ، كما قال سبحانه : وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى [النجم ٥٣/
٣٧]. وبما أن الله تعالى عالم بصدق المختبر ، فكان المراد أنه عامله معاملة المختبر ، ليظهر ذلك
للخلق.

والمراد من ذكر الوقت في قوله وَإِذِ ابْتَلَى ما وقع فيه من الحوادث. ولم يعين القرآن الكلمات ، فقليل
: هي مناسك الحج ، وقيل : إنها الكوكب والشمس والقمر التي رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله
تعالى ، وقيل : غير ذلك.

فجازاه الله تعالى أحسن الجزاء ، وقال له : إني جاعلك للناس رسولا وإماما تؤمهم في دينهم ، ويأتون
بك في هذه الخصال ، ويقتدي بك الصالحون ، فدعا الناس إلى ملة التوحيد ونبذ الشرك.
قال إبراهيم : وجاعل بعض ذريتي كذلك ؟ متمنيا لذريته الخير في سلوكهم ودينهم وأخلاقهم ، ولا غرو
فالإنسان يتمنى أن يكون ابنه أحسن منه.

فأجابه الله تعالى : أجبتك إلى طلبك ، وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ، ولكن لا ينال عهدي بالإمامة
أو النبوة الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ، إذ هم لا يصلحون أن يكونوا قدوة للناس ، لأن الإمام قدوة
للناس في حراسة الدين

ج ١ ، ص : ٣٠٤

و أهله وحمل الأتباع على الاستقامة ، ومنع الجور ، فإذا كان الإمام ظالما لنفسه بالانحراف ، فكيف
يقوم غيره ؟ والمراد بالعهد : النبوة أو الإمامة.
وفيه دليل على مقت الظلم ، والتنفير من الظالمين ، والبعد عنهم.

(٣٠٨/١)

ثم ذكر الله تعالى العرب في هذه الآيات بنعم كثيرة ، منها : جعل البيت الحرام (الكعبة) مرجعا للناس
يقصدونه ، ومآبا يثوبون إليه للعبادة وقت الحج وغيره ، وفي ذلك تنشيط لحركة التجارة والاقتصاد
وجلب الخير ، ومنها جعله مأمنا يطمئن إليه الأفراد من المخاوف ، فمن دخله كان آمنا ، ويتخطف

الناس من حوله ، كما قال سبحانه : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ، وَتُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ، وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ؟ [العنكبوت ٢٩ / ٦٧].

ثم أمر الله المسلمين أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى ، بأن يفضلوه على غيره في الصلاة ، لشرفه بقيام إبراهيم فيه ، فالأمر فيه للندب ، لا للوجوب ، والمسلمون مأمورون بذلك كما أمر به المؤمنون المعاصرون لإبراهيم الخليل عليه السلام.

وهذا البيت طاهر مطهر ، وصينا إبراهيم وإسماعيل بتطهيره من الأوثان وعبادة الأصنام التي كان عليها المشركون قبل أن يصير في يد إبراهيم عليه السلام ، وتطهيره من كل رجس حسي أو دنس معنوي كاللغو والرفث والتنازع فيه ، حين أداء المناسك والعبادات كالطواف والسعي بين الصفا والمروة ، والإقامة فيه ، والركوع والسجود ، و

قد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه لما فتح مكة ، دخل المسجد ، فوجدهم قد نصبوا على البيت الأوثان ، فأمر بكسرها ، وجعل يطعن فيها بعود في يده ، ويقول : جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا [الإسراء ١٧ / ٨١].

وفيه أن إبراهيم ومن بعده كانوا مأمورين بهذه العبادات ، وإن لم تعرف

ج ١ ، ص : ٣٠٥

الكيفية وطريقة الأداء. وسمي بيتا ، لأن الله جعله معبدا لأداء العبادة الصحيحة ، وأمر المصلين أن يتجهوا إليه في عبادتهم.

(٣٠٩/١)

و الحكمة في اتخاذ الكعبة مقرا لاتجاه المصلين : هو توحيد المشاعر والعواطف ، وحصص الاتجاه إلى الذات الإلهية المقدسة ، رمزا إلى حضوره تعالى ، والحضور الحقيقي محال عليه ، فكان المراد أن رحمته الإلهية تحضره. ومن ثم كان التوجه إلى الكعبة كالتوجه إلى تلك الذات العلية.

ومن نعمه تعالى على العرب التي أمر الله نبيه أن يذكرهم بها : دعاء إبراهيم عليه السلام : أن يجعل هذا البلد في أمن وطمأنينة ، فلا يتسلط عليه الجبارون ، ولا يعكر صفوه المجرمون الآثمون ، ويحميه سبحانه وتعالى من الخسف والزلازل والغرق والهدم ونحو ذلك من مظاهر سخط الله على بلاد أخرى. ودعاؤه أن يرزق أهله من أنواع الثمار وأطيبها ، ومن خيرات الأرض وبركاتها وأمنها ، إما بالزرع بالقرب منه ، وإما بأن تجبى إليه من الأقطار الشاسعة ، وقد حصل كل ذلك ، كما هو مشاهد ، وكما قال تعالى : أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [القصص ٢٨ / ٥٧].

وفي إجابة دعاء إبراهيم تكريم للمؤمنين ، وإن كانت رحمة الله شاملة للمؤمنين والكافرين ، فيرزق الله الجميع ، كما قال تعالى : كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا [الإسراء ١٧ / ٢٠] لكن تمتيع الكافر بنعم الدنيا قصير محدود ، ثم إلى النار ، فمن كفر يرزقه الله أيضا ، ويمتعه بهذا الرزق أمدا قليلا ، وهو مدة وجوده في الدنيا ، ثم يساق إلى عذاب جهنم سواقا اضطراريا ، وبئس المصير مصيرهم الذي ينتظرهم.

وفيه ترغيب لعرب قريش بالإيمان ، وزجر عن الكفر ، وترهيب لهم

ج ١ ، ص : ٣٠٦

و لأهل الكتاب من الإعراض عن دعوة الإسلام ، فالله تعالى خص طلب الرزق للمؤمنين ، إشارة إلى جدارتهم واستحقاقهم له .
فقه الحياة أو الأحكام :

(٣١٠/١)

النبوة أو الإمامة في الدين الصالحة الدائمة الأثر تتطلب الاستقامة على أوامر الله واجتناب نواهيه ، والإمامة المؤقتة القائمة على الانحراف والظلم تحفر لنفسها قبرها بيدها ، وتدمر كيائها ، وتقوض عرش وجودها . فالظلم مانع من الإمامة ومن اتخاذ الظالم قدوة للناس . ولا تكون الإمامة الصالحة أو النبوة إلا للأفضل الذين يعملون الصالحات ، ويرشدون إلى الخير ، ويزجرون أنفسهم وغيرهم عن الشر والآثام ، ولا حظ للظالمين في شيء من هذا ، لأن الظلم مؤذن بخراب المدينيات ، وتدمير الحضارة والعمران . واستدل جماعة بهذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسان والفضل ، مع القوة على القيام بذلك . فأما أهل الفسوق والجور والظلم ، فليسوا له بأهل ، لقوله تعالى : لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ .

والذي عليه أكثر العلماء : أن الصبر على طاعة الإمام الجائر أولى من الخروج عليه ، لأن في منازعته والخروج عليه استبدال الأمن بالخوف ، وإراقة الدماء ، وانطلاق أيدي السفهاء ، وشن الغارات على المسلمين ، والفساد في الأرض .

وإن تعظيم البيت الحرام بالطواف حوله والسعي فيه أمر قديم من عهد أبينا إبراهيم عليه السلام ، وتخصيصه بالاتجاه إليه رمز لوجوده تعالى هناك ، مع أن ذاته العلية لا تتحدد بمكان ، وحضوره تعالى معناه حضور رحمته ، وإفاضة فضله ، وإسباغ نعمه ، وإجابة الدعاء فيه .
والجدير بالرزق الإلهي : من آمن بالله واليوم الآخر ، وأطاع ربه ، واستقام على أوامر الله ، واجتنب ما نهى الله عنه .

ج ١ ، ص : ٣٠٧

و الإنسان مخير في اختيار الحق والطيب والتزام جادة الاستقامة ، وترك الباطل والخبيث ، بما أعطاه الله من العقل ، وبما أرشده به من الوحي ، فمن حاد عن ذلك ، فقد ظلم نفسه ، وعرضها للعذاب والشقاء ، ويكون ذلك سببا لحملة على العذاب ، وإلجائه إليه ، وصب السخط عليه والانتقام منه.

(٣١١/١)

و أما الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم : فهي الوظائف التي كلفه بها ، ولما كان تكليفها بالكلام سميت به ، كما يسمى عيسى بالكلمة ، لأنه صدر عن الكلمة ، وهي كن ، وتسمية الشيء بمقدمته أحد قسمي المجاز.

واختلف العلماء في بيان المراد من الكلمات على أقوال ، منها ما يأتي :

أحدها- أنها شرائع الإسلام ، وقد أكملها إبراهيم عليه السلام ، فما قام أحد بوظائف الدين مثله ، ثم قام بها بعده كثير من الأنبياء عليهم السلام ، وخصوصا محمدا صلى الله عليه وسلم. قال ابن عباس : ما ابتلى الله أحدا بهن ، فقام بها كلها إلا إبراهيم عليه السلام ، ابتلى بالإسلام ، فآتمه ، فكتب الله له البراءة ، فقال : وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى [النجم ٥٣ / ٣٧].

الثاني- أنها الفطرة التي أقامها الله تعالى فيه.

روت عائشة في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظفار ، وغسل البراجم (غسل عقد ظهور الأصابع لاجتماع الوسخ فيها) ، وحلق العانة ، ونتف الإبط ، وانتقاص الماء أي الاعتراف منه ، ونسيت العاشرة ، إلا أن تكون المضمضة » .

الثالث- أنها الكوكب والشمس والقمر ، التي رآها واستدل بأفولها على وجود الله تعالى ووحدانيته.

وهذا القول هو الذي فسر به ابن كثير (الكلمات) ثم أورد قول ابن جرير الطبري وحاصله : أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر ، وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه أنه المراد على

ج ١ ، ص : ٣٠٨

التعيين إلا بحديث أو إجماع. ثم قال : ولم يصح في ذلك خبر ، بنقل الواحد ، ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له.

(٣١٢/١)

الرابع- قال ابن عباس : « الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن : فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم ، ومحاكاة نمرود في الله ، وصبره على قذفهم إياه في النار ليحرقوه ، والهجرة من وطنه حين أمر بالخروج عنهم ، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمر بذبحه » ويظهر أن هذا أصح الأقوال.

واختلف العلماء أيضا في تفسير الأمن على أربعة أقوال :

الأول- أنه أمن من عذاب الله تعالى ، والمعنى أن من دخله معظما له ، وقصده محتسبا الأجر ، سلم من العذاب ، ويعضده

قول النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح : « من حج فلم يرفث ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

الثاني- معناه : من دخله كان آمنا من التشفي والانتقام ، كما كانت العرب تفعله فيمن أناب إليه ، من تركها لحق يكون لها عليه.

الثالث- أنه أمن من حد يقام عليه ، فلا يقتل به الكافر ، ولا يقتص فيه من القاتل ، ولا يقام الحد على المحصن والسارق ، قاله أبو حنيفة وغيره.

الرابع- أنه أمن من القتال ،

لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، ولم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد بعدي ، وإنما أحلت لي ساعة من نهار » . قال ابن العربي : والصحيح فيه القول الثاني ، وهذا إخبار من الله تعالى عن منته على عباده ، حيث قرر في قلوب العرب تعظيم هذا البيت ، وتأمين من لجأ إليه ، إجابة لدعوة إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، حين أنزل به أهله وولده ، فتوقع عليهم الاستطالة ، أي الاعتداء ، فدعا أن يكون آمنا لهم ، فاستجيب دعاؤه « ١ » .

(١) أحكام القرآن لابن العربي : ١ / ٣٨ - ٣٩

ج ١ ، ص : ٣٠٩

(٣١٣/١)

و الصحيح من اتخاذ مقام إبراهيم مصلى معناه : موضعا للصلاة المعهودة ، كما بان في سبب نزول الآية السابق ذكره عن عمر رضي الله عنه ، واتضح منه أربعة أمور : وهي أن ذلك الموضع هو المقام المراد في الآية ، وأن المراد به الصلاة المتضمنة للركوع والسجود ، لا مطلق الدعاء ، وأن الصلاة عقب الطواف ، وأن ركعتي الطواف مطلوبتان ، وهما عند المالكية : واجبتان ، فمن تركهما ، فعليه دم.

وقال الجصاص الحنفي عن قوله تعالى : **وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى** هو أمر ظاهره الإيجاب ، والمراد بالآية فعل الصلاة بعد الطواف ، و قد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلاهما عند البيت .

فدلّت هذه الآية على وجوب صلاة الطواف ، ودل فعل النبي صلى الله عليه وسلم لها تارة عند المقام ، وتارة عند غيره على أن فعلها عنده ليس بواجب .

وفيه من قوله تعالى : **لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** عدم جواز تولية الظالم ، أو الفاسق ، ولا فرق بين القاضي وبين الخليفة في أن شرط كل واحد منهما العدالة ، وأن الفاسق لا يكون خليفة ولا يكون حاكماً ، كما لا تقبل شهادته ولا خبره لو روى خبراً عن النبي عليه السلام .

قال ابن خويز منداد : وكل من كان ظالماً لم يكن نبياً ولا خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ، ولا إمام صلاة ، ولا يقبل عنه ما يرويه عن صاحب الشريعة ، ولا تقبل شهادته في الأحكام ، غير أنه لا يعزل بفسقه ، حتى يعزله أهل الحل والعقد .

وقال أيضاً : وأما أخذ الأرزاق (المخصصات المالية) من الأئمة الظلمة فله ثلاث أحوال : إن كان جميع ما في أيديهم مأخوذاً على موجب الشريعة فجاز أخذه ، وقد أخذت الصحابة والتابعون من يد الحجاج وغيره . وإن كان مختلطاً

ج ١ ، ص : ٣١٠

حلالاً وظلماً ، فالورع تركه ، ويجوز للمحتاج . وإن كان ما في أيديهم ظلماً صراحاً فلا يجوز أن يؤخذ من أيديهم » ١ « .

(٣١٤/١)

و قال الجصاص : دل قوله تعالى : **لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** على أن الإجابة وقعت له في أن ذرية إبراهيم أئمة .

واستدل أبو حنيفة بقوله تعالى : **وَأَمْنًا عَلَىٰ تَرْكِ إِقَامَةِ الْحَدِّ فِي الْحَرَمِ عَلَى الزَّانِي الْمُحْصَنِ وَالسَّارِقِ إِذَا لَجَأَ إِلَيْهِ ، وَعَضَدُوا ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا [آل عمران ٩٧]** . والصحيح - كما قال القرطبي - إقامة الحدود في الحرم ، وأن ترك إقامتها من المنسوخ لأن الاتفاق حاصل أنه لا يقتل في البيت ، ويقتل خارج البيت .

وآية : **أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ** استدل بها أبو حنيفة والشافعي والثوري على جواز صلاة الفرض والنفل داخل البيت الحرام ، قال الشافعي رحمه الله : إن صلى في جوفها مستقبلاً حائطاً من حيطانها ، فصلاته جائزة ، وإن صلى نحو الباب ، والباب مفتوح ، فصلاته باطلة ، وكذلك

من صلى على ظهرها ، لأنه لم يستقبل منها شيئا .
وقال مالك : لا يصلي في البيت الفرض ولا السنن ، ويصلي فيه التطوع (غير الرواتب) ، غير أنه إن
صلى فيه الفرض ، أعاد في الوقت ، ودليله : ما
رواه مسلم عن ابن عباس قال : أخبرني أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل البيت ،
دعا في نواحيه كلها ، ولم يصل فيه حتى خرج منه ، فلما خرج ركع في قبل الكعبة ركعتين .
والحاصل : لا خلاف في صحة التطوع في الكعبة ، وأما الفرض فلا يصح عند المالكية ، لأن الله
تعالى عين الجهة بقوله تعالى : **فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ [البقرة ٢ / ١٥٠]** .

(١) تفسير القرطبي : ١٠٩ / ٢ وما بعدها .

ج ١ ، ص : ٣١١

(٣١٥/١)

و أما الصلاة على ظهر الكعبة ، فأجازها الشافعي ، وقال مالك : من صلى على ظهر الكعبة ، أعاد في
الوقت . وقال أبو حنيفة : من صلى على ظهر الكعبة ، أعاد في الوقت . وقال أحمد : من صلى على
ظهر الكعبة ، فلا شيء عليه .

وهل الصلاة عند البيت أفضل أو الطواف به ؟ اختلفوا ، فقال مالك :

الطواف لأهل الأمصار أفضل ، والصلاة لأهل مكة أفضل . والجمهور على أن الصلاة أفضل .

بناء البيت الحرام ودعاء إبراهيم وإسماعيل [سورة البقرة (٢) : الآيات ١٢٧ الى ١٢٩]

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا
وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
(١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

الإعراب :

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا أي يقولان : ربنا تقبل منا ، فحذف « يقولان » وحذف القول كثير في كتاب الله وكلام
العرب .

البلاغة :

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ عبر بالمضارع عن الماضي ، لاستحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعصيان ،
فكان السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع ، وإلى البناء وهو إبراهيم وإسماعيل

ج ١ ، ص : ٣١٢

عليهما السلام.

التَّوَابُ الرَّحِيمُ من صيغ المبالغة ، على وزن فَعَال وفَعِيل.

المفردات اللغوية :

الْقَوَاعِدُ

واحدُها قاعدة ، وهي ما يقوم عليه البناء من الأساس أو من طبقات البناء ، فالقواعد : هي الأسس أو الجدران. ورفعها : إعلاء البناء عليها. وتَقَبَّلَ الله العمل : قبله ورضي به.

(٣١٦/١)

مُسْلِمِينَ مُنَادِينَ لِك أُمَّةٍ جَمَاعَةٍ مِنْ دُرِّيَّتِنَا أَي اجعل من أولادنا ، ومن للتبعيض ، وأتى به لتقدم قوله : لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ، مَنَاسِكُنَا شرائع عبادتنا أو حجتنا ، واحدُها منسك - بفتح السين ، من النسك : وهو غاية الخضوع والعبادة ، وشاع استعماله في عبادة الحج خاصة ، كما شاع استعمال المناسك في معالم الحج وأعماله لما فيها من الكلفة والبعد عن العادة. وَتُبَّ عَلَيْنَا سَأْلَاهُ التَّوْبَةَ ، مع عصمتها تواضعا وتعلما لذريتهما. وتاب العبد إلى ربه : إذا رجع إليه ، لأن اقتراف الذنب إعراض عن الله وعن موجبات رضوانه ، وتاب الله على العبد : رحمه وعطف عليه. وَابْعَثْ فِيهِمْ أَي أهل البيت رَسُولًا مِنْهُمْ من أنفسهم ، وقد أجاب الله دعاءه بمحمد صَلَّى الله عليه وسلم الْكِتَابَ الْقُرْآنَ وَالْحِكْمَةَ أسرار الأحكام الدينية ومعرفة مقاصد الشريعة وَيُزَكِّيهِمْ يطهر نفوسهم من دنس الشرك وأنواع المعاصي الْعَزِيزُ الْغَالِبُ الْحَكِيمُ أَي الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

المناسبة :

بعد أن ذَكَرَ الله تعالى العرب بما أنعم عليهم من فضائل البيت الحرام ، أردف ذلك بتذكيرهم بأن الذي بنى البيت هو أبوهم إبراهيم مع ابنه إسماعيل ، ليجذبهم بذلك إلى الاقتداء بسلفهم الصالح الذي ينتمون إليه ، وقد كانت قريش تنتسب إلى إبراهيم وإسماعيل ، وتدعي أنها على ملة إبراهيم ، وسائر العرب في ذلك تبع لقريش.

ج ١ ، ص : ٣١٣

التفسير والبيان :

(٣١٧/١)

و اذكر يا محمد لقومك وقت أن بنى إبراهيم وابنه إسماعيل قواعد البيت وأساسه ، والفضيلة في كون البناءين نبين ، وفي تخصيصه للعبادة وسط بلاد وثنية ، لا في أفضلية أحجاره ولا موقعه ولا بأنه نزل من السماء. وجعل التوجه إليه توجهها إلى الله الذي لا يحده مكان ولا تحصره جهة ، وعدّ استلام الحجر الأسود تعبدًا كاستقبال الكعبة في الصلاة ، فلا مزية له في ذاته ، بل هو كسائر الأحجار بدليل قول عمر بن الخطاب عند استلامه : « أما والله ، إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولو لا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبّلتك ، ثم دنا فقبّله » « ١ » .

وفي أثناء إقامة البناء يدعو إبراهيم وإسماعيل قائلين : ربنا إنك أنت السميع لدعائنا ، العليم بنياتنا في جميع أعمالنا ، ربنا واجعلنا منقادين لك ، ومخلصين في الاعتقاد فلا نتوجه إلا إليك ، ولا نستعين بأحد إلا بك ، وفي العمل بالأمر نقصد بعملنا إلا مرضاتك. ربنا واجعل من ذريتنا جماعة مخلصين لك ، منقادين لأوامرك ، ليستمر الإسلام دائما في الأجيال. ربنا بصّرنا وعرفنا أمور عبادتنا ومواضع نسكنها ، أي أعمال الحج ، كمواقيت الإحرام ، ومواضع الوقوف بعرفة ، ومواضع الطواف والسعي ، واقل توبتنا ، إنك أنت التواب الرحيم ، أي كثير التوبة على عبادك بقبولها منهم ، الرحيم بالتائبين لإنجائهم من العذاب.

وهذا منهما إرشاد لذريتهم ، وطلب للتثبيت والدوام على الطاعة ، لا أنهما كان لهما ذنب ، لأن الأنبياء معصومون ، وليبينوا للناس بعد معرفة المناسك وبناء البيت أن ذلك الموقف وتلك المواضع ، مكان التطهر من الذنوب وطلب التوبة.

(١) رواه البخاري ومسلم.

ج ١ ، ص : ٣١٤

(٣١٨/١)

ربنا وأرسل في الأمة المسلمة رسولا منهم ، ليكون أشفق عليهم ، ويكونوا أعزّ الناس به ، وأقرب لإجابة دعوته ، وقد عرفوه معرفة تامة ، ولمسوا منه الصدق والأمانة والعفة والاستقامة ، ونحو ذلك ، يقرأ عليهم آيات دينك المشتملة على إثبات وحدانية الله ، وعلى الإقناع بالبعث والجزاء ، ويعلمهم القرآن وأسرار الشريعة ومقاصدها ، وما تكمل به نفوسهم من العلوم والمعارف ، ويظهرهم من دنس الشرك والوثنية وأنواع المعاصي ، ويعملهم صالح الأخلاق ، إنك أنت القوي الذي لا يغلب ، الحكيم في كل صنع ، فلا تفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، قال مالك : والحكمة : المعرفة بالدين ، والفقه بالتأويل ، والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام :

في هذه الأدعية تعليم لنا أن نطلب في ختام أعمالنا قبولها ، وأن ندعو بصلاح أنفسنا وذريتنا ليستمر الإسلام في كل زمان ، ويظهر الانقياد والخضوع لخالق السماء والأرض ، والله تعالى جعل المناسك ومواقف الحج أمكنة للتخلص من الذنوب وطلب الرحمة من الله ، والله كريم رحيم. وقد أجاب الله دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل ، فأرسل خاتم النبيين محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا من العرب ، قال صلى الله عليه وسلم : « أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخى عيسى ، ورؤيا أمي » ، وأكرم الله أمة العرب ، فجعلها بالإسلام خير الأمم ، وكان لها السيادة والمجد والسلطة في المشارق والمغرب ، حيناً من الزمان ، وكان منها ومن المسلمين غير العرب رجال هم مفخرة التاريخ في العدل والسياسة والقضاء والعلم والفكر والأدب والحضارة.

(٣١٩/١)

أما بناء الكعبة : فكان بالطين والحجارة ، وظل كذلك إلى أن هدمتها قريش وأعادوا بناءها ، ورفعوها عن الأرض عشرين ذراعاً ، وتم وضع الحجر من قبل النبي صلى الله عليه وسلم وهو شاب قبل البعثة ، لأنهم حكموا أول من يطلع عليهم ، فطلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحكموه ، ووضع الحجر في ثوب ، ثم أمر سيد كل

ج ١ ، ص : ٣١٥

قبيلة ، فأعطاه ناحية من الثوب ، ثم ارتقى هو ، فرفعوا إليه الحجر الأسود ، فكان هو يضعه صلى الله عليه وسلم. ولم يدخلوا حجر الكعبة في البناء أي حجر إسماعيل من جهة الشمال ، لعجز النفقة لديهم ، ثم رأى النبي تجديد البناء ، لكنه كما

روت عائشة رضي الله عنها قال : « لو لا حادثة عهد قومك بالكفر ، لنقضت الكعبة ، ولجعلتها على أساس إبراهيم ، فإن قريشا حين بنت الكعبة استقصرت ، ولجعلت لها خلفاً »

، يعني بابا. و

في البخاري : « لجعلت لها خلفين »

يعني بابين.

ثم لما غزا أهل الشام في عهد الأمويين عبد الله بن الزبير ، ووهت الكعبة من حريقهم ، أعاد بناءها ابن الزبير ، وبنائها على ما أخبرته عائشة ، وزاد فيه خمسة أذرع من الحجر ، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً ، فزاد في طوله عشرة أذرع ، وجعل لها بابين ، أحدهما يدخل منه ، والآخر يخرج منه ، كما روى مسلم في صحيحة.

ثم لما قتل ابن الزبير أعاد الحجاج بناء الكعبة ، ورد ما زاد فيه من الحجر إلى بنائه ، وسدّ الباب الذي فتحه ، وأعادته إلى بنائه ، بأمر الخليفة عبد الملك.

وروي أن الرشيد ذكر لمالك بن أنس أنه يريد هدم ما بنى الحجاج من الكعبة ، وأن يردّه على بناء ابن الزبير ، لما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وامثله ابن الزبير ، فقال له مالك : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين ، ألا تجعل بهذا البيت ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد منهم ، إلا نقض البيت وبناءه ، فتذهب هيئته من صدور الناس.

(٣٢٠/١)

و أما كسوة الكعبة ، فقال العلماء : لا ينبغي أن يؤخذ من كسوة الكعبة شيء ، فإنه مهدي إليها ، ولا ينقص منها شيء .

ج ١ ، ص : ٣١٦

سفاه من يرغب عن ملة إبراهيم [سورة البقرة (٢) : الآيات ١٣٠ الى ١٣٢]
وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
(١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)

الإعراب

إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ نصب نَفْسَهُ إما بنزع الخافض الجار ، وتقديره : سفه في نفسه ، أو لأن سَفِهَ بمعنى جهل ، وهو فعل متعد بنفسه ، أو منصوب على التمييز ، وهو قول الكوفيين . وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ : في متعلقة بعامل مقدر ، وتقديره : وإنه صالح في الآخرة لمن الصالحين ، ولا يجوز أن تتعلق بالصالحين لأنه يؤدي إلى تقديم معمول الصلة على الموصول .

وَوَصَّى بِهَا الضمير يعود إلى الملة المذكورة في قوله تعالى : وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ .

البلاغة :

وَمَنْ يَرْغَبْ استفهام إنكاري بمعنى النفي ، أي لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا السفیه ، والجملة واردة لتوبيخ الكافرين . وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ التأكيد ب (إن) و (الكلام) لتعلقه بأمر غيبي في الآخرة ، بخلاف حال الدنيا ، فإنه مشاهد .

(٣٢١/١)

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمَ التَّفَاتِ عَنْ الْحَضُورِ إِذَ السِّيَاقِ : (قُلْنَا) إِلَى الْغِيْبَةِ. وَرَبُّهُ لِإِظْهَارِ مُزِيْدِ اللَّطْفِ وَالْإِعْتِنَاءِ بِتَرْبِيَّتِهِ. وَجَوَابِ إِبْرَاهِيْمَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِيْنَ دَلِيْلَ عَلَى قُوَّةِ إِسْلَامِهِ ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى وَجُوبِ الْخُضُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَفِيهِ التَّفَاتِ مِنَ الْخُطَابِ إِلَى الْغَائِبِ.

ج ١ ، ص : ٣١٧

المفردات اللغوية :

وَمَنْ يَرْغَبُ رَغْبًا فِي الشَّيْءِ : أَحْبَبَهُ ، وَرَغِبَ عَنْهُ : كَرِهَهُ ، سَفِهَ نَفْسَهُ جَهْلًا أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ يَجِبُ عَلَيْهَا عِبَادَتُهُ ، أَوْ اسْتَخَفَّ بِهَا وَامْتَهَنَهَا أَيِ أَذْلَهَا وَاحْتَقَرَهَا. اصْطَفَيْنَاهُ اخْتَرْنَاهُ بِالرَّسَالَةِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. أَسْلَمَ أَيِ انْقَادَ لِلَّهِ وَأَخْلَصَ لَهُ الْعِبَادَةَ وَالْدِينَ.

وَوَصَّى بِهَا التَّوْصِيَةَ : إِرْشَادَ غَيْرِكَ إِلَى مَا فِيهِ خَيْرٌ وَصَلَحٌ لَهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ فِي الدِّينِ أَوْ الدُّنْيَا ، فَلَا تَمُوتُنَّ نَهْيٌ عَنْ تَرْكِ الْإِسْلَامِ وَأَمْرٌ بِالثَّبَاتِ عَلَيْهِ إِلَى الْمَوْتِ.

سبب نزول الآية (١٣٠) :

قال ابن عيينة : روي أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه : سلمة ومهاجرا ، إلى الإسلام ، فقال لهما : قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة : إني باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد ، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد ، ومن لم يؤمن به فهو ملعون ، فأسلم سلمة ، وأبى مهاجر ، فنزلت فيه الآية.

التفسير والبيان :

بعد أن ذكر الله سبحانه أنه ابتلى إبراهيم بكلمات فأتمهن ، وأنه عهد إليه ببناء البيت وتطهيره للعبادة ، أردف ذلك ببيان أن ملة إبراهيم وهي التوحيد وإسلام القلب لله ، لا يصح لأحد التحول عنها ، وبها وصى يعقوب بنبيه ، ووصى بها من قبله إبراهيم.

فلا يرغب أحد عن ملة إبراهيم ودينه إلا شخص أذل نفسه واستخف بها ، لأن من يترك الخير والحق والهدى ، فقد أمتن نفسه وأذلها.

(٣٢٢/١)

و لقد اصطفى الله إبراهيم في الدنيا ، فجعله أبا الأنبياء ، وجعله في الآخرة من المشهود لهم بالصلاح والاستقامة وإرشاد الناس للعمل بملته. وهذه بشارة لإبراهيم بصلاح حاله في الآخرة ووعد له بذلك.

ج ١ ، ص : ٣١٨

اصطفاه إذ دعاه إلى الإسلام بما أراه من الأدلة على وحدانية الله ، فما كان منه إلا أن بادر بالانقياد والامتثال ، وقال : أخلصت ديني لله الذي أوجد الخلق ، كما في قوله تعالى : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام ٦ / ٧٩].

ولقد أراد إبراهيم الخير لذريته ، فأوصاهم بالملة الحنيفة ، وكذلك فعل يعقوب عليهما السلام ، وقال لهم : إن الله اختار لكم هذا الدين - دين الإسلام ، الذي لا يتقبل الله سواه ، فاثبتوا على الإسلام لله ، ولا تفارقوه ، حتى لا تفجأكم المنية ، وأنتم على غير الدين الحق الذي اصطفاه لكم ربكم. وفي هذا فتح باب الأمل أمام المنحرف ليعود إلى الله ويعتصم بالدين ، قبل الموت.

فانظروا أيها اليهود : هل أنتم تتبعون آباءكم إبراهيم ويعقوب أو لا ؟

فقه الحياة أو الأحكام :

(٣٢٣/١)

تندد هذه الآيات بكل من أعرض عن ملة إبراهيم - ملة التوحيد والانقياد والإخلاص لله ، وتوبخ الكافرين الذين كرهوا هذه الملة. وملة الإسلام قديمة دعا لها الأنبياء جميعا ، والإسلام في كلام العرب : الخضوع والانقياد للمسلم إليه ، وليس كل إسلام إيماننا ، لكن كل إيمان إسلام ، لأن من آمن بالله فقد استسلم وانقاد لله ، وليس كل من أسلم آمن بالله ، لأنه قد يتكلم فزعا من السيف ، ولا يكون ذلك إيماننا ، بدليل قوله تعالى : قَالَتِ الْأَعْرَابُ : آمَنَّا ، قُلْ : لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنَا [الحجرات ١٤ / ٤٩] فأخبر الله تعالى أنه ليس كل من أسلم مؤمنا ، فدل على أنه ليس كل مسلم مؤمنا ، فإن الإيمان باطن ، والإسلام ظاهر. وقد يطلق الإيمان بمعنى الإسلام ، والإسلام ويراد به الإيمان ، للزوم أحدهما الآخر وصدوره عنه.

وقال القدريّة والخوارج : إن الإسلام هو الإيمان ، فكل مؤمن مسلم ، وكل

ج ١ ، ص : ٣١٩

مسلم مؤمن ، لقوله تعالى : إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ [آل عمران ٣ / ١٩] فدل على أن الإسلام هو الدين ، وأن من ليس بمسلم فليس بمؤمن.

ووصى بالإسلام إبراهيم ويعقوب ، لأنه الدين الحق ، وبنو إبراهيم :

إسماعيل ، وأمه هاجر القبطية ، وهو أكبر ولده ، نقله إلى مكة وهو رضيع له سنتان ، وولد قبل أخيه إسحاق بأربع عشرة سنة ، ومات وله مائة وسبع وثلاثون سنة ، وكان سنه يوم مات أبوه إبراهيم عليهما السلام تسعا وثمانين سنة ، وهو الذبيح في قول مشهور. وإسحاق : أمه سارة ، وهو الذبيح في قول آخر ، وهو الأصح في رأي القرطبي « ١ » . ومن ولده : الروم واليونان والأرمن ونحوهم وبنو إسرائيل ، وعاش إسحاق مائة وثمانين سنة ، ومات بالأرض المقدسة ، ودفن عند أبيه إبراهيم الخليل عليهما السلام. ودخل يعقوب فيمن أوصى إبراهيم.

(٣٢٤/١)

و لم ينقل أن يعقوب أدرك جده إبراهيم ، وإنما ولد بعد موت إبراهيم ، وأوصى يعقوب بنيه كما فعل إبراهيم ، عاش يعقوب مائة وسبعا وأربعين سنة ، ومات بمصر ، وأوصى أن يحمل إلى الأرض المقدسة ، ويدفن عند أبيه إسحاق ، فحمله يوسف ودفنه عنده.

وبما أن الإسلام قديم وهو دعوة كل الأنبياء ، أوصى إبراهيم ويعقوب بالتزامه ، فقالا : الزموا الإسلام وداوموا عليه ولا تفارقوه حتى تموتوا ، فأتى بلفظ موجز يتضمن المقصود ، ويتضمن وعظا وتذكيرا بالموت ، وذلك أن المرء يتحقق أنه يموت ، ولا يدري متى ، فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه ، فقد توجه الخطاب من وقت الأمر دائبا لازما .
فظاهر قوله تعالى : فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ : وهو النهي عن

(١) تفسير القرطبي : ٢ / ١٣٥ والأصح كما سيأتي في سورة (الصفات) أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

ج ١ ، ص : ٣٢٠

الموت إلا على حالة الإسلام ، غير مراد ، وإنما المقصود الأمر بالثبات على الإسلام إلى حين الموت ، فهو نهى في الحقيقة عن كونهم على خلاف الإسلام « ١ » .
إبطال دعوى اليهود أنهم على دين إبراهيم ويعقوب [سورة البقرة (٢) : الآيات ١٣٣ الى ١٣٧]

(٣٢٥/١)

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣) (٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣) (٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي
شِقَاقٍ فَسَبِّحْهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)
الإعراب :

ما تَعْبُدُونَ ما اسم استفهام في موضع نصب ب تَعْبُدُونَ وتقديره : أي شيء تعبدون من بعدي أي بعد موتي ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه . إبراهيم وإسماعيل وإسحاق في موضع جر على

البدل من آبَائِكَ ولا ينصرف للعجمة والتعريف.
إِلَهاً وَاحِداً إما منصوب بدل من قوله إِلَهَكَ أو حال منه.

(١) تفسير البحر المحيط : ٣٩٩ / ١.

ج ١ ، ص : ٣٢١

تِلْكَ أُمَّةٌ مَبْتَدَأٌ وَخَيْرٌ. قَدْ خَلَتْ صِفَةٌ « لَأُمَّة » وَكَذَلِكَ لَهَا مَا كَسَبَتْ.

(٣٢٦/١)

بَلْ مَلَّةٌ مَنْصُوبٌ بِفَعْلِ مَقْدَرٍ ، وَتَقْدِيرُهُ : بَلْ نَتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً إِمَّا حَالٌ مَنْصُوبٌ ، مِنْ إِبْرَاهِيمَ ، لِأَنَّ الْمَعْنَى : بَلْ نَتَّبِعْ إِبْرَاهِيمَ أَوْ مَنْصُوبٌ بِفَعْلِ مَقْدَرٍ تَقْدِيرُهُ : أَعْنِي ، إِذْ لَا يَجُوزُ وَقُوعُ الْحَالِ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ.

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ الْبَاءِ زَائِدَةٌ ، مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى : جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا [يُونُسَ ١٠ / ٢٧] أَيِ مِثْلِهَا كَالْآيَةِ الْآخَرَى : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِثْلُهَا [الشورى ٤٢ / ٤٠].

وَمَا آمَنْتُمْ : « مَا » مَعَ الْفِعْلِ بَعْدَهَا فِي تَأْوِيلِ الْمَصْدَرِ ، وَتَقْدِيرُهُ : بِمِثْلِ إِيْمَانِكُمْ بِهِ أَيِ بِاللَّهِ.
البلاغة :

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ مَعْنَى الْاسْتِفْهَامِ هُنَا : التَّقْرِيعُ وَالتَّوْبِيخُ ، وَهُوَ فِي مَعْنَى النِّفْيِ ، أَيِ مَا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ، فَكَيْفَ تَنْسُبُونَ إِلَيْهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَا شَهِدْتُمُوهُ أَنْتُمْ وَلَا أَسْلَفُكُمْ. إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ كُنِيَ بِالْمَوْتِ عَنْ مَقْدَمَاتِهِ ، لِأَنَّهُ إِذَا حَضَرَ الْمَوْتُ نَفْسُهُ لَا يَقُولُ الْمُحْتَضِرُ شَيْئاً. آبَائِكَ مَجَازٌ لِلتَّغْلِيْبِ ، إِذْ شَمِلَ الْعِلْمَ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ ، وَالْجَدَ وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ ، وَالْأَبَ وَهُوَ إِسْحَاقُ. وَقَالُوا : كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى فِيهِ إِيْجَازٌ بِالْحَذْفِ ، أَيِ قَالَ الْيَهُودُ : كُونُوا يَهُوداً ، وَقَالَ النَّصَارَى : كُونُوا أَنْصَارِي.

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ فِيهِ إِيْجَازٌ ، أَيِ يَكْفِيكَ اللَّهُ شَرْهَمَ. وَالتَّعْبِيرُ بِالسَّيْنِ بَدَلٌ سَوْفَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ قَرِيبٌ. السَّمِيعُ الْعَلِيمُ مِنْ صِيْغِ الْمَبَالِغَةِ ، وَمَعْنَاهُ : الَّذِي أَحَاطَ سَمْعُهُ وَعِلْمُهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ.
المفردات اللغوية :

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ « أَمْ » هُنَا بِمَعْنَى « بَلْ » وَبِمَعْنَى هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ وَالْمَعْنَى : أَكُنْتُمْ حَاضِرِينَ ، وَالْهَمْزَةُ بِمَعْنَى النِّفْيِ ، أَيِ مَا كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ، وَحَضُورُ الْمَوْتِ : حَضُورُ أَمَارَاتِهِ وَمَقْدَمَاتِهِ ، بَعْدِي بَعْدَ مَوْتِي.
أُمَّةٌ جَمَاعَةٌ ، خَلَتْ مُضَتْ وَذَهَبَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ مَا عَمِلَتْ ، وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ أَيِ أَنْتُمْ مُجْزِيُونَ

بأعمالكم.

هُوداً أَوْ نَصَارَى أَوْ لِلتَّفْضِيلِ ، وَالْهُودُ : الْيَهُودُ ، جَمْعُ هَائِدٍ أَيْ تَائِبٍ ، وَقَاتِلُ الْأَوَّلِ :

(٣٢٧/١)

يهود المدينة ، وقائل الثاني : نصارى نجران. حَنِيفًا مَائِلًا عَنِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ الْقِيمِ.

ج ١ ، ص : ٣٢٢

قُولُوا : آمَنَّا بِخَطَابِ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ مِنَ الصَّحْفِ الْعَشْرِ.

الْأَسْبَاطُ وَاحِدُهُمْ سِبْطٌ أَيْ وَلَدُ الْوَلَدِ ، وَالْأَسْبَاطُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالْقَبَائِلِ مِنَ الْعَرَبِ ، وَالشُّعُوبُ مِنَ الْعَجَمِ ، وَهُمْ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَهُوَ التَّوْرَةُ وَمَا أُوتِيَ عِيسَى وَهُوَ الْإِنْجِيلُ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فَتَوْمنَ بَعْضُ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

شِقَاقٍ خِلَافَ مَعَكُمْ ، مَأْخُوذٌ مِنَ الشَّقِّ وَهُوَ الْجَانِبُ ، فَكَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ فِي شَقٍّ غَيْرِ شَقِّ صَاحِبِهِ ، لَمَّا بَيْنَهُمَا مِنْ عَدَاوَةٍ.

سبب نزول الآية (١٣) (٣) :

نزلت في اليهود حين قالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ يَعْقُوبَ يَوْمَ مَاتَ أَوْصَى بَنِيهِ بِالْيَهُودِيَّةِ ؟ .

وسبب نزول الآية (١٣٥) :

هو ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال ابن صوريا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فأتبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله فيهم : وَقَالُوا : كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال : نزلت في رؤوس يهود المدينة :

كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، وأبي ياسر بن أخطب ، وفي نصارى أهل نجران ، وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين ، كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله تعالى من غيرها ، فقالت اليهود : نبينا موسى أفضل الأنبياء ، وكتابنا التوراة أفضل الكتب ، وديننا أفضل الأديان ، وكفرت بعيسى والإنجيل ومحمد والقرآن ، وقالت النصارى : نبينا عيسى أفضل الأنبياء ، وكتابنا أفضل الكتب ، وديننا أفضل الأديان ، وكفرت بمحمد والقرآن. وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين : كونوا على ديننا ، فلا دين إلا ذلك ، ودعوهم إلى دينهم.

ج ١ ، ص : ٣٢٣

التفسير والبيان :

ما كنتم يا معشر اليهود المكذبين محمدا حاضرين حين احتضر يعقوب ، فلا تكذبوا عليه ، فإني ما أرسلت إبراهيم وبنيه إلا بالحنيفية وهي الإسلام ، وبه أوصوا ذريتهم. والدليل أن يعقوب قال لبنيه : أي شيء تعبدون بعد موتي ؟

فأجابوه : نعبد إلهك الله الواحد الذي دلت الأدلة على وجوده ووحدانيته ، ولا نشرك به سواه. وهو إله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، ونحن له منقادون خاضعون لحكمه. وجعلوا إسماعيل (و هو عمه) أبا ، تشبيها له بالأب ، وفي الحديث الصحيح عند الشيخين : « عم الرجل صنو أبيه » .

ثم رد الله تعالى على اليهود أنهم نسل الأنبياء وحفدتهم ، فلا يدخلون النار إلا أياما معدودات ، بقوله : تلك أمة قد مضت بملها وما عليها ، وجرت سنة الله في عباده ألا يجزى أحد إلا بعمله ، ولا يسأل عن عمل غيره ، كما قال تعالى :

أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [النجم ٥٣ / ٣٦ - ٣٩] و

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا بني هاشم ، لا يأتييني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم » . فكما أن هؤلاء السابقين لا ينفعهم إلا عملهم ، كذلك أنتم لا ينفعكم إلا أعمالكم.

وبعد أن بين الله تعالى أن دين الله واحد على لسان النبيين جميعا ، وأن على العرب وأهل الكتاب اتباع الإسلام الذي هو امتداد لدعوة الأنبياء السابقين ، وأن الخلاف في الجزئيات لا يغير من جوهر الدين. بعد هذا ندد المولى سبحانه بتمسك أهل الكتاب بفوارق الدين الجزئية ، فقال اليهود : كونوا مع اليهود في دينهم تهتدوا إلى الطريق السوي ، وقال النصارى : كونوا مع النصارى تصلوا إلى الحق ، وأتباع كل دين يدعون أن دينهم خير الأديان ، فأجابهم الله بقوله :

تعالوا إلى ملة إبراهيم الذي تدعون أنكم على دينه ، فهي الملة التي لا انحراف فيها

ج ١ ، ص : ٣٢٤

و لا اعوجاج ، ولم يكن إبراهيم ممن يشرك بالله سواه من وثن أو صنم. وفي هذا تعريض بشركهم حين قالوا : عزيز ابن الله ، والمسيح ابن الله.

ثم أمر الله المؤمنين بأن يقولوا : آمنا بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين مع الخضوع والطاعة رب العالمين ، فهو مصدر الأديان كلها ، فلا نكذب أحدا من الأنبياء ، بل نصدق جملة واحدة ، ونؤمن بجوهر

الدين وأصله الذي لا خلاف فيه ، ونشهد أن جميع الأنبياء رسل الله بعثوا بالحق والهدى ، فلا نفعل فعل اليهود الذين تبرؤوا من عيسى ومحمد عليهما السلام ، ولا نفعل فعل النصارى الذين تبرؤوا من محمد صلى الله عليه وسلم. ونحن خاضعون لله ، مطيعون له ، مدعنون له بالعبودية ، وذلك هو الإيمان الصحيح ، أما أنتم فتتبعون أهواءكم ، فالمؤمن حقيقة : هو من يؤمن بكل الكتب والأنبياء ، ولا يفرق بين أحد من الرسل ، ويؤمن بكل ما جاء به الكتاب الإلهي ، فلا يؤمن ببعض ، ويكفر ببعض الآخر.

روى البخاري عن أبي هريرة أن أهل الكتاب كانوا يقرؤون والتوراة بالعبرية ، ويفسرونها للمسلمين بالعربية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ، ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله ... » الآية « ١ » .

و

روى ابن أبي حاتم عن معقل مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم : « آمنوا بالتوراة والإنجيل ، وليسعكم القرآن » .

فإن آمن أهل الكتاب الإيمان الصحيح بالله كما آمنتم ، فأقروا بوحدانية الله ، وصدقوا بما أنزل على النبيين والمرسلين ، فقد اهتدوا إلى الطريق المستقيم ، وإن تولوا وأعرضوا عما تدعوهم إليه يا محمد من الرجوع إلى أصل الدين ، وفرقوا بين رسل الله ، فصدقوا ببعض ، وكفروا ببعض ، فإن موقفهم موقف الشقاق

)

(٣٣٠/١)

(١) تفسير القرطبي : ١٤٠ / ٢ .

ج ١ ، ص : ٣٢٥

(الخلاف) والنزاع والعداوة ، وإذا كان هذا موقفهم فسيكيفيكم الله شرهم وأذاهم ومكرهم. وسيبدد شملهم ، وينصرمكم عليهم. وقد تحقق ذلك بقتل بني قريظة وسبي ذراريهم ، وإجلاء بني النضير إلى الشام ، وفرض الجزية على نصارى نجران ، والله هو السميع لما يقولون ولكل قول ، العليم بما يسرون من الحقد والحسد والبغضاء ، وبكل فعل. فقه الحياة أو الأحكام :

دلت آية : قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ ... الآية على أن دين الله واحد في كل أمة ، وعلى لسان كل

نبي ، فهو دين التوحيد الخالص لله ، والإذعان لجميع الأنبياء ، كما قال تعالى : شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحًا ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ، وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ [الشورى ١٣ / ٤٢] .

ولقد حث القرآن على اتباع الدين الواحد الذي يقوم على أمرين :

الأول- التوحيد ونبد الشرك والوثنية بمختلف الأنواع.

الثاني- الاستسلام لله والخضوع له في جميع الأعمال.

فمن لم يتصف بالأمرين معا فليس بمسلم ، ولا على نهج الدين القيم الذي دعا إليه الأنبياء ، ومنهم النبي صلى الله عليه وسلم.

فدين إبراهيم الحنيف هو الدين الذي دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، وكان إبراهيم حنيفا ، أي مائلا عن الأديان المكروهة إلى الدين الحق.

وكل ما يغير هذا الأصل ، فيدعو إلى الإشراك ومخالفة ملة إبراهيم ، بجعل عزيز ابن الله ، والمسيح ابن الله ، فهو من المشركين.

وكل المعبودات من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والأحجار.

ج ١ ، ص : ٣٢٦

(٣٣١/١)

و لا يؤاخذ أحد بذنب أحد ، كما دلت آية وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ [البقرة ٢ / ١٣٤] . وآية وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [الأنعام ٦ / ١٦٤] أي لا تحمل ثقل ذنب أخرى . قال الجصاص عن آية تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ : يدل على ثلاثة معان :

أحدها- أن الأبناء لا يثابون على طاعة الآباء ولا يعذبون على ذنوبهم ، وفيه إبطال مذهب من يجيز تعذيب أولاد المشركين بذنوب ، الآباء ، ويبطل مذهب من يزعم من اليهود أن الله تعالى يغفر لهم ذنوبهم بصلاح آبائهم . وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في نظائر ذلك من الآيات ، نحو قوله تعالى : وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا [الأنعام ٦ / ١٦٤] وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى [الأنعام ٦ / ١٦٤] وقال : فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ [النور ٢٤ / ٥٤] ، وقد

بين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لأبي رمثة ، وراة مع ابنه : أهو ابنك ؟

فقال : نعم ، قال : « أما إنه لا يجني عليك ، ولا تجني عليه »

قال عليه السّلام : « يا بني هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم ، فأقول : لا أغني عنكم من الله شيئا »

و

قال عليه السّلام : « من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » « ١ » .

أما الأسباط : فهم ولد يعقوب عليه السلام ، وهم اثنا عشر ولدا ، ولد لكل واحد منهم أمة من الناس ، واحدهم سبط ، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل . وسمّوا الأسباط من السبط وهو التابع ، فهم جماعة متتابعون .

قال ابن عباس : كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة : نوحا وشعبيا وهودا وصالحا ولوطا وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمدا صلّى الله عليه وسلم . ولم يكن أحد له اسمان إلا عيسى ويعقوب .

)

(٣٣٢/١)

(١) أحكام القرآن للجصاص : ١ / ٨٤

ج ١ ، ص : ٣٢٧

و أرشدت الآية فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ إِلَى أَنْ اللَّهُ نَاصِرُ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدًا عَلَى أَعْدَائِهِ ، وكان هذا وعدا من الله تعالى لنبیه عليه السّلام أنه سيكفيه من عانده ومن خالفه من المتولين ، بمن يهديه من المؤمنين ، فأنجز له الوعد ، وكان ذلك في قتل بني قينقاع وبني قريظة ، وإجلاء بني النضير .

قال الجصاص : هذا إخبار بكفاية الله تعالى لنبیه صلّى الله عليه وسلم أمر أعدائه ، فكفاه مع كثرة عددهم وحرصهم ، فوجد مخبره على ما أخبر به ، وهو نحو قوله تعالى :

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ « ١ » [المائدة ٥ / ٦٧] .

والمؤمن هو الذي يثق بوعد الله وبتأييده ، ويخشى الله ويتقيه ، لأنه المهيمن على كل شيء في هذا الوجود ، وهو السميع لقول كل قائل ، العليم بما ينفذه في عبادته ويجريه عليهم .

صبغة الإيمان وأثره في النفوس والعبودية لله تعالى [سورة البقرة (٢) : الآيات ١٣٨ الى ١٤١]

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

(١) المرجع والمكان السابق.

ج ١ ، ص : ٣٢٨

(٣٣٣/١)

الإعراب

صِبْغَةُ اللَّهِ أي دين الله ، مصدر مؤكد لآمنا ، وهو إما منصوب بفعل مقدر ، تقديره : اتبعوا صبغة الله ، أو منصوب على الإغراء ، أي عليكم صبغة الله ، أو منصوب بدلا من قوله تعالى : مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ. وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً أي دنيا ، وصِبْغَةً منصوب على التمييز ، كقولك : زيد أحسن القوم وجها.

والجمل الثلاث وهي وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ أحوال. البلاغة :

صِبْغَةُ اللَّهِ سمي الدين صبغة بطريق الاستعارة ، حيث تظهر سمته على المؤمن ، كما يظهر أثر الصبغ في الثوب.

أَ تَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ استفهام إنكاري بقصد التوبيخ والتقريع.

المفردات اللغوية :

صِبْغَةُ اللَّهِ الصبغة في اللغة : اسم لهيئة صبغ الثوب ، وجعله بلون خاص ، فهي الحالة التي عليها الصبغ ، والمراد بها هنا الإيمان أو دين الله الذي فطر الناس عليه ، لظهور أثره على صاحبه ، كالصبغ في الثوب. والإيمان أو الدين مطهر للمؤمنين من أدران الشرك ، وهو حلية تزينهم بآثاره الجميلة ، وهو متداخل ومنتشر في قلوب المؤمنين ، كما يتداخل الصبغ. وبه يتبين أن الإيمان يشبه الصبغة في التطهير والحلية والتداخل.

أَ تَحَاجُّونَنَا أَتَجَادَلُونَنَا وَتَخَاصِمُونَنَا فِي اللَّهِ أن اصطفى نبيا من العرب. وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ فله أن يصطفى من عباده من يشاء وَلَنَا أَعْمَالُنَا نَجَازِي بِهَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ تَجَازُونَ بِهَا مُخْلِصُونَ الدين والعمل ، لا نبغي بأعمالنا غير وجه الله ، فنحن أولى بالاصطفاء.

سبب نزول الآية (١٣٨) :

قال ابن عباس : إن النصارى كان إذا ولد لأحدهم ولد ، فأتى عليه سبعة أيام ، صبغوه في ماء لهم ،

يقال له : المعمودي ، ليظهره بذلك ، ويقولون :

ج ١ ، ص : ٣٢٩

(٣٣٤/١)

هذا طهور ، مكان الختان ، فإذا فعلوا ذلك ، صار نصرانيا حقا ، فأنزل الله هذه الآية « ١ » .
التفسير والبيان :
علم الله المؤمنين وأمرهم في الآية السابقة (١٣٦) أن يقولوا : آمنا بالله وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله وكتبه ، وأمرهم أيضا في هذه الآية أن يقولوا : صبغنا الله وفطرنا على الاستعداد للحق والإيمان بما جاء به الأنبياء ، وهل هناك صبغة أحسن من صبغة الله الحكيم الخبير ؟ ! ومن صبغة الإسلام ، فالله هو الذي يصبغ عباده بالإيمان ، وبطهرهم به من أدران الشرك ، فلا تتبع صبغة أحد من الزعماء والأخبار ، فهي صبغة بشرية مزيفة تفرق الدين الواحد ، وتمزق الأمة أحزابا متنافرة.
ونحن لله الذي أنعم علينا بالنعم الجليلة التي منها نعمة الإسلام والهداية عابدون لا نعبد سواه ، ومخلصون وقانتون ، فلا نتخذ الأخبار والرهبان أربابا يزيدون في الدين وينقصون ، ويحللون ويحرمون ، ويمسحون من التقوس صبغة التوحيد ، ويضعون فيها صبغة الشرك بالله.
ثم أمر الله نبيه بأن يقول لأهل الكتاب : أتجادلوننا في دين الله ، وتدعون أن الدين الحق هو اليهودية والنصرانية ، وتتأملون بهما دخول الجنة ، وتقولون أحيانا : لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى [البقرة ٢ / ١١١] ، وأحيانا تقولون : كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا [البقرة ٢ / ١٣٥].
ومن أين لكم هذه الدعاوى وادعاء الهداية والقرب من الله دوننا ، والله ربنا

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١ / ٢٤١ ، أسباب النزول للواحدي : ص ٢٢ ، تفسير القرطبي :

٢ / ١٤٤ . [.....]

ج ١ ، ص : ٣٣٠

(٣٣٥/١)

و ربكم ورب العالمين ، لا فرق بيننا وبينكم في العبودية لله ، فهو خالقنا وخالقكم ، ومالك أمرنا وأمركم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم الحسنة والسيئة ، والله يجازي كل إنسان بعمله ، فلا تفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل الصالح ، أما أنتم فقد اعتمدتم على أسلافكم الصالحين ، وزعمتم أنهم

شفعاء لكم ، وأما نحن فنعتمد على إيماننا وعملنا ، ونحن لله مخلصون في تلك الأعمال ، لا نقصد بها إلا وجهه ، فكيف تدعون أن لكم الجنة والهداية دون غيركم ؟ ! وكيف تقولون : إن اختصاصكم بالقرب من الله دوننا هو من الله ، أو تقولون : إن امتيازكم باليهودية أو النصرانية التي أنتم عليها هو لأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط الأنبياء كانوا يهودا ، أو كانوا نصارى ، فأنتم مقتدون بهم ؟ وهذا ادعاء كاذب ، فإن هذين الاسمين إنما حدثا فيما بعد ، فما حدث اسم اليهودية إلا بعد موسى ، وما حدث اسم النصرانية إلا بعد عيسى ؟

والمراد إنكار ادعاء الطرفين وتوبيخهم على كلا الأمرين ، وهل أنتم تعلمون بالمرضي عند الله ، أم أن الله أعلم بما يرضيه وما يتقبله ؟ لا شك أن الله هو العليم بذلك دونكم ، وقد ارتضى للناس ملة إبراهيم ، وأنتم تعترفون بذلك ، وكتبكم تصدقه قبل أن تجيء اليهودية والنصرانية ، فلما ذا لا ترضون هذه الملة ؟

ولا أحد أشد ظلما ممن يكتنم شهادة ثابتة عنده من الله ، وهي شهادته تعالى لإبراهيم ويعقوب بالحنيفية المسلمة ، والبراءة من اليهودية والنصرانية ، وشهادته تعالى المثبتة في كتاب الله التي تبشر بأن الله يبعث في الناس نبيا من بني إخوانهم ، وهم العرب أبناء إسماعيل.

قال الزمخشري : ويحتمل معنيين :

أحدهما- أن أهل الكتاب لا أحد أظلم منهم لأنهم كتموا هذه الشهادة ، وهم عالمون بها.

ج ١ ، ص : ٣٣١

(٣٣٦/١)

و الثاني- أننا لو كتمنا هذه الشهادة ، لم يكن أحد أظلم منا . وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة في كتبهم ، وسائر شهاداته « ١ » .

وليس الله غافلا عن أعمالكم ، فهو محصيا ومجازيكم عليها ، وفي ذلك وعيد وتهديد ، عقب التقرير والتوبيخ.

تلك جماعة الأنبياء لها ما كسبت من الأعمال الحسنة ، ولكم ما كسبتم من العمل الحسن ، ولا يسأل أحد عن عمل غيره ، بل يسأل عن عمل نفسه ، فلا يضره ولا ينفعه سواه ، فأنتم لا تسألون عن أعمال السابقين ، وهم لا يسألون عن أعمالنا ، تلك قاعدة الأديان التي أقرتها العقول ، وهي المسؤولية الشخصية أو الفردية ، كما قال تعالى : أَلَا تَرَىٰ وَازِرَةً وِزْرًا أُخْرَىٰ ، وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى [النجم ٥٣ / ٣٨ - ٣٩]. كرر الحق سبحانه هذه القاعدة وهذه الآية بمناسبة متعددة ، فقد ذكرت في الآية السابقة (١٣) (٤) للمبالغة عما يفتخرون به من أعمال الآباء ، والاتكال على الماضي ، وهذا شأن

الخامل الضعيف الذي ينظر إلى الماضي ، ويتكاسل عن المستقبل .
وكرر الله أيضا قوله في مواطن كثيرة : وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ لتأكيد الجزاء والحساب ورصد الأعمال ، وذلك هو العدل المطلق بين الخلائق ، قال أبو حيان : ولا تأتي الجملة إلا عقب ارتكاب معصية ، فتجيء متضمنة وعيدا ، ومعلمة أن الله لا يترك أمرهم سدى « ٢ » .
فقه الحياة أو الأحكام :
نبذ الإسلام كلَّ الصُّور والهيكل والطقوس الفارغة كالمعمودية عند النصارى ونحوها ، وأعلن بكل صراحة أن المعول عليه هو ما فطر عليه النفوس من الإقرار

(١) الكشف : ٢٤٢ / ١ .

(٢) البحر المحيط : ٤١٦ / ١ ، ط الرياض .

ج ١ ، ص : ٣٣٢

(٣٣٧/١)

بوحداية الله ، وإخلاص العمل لله ، وحب الخير والاعتدال في الأمور ، كما قال سبحانه : فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ [الروم ٣٠ / ٣٠] .

وإن روح الدين التوحيد ، وأساسه الإخلاص ، وهذا ما دعا إليه جميع الأنبياء ، وجدد الدعوة إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، فدعوته أو شريعته مكملة لدعوة وشريعة إخوانه النبيين والمرسلين .
أما الدعاوي الرخيصة ، والأكاذيب المفتراة ، والأمانى التي لا تعتمد على برهان ، مما صدر من اليهود والنصارى ، فكل ذلك باطل بالحجج الثلاث التي دحض بها القرآن كل ما ذكر وهي قوله : وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ [البقرة ٢ / ١٣٩] ، وقوله : أَمْ تَقُولُونَ : إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ [البقرة ٢ / ١٤٠] ، وقوله : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ [البقرة ٢ / ١٤٠] .

ولا تكون النجاة بالاعتماد على أعمال الآخرين من الأسلاف وغيرهم ، ولا على شفاعة الصالحين دون انتفاع بهديهم وسنتهم ، وإنما السعادة والنجاة بالعمل الصالح . وأساس الصلاح إخلاص العبادة لله ، وحقيقة الإخلاص : تصفية الفعل عن مراعاة المخلوقين .

وقد أكدت هذه الآيات أمرين عظيمين جدا هما :

الأول- أن المسؤولية الشخصية أساس الحساب ، ومناط الجزاء والعقاب ، وهذا ما تفاخر به الشريعة الإسلامية التي جاءت ناقضة لأعراف الجاهلية عند العرب والرومان من توجيه المسؤولية لغير الجاني

الحقيقي.

الثاني- أن أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بعملهم وكسبهم ، فغيرهم من الناس العاديين أخرى وأولى.

انتهى الجزء الأول

(٣٣٨/١)

ج ٢ ، ص : ٥

[الجزء الثاني]

[تتمة سورة البقرة]

التمهيد لتحويل القبلة [سورة البقرة (٢) : الآيات ١٤٢ الى ١٤٣]

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢) ١٤٢ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)

الإعراب :

وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله : إن مخففة من إن الثقيلة ، واسمها محذوف أي وإنها ، واللام في لكبيرة لام التأكيد التي تأتي بعد إن المخففة من الثقيلة ، ليفرق بينها وبين « إن » التي بمعنى « ما » في نحو قوله تعالى : إن هُم إلا كالأنعام [الفرقان ٢٥ / ٤٤] . والتاء في كانت إما أن يراد بها التولية من بيت المقدس إلى الكعبة ، وإما أن يراد بها الصلاة ، أي وإن كانت الصلاة لكبيرة إلا على من هداهم الله . هدى الله أي هداهم الله ، فحذف ضمير المفعول العائد من الصلة إلى الموصول ، كقوله تعالى : أهذا الذي بعث الله رسولا [الفرقان ٢٥ / ٤١] . أي بعثه الله . وإنما حذف الضمير تخفيفا.

البلاغة :

يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ استعارة تمثيلية ، حيث مثل لمن يرتد عن دينه بمن ينقلب على عقبيه . لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ من صيغ المبالغة ، والرأفة : شدة الرحمة ، وقدم الأبلغ مراعاة للفاصلة والمعنى متقارب .

ج ٢ ، ص : ٦

المفردات اللغوية :

(١/٢)

السُّفَهَاءُ السَّفَهَاءُ : اضطراب الرأي والفكر أو الأخلاق ، والسفهاء : الجهال ضعفاء العقول ، والمراد بهم هنا : منكر وتغير القبلة من اليهود والمشركون والمنافقين. وَلَآهُمْ صرفهم أي النبي صَلَّى الله عليه وسلّم والمؤمنين. « القبلة » أصلها الحالة التي يكون عليها المقابل ، ثم خصت بالجهة التي يستقبلها الإنسان في الصلاة ، وهي قبلة المسلمين في الصلاة وهي جهة الكعبة المشرفة لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ أي الجهات كلها ، فيأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء. صِرَاطٍ طريق. مُسْتَقِيمٌ مستوي معتدل من الأفكار والأعمال ، وهو ما فيه الحكمة والمصلحة ، وهو دين الإسلام.

وَسَطًا الوسط : منتصف الشيء أو مركز الدائرة ، ثم أسترعير للخصال المحمودّة ، إذ كلّ صفة محمودّة كالشجاعة وسط بين الطرفين : الإفراط والتفريط ، والفضيلة في الوسط. والمراد : الخيار العدول الذين يجمعون بين العلم والعمل. عَقَبِيهِ العقب مؤخّر القدم ، يقال : انقلب على عقبيه عن كذا : إذا انصرف عنه بالرجوع إلى الوراء ، وهو طريق العقبين ، والمراد : يرتد عن الإسلام.

إِيمَانُكُمْ صلاتكم إلى بيت المقدس ، فإنها مسببة عن الإيمان ، بل يثيكم عليه ، لأن سبب نزولها السؤال عمن مات قبل التحويل. بِالنَّاسِ المؤمنين. لَرُؤُفٌ رَحِيمٌ في عدم إضاعة أعمالهم ، والرأفة : شدة الرحمة ، وهي رفع المكروه وإزالة الضرر ، والرحمة أعم ، إذ تشمل دفع الضرر ، وفعل الإحسان. سبب النزول :

(٢/٢)

روى البخاري عن البراء قال : لما قدم رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم المدينة ، فصلّى نحو بيت المقدس ستّة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا ، وكان رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم يحب أن يتوجه نحو الكعبة ، فأنزل الله تعالى : قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ الْآيَةِ [البقرة ٢ / ١٤٤] ، فقال السفهاء من الناس وهم اليهود : مَا وَلَآهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا ، قال الله تعالى : قُلْ : لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ الْآيَةِ.

وفي الصحيحين عن البراء : مات على القبلة قبل أن تحول رجال ، فلم ندر ما نقول فيهم ، فأنزل الله : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ.

ج ٢ ، ص : ٧

المناسبة بين الآيات :

ما يزال القرآن يتصدى لما كان عليه اليهود وإن شاركهم فيه غيرهم من المشركين كإنكار تحويل القبلة والنسخ.

كان النبي صَلَّى الله عليه وسلّم يصلي وهو بالمدينة متجها إلى الصخرة التي في المسجد الأقصى بيت المقدس ، كما كان أنبياء بني إسرائيل يفعلون قبله ، وظل كذلك ستة عشر شهرا ، ولكنه كان يحب استقبال الكعبة ويتمنى ويدعو الله أن يتوجه إلى قبلة أبيه إبراهيم وهي الكعبة ، فكان يجمع بين استقبالها واستقبال الصخرة ، فيصلّي في جنوب الكعبة مستقبلا الشمال ، فاستجاب الله له وأمره بالتوجه إلى البيت العتيق ، بعد هجرته إلى المدينة ، ونزل قوله تعالى : قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ [البقرة ٢ / ١٤٤] . وكان أول صلاة صلاها هي العصر ، كما في الصحيحين ، قال اليهود والمشركون والمنافقون : ما الذي دعاهم إلى تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ؟ وقالوا : لقد اشتاق محمد إلى مولده ، وعن قريب يرجع إلى دينه .

(٣/٢)

و قد بدئ الكلام بالرد على اعتراضهم على التحويل قبل وقوعه ، معجزة له عليه الصلاة والسلام ، ولقن الله نبيه الحجة البالغة والحكمة فيه ، ليوطن نفسه عليه ، ويستعد للإجابة ، عند مفاجأة التساؤلات . وخلاصة الجواب : أنّ الجهات كلها لله ، فلا مزية لجهة على أخرى ، ولله أن يأمر بالاتجاه إلى ما يشاء من أي جهة ، وعلى العبد امتثال أمر ربه كما قال : وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ [البقرة ٢ / ١١٥] .

التفسير والبيان :

مهّد الله تعالى لتحويل القبلة في هذه الآيات ، وأبان السبب ، وقضى على ما علم سبحانه من ظهور اضطرابات عند التحويل ، حتى لا يفاجأ المسلمون بشيء

ج ٢ ، ص : ٨

من حملات التشويش والنقد والتشكيك ، فأوضح تعالى أن سفهاء الأحلام وضعفاء العقول والإيمان من طوائف اليهود والمشرّكين والمنافقين سيقولون منكبين متعجبين : أي شيء صرف المسلمين عن قبلتهم التي كانوا عليها ، وهي قبلة الأنبياء والمرسلين ؟ أما اليهود فساءهم ترك الاتجاه لقبلتهم ، وأما المشركون فقصّدوا الطعن في الدين ، ورأوا ألا داعي للتوجه في الحالين ، وأما المنافقون : فشأنهم انتهاز الفرص لزرع الشكوك في الدين ، ومحاولة الإبعاد عنه بسبب هذا التغيير ، وعدم الاستقرار ، ومخالفة الأعراف السابقة بالاتّجاه لبيت المقدس .

(٤/٢)

فردّ الله عليهم جميعاً بأنّ الجهات كلها لله ، ولا مزية لجهة على أخرى ، وليست صخرة بيت المقدس أو الكعبة ذات نفع خاص لا يوجد في غيرهما ، وإنما الأمر كله لله ، يختار ما يشاء ، وأينما تولوا فثم وجه الله ، ومن مراده المطلق أنه يجعل للناس قبلة واحدة تجمعهم في عبادتهم ، وقد أمر الله المؤمنين في بداية الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس ، إعلاما بأن دين الله واحد ، ووجهة جميع الأنبياء واحدة ، وقصدهم الحقيقي هو الاتجاه إلى الله ، ثم أمرهم بالاتّجاه إلى الكعبة ، فامثلوا الأمر في الحالين ، لأن المصلحة فيما أمر الله ، والخير فيما وجّه ، والله يرشد من يشاء إلى الطريق الأقوم المؤدي لسعادة الدنيا والآخرة ، سواء بالتوجه إلى بيت المقدس أو بالاتّجاه إلى الكعبة.

ثم خاطب الله المؤمنين ممتنّاً ومتفضلاً عليهم قائلاً لهم : وَكَذَلِكَ .. « ١ »

أي كما هديناكم إلى الصراط المستقيم وهو دين الإسلام ، وحولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واختارناها لكم ، جعلنا المسلمين خياراً عدولاً ، فهم خيار الأمم والوسط في الأمور كلها بلا إفراط ، ولا تفريط ، في شأن الدين والدنيا ، وبلا غلو

(١) كذلك : الكاف للتشبيه ، وذلك : اسم إشارة ، والكاف في موضع نصب إما لكونه نعتاً لمصدر محذوف ، وإما لكونه حالاً ، والمعنى : جعلناكم أمة وسطاً جعلاً مثل ذلك.

ج ٢ ، ص : ٩

لديهم في دينهم ، ولا تقصير منهم في واجباتهم ، فهم ليسوا بالماديين كاليهود والمشرّكين ، ولا بالروحانيين كالنصارى ، وإنما جمعوا بين الحقّين : حقّ الجسد وحقّ الروح ، ولم يهملوا أي جانب منهما ، تمشياً مع الفطرة الإنسانية القائمة على أن الإنسان جسد وروح.

(٥/٢)

و من غايات هذه الوسطية وثمرتها : أن يكون المسلمون شهداء على الأمم السابقة يوم القيامة ، فهم يشهدون أن رسلهم بلغتهم دعوة الله ، ففرط الماديون في جنب الله وأخلدوا إلى اللذات ، وحرّم الروحانيون أنفسهم من التمتع بحلال الطيبات ، فوقعوا في الحرام ، وخرجوا عن جادة الاعتدال ، فجنوا على متطلبات الجسد.

ويؤكد ذلك أن يشهد الرسول على أمته محتجّاً بالتبليغ ، أي أنه بلغهم شرع الله المعتدل ، وأنه كان إماماً مقسطاً ، وقدوة حسنة ، ومثلاً أعلى في الوسطية ، فلا يحيدون عنها ، لأنهم معروضون لإقامة الحجة عليهم من نبيهم ، بما أعلنه من الدين القويم ، وبما التزمه من السيرة الحسنة ، فمن حاد عنها شهد عليه الرسول صلى الله عليه وسلّم بأنه ليس من أمته التي وصفها الله بقوله : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ [آل عمران ٣ / ١١٠] ،
وبذلك خرج من الوسط إلى الانحراف ، ويكون حسابان شهادة الرسول بمثابة العاصم عن الانحراف ،
والنزام الحق والعدل .

ويوضح نوعي الشهادة على الأمم وشهادة الرسول باعتبار أن الشهيد كالقريب والمهيمن على المشهود
له : ما

روي : « أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء ، فيطالب الله الأنبياء بالبينه ، على أنهم قد بلغوا ،
وهو أعلم ، فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيشهدون ، فتقول الأمم : من أين عرفتم ،
فيقولون :

علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق ، فيؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم ،
فيسأل عن حال أمته ، فيزكيهم ويشهد بعدالتهم
، وذلك قوله ،

ج ٢ ، ص : ١٠

تعالى : فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً [النساء ٤ / ٤١] .

(٦/٢)

و السبب في تأخير صلة الشهادة (أي على) أولا في قوله تعالى شُهِدَاءَ عَلَى النَّاسِ وتقديمها آخرا في
قوله عَلَيْهِمْ شَهِيداً : هو أن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم ، وفي الآخر اختصاصهم
بكون الرسول شهيدا عليهم .

والحاصل : أن الشهادة على الأمم ميزانها وسببها وسطية الإسلام ، ويؤكد بها شهادة الرسول صلى الله
عليه وسلم على أمته بأنه يزكيهم ويعلم بعدالتهم .

وقوله تعالى : وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ أَيِّ إِنَّمَا شَرَعْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ التَّوَجُّهُ أَوَّلًا إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، ثم صرفناك
عنها إلى الكعبة ، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيث توجهت ، ممن ينقلب على
عقبه ، أي فيثنين الثابت على إيمانه ممن لا ثبات له ، فهو امتحان وابتلاء ليظهر ما علمناه ، ويجازى
كل إنسان على عمله . هذا هو الظاهر من الآية في أَنَّ المراد بالقبلة هنا : القبلة الأولى ، لقوله تعالى
كُنْتُ عَلَيْهَا . وقيل : الثانية أي الكعبة ، فتكون الكاف زائدة ، والمراد أنت عليها الآن ، كما في قوله
تعالى : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [آل عمران ٣ / ١١٠] ، أي أنتم ، في قول بعضهم .

وقد اتجه الزمخشري ومثله أبو حيان إلى القول الثاني قائلا : الَّتِي كُنْتُ عَلَيْهَا ليست بصفة للقبلة ، إنما
هي ثاني مفعولي جعل ، يريد : وما جعلنا القبلة الجهة التي كنت عليها ، وهي الكعبة ، لأن رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَصْلِي بِمَكَّةَ إِلَى الْكَعْبَةِ ، ثُمَّ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ إِلَى صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدَسِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ ، تَأْلُفًا لِلْيَهُودِ ، ثُمَّ حَوَّلَ إِلَى الْكَعْبَةِ. فيقول : وما جعلنا القبلة التي يجب أن تستقبلها الجهة التي كنت عليها أولاً بمكة ، يعني وما رددناك إليها إلا امتحاناً للناس وابتلاء.

ج ٢ ، ص : ١١

(٧/٢)

و المراد بقوله : إِلَّا لِنَعْلَمَ ... ظهور العلم بين الناس ووقوعه ، قال علي رضي الله عنه : معنى لِنَعْلَمَ : لنرى. والعرب تضع العلم مكان الرؤية ، والرؤية مكان العلم ، كقوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ... [الفيل ١٠٥ / ١] ، بمعنى أَلَمْ تَعْلَمْ.

وقوله : وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً أَيْ وَإِنْ كَانَتْ الْقِبْلَةُ الْمَحْوَلَةُ شَاقَّةً ثَقِيلَةً عَلَى مَنْ أَلْفَ التَّوَجُّهَ إِلَى الْقِبْلَةِ الْأُولَى ، أو هذه الفعلة أي التحويلة وهي صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ، فإن الإنسان ألوف لما يتعوده ، إلا على الذين هداهم الله بمعرفة أحكام دينه وسرّ تشريعه ، ووقفهم لما يريد ، فعلموا أن المطلوب طاعة الله حيثما شاء ، وأن الحكمة في اختيار قبلة ما : هو اجتماع الأمة عليها ، وتوحيد مشاعرهم نحوها ، مما يدفعهم إلى اتّحادهم وجمع كلمتهم في كل شؤون حياتهم : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَأَدَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَرَأَدَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ [التوبة ٩/ ١٢٤-١٢٥].

وقوله : وَمَا كَانَ اللَّهُ .. أَيْ وَمَا كَانَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ تَقْضِي بِإِضَاعَةِ ثَبَاتِكُمْ عَلَى الْإِيْمَانِ وَاتِّبَاعِكُمُ الرِّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ وَفِي الْقِبْلَةِ ، وَأَنَّ اللَّهَ يَجْزِيكُمُ الْجِزَاءَ الْأَوْفَى ، وَلَا يَضِيعُ أَجْرَكُمْ ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ بِعِبَادِهِ ، ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ بِخَلْقِهِ ، فَلَا يَضِيعُ عَمَلُ عَامِلٍ مِنْهُمْ ، وَلَا يَكُونُ ابْتِلَاؤُهُمْ لِمَعْرِفَةِ صِدْقِ إِيْمَانِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ سَبَبًا فِي إِضَاعَةِ ثَمَرَاتِ الْإِيْمَانِ وَتَفْوِيتِ الْجِزَاءِ ، بَلْ يَجَازِيهِمْ أَتَمَّ جِزَاءً.

(٨/٢)